رواية

نهاية الصحراء

سعيد خطيبي



نوفل

نهاية الصحراء

صدرت عام 2022 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

صورة الغلاف: **Jill Bottaglia / Trevillion Images ©**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **أحمد محسن**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-060-016-4
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-060-017-1



إلى روح طاووس عمروش

ارتضى بنهاية الحبّ وأن لا مكانة له في هذه
المسرحيّة التي تدور وقائعها في الصحراء.

إديث مود هول

1

قرط من فضّة ولؤلؤ

9 سبتمبر

سمّوني إبراهيم أو بريهوم أو بريهة، فالاسم ليس مهمّاً في هذا المكان...

أيقظني صياح بائع أوانٍ جوّال ذلك الصباح. «الله يعطيك قرحة في اللسان»... دعوت عليه، فقد حرمني من غفوة بعدما قضيت الليل في مُعاينة أفلام جديدة، على عجل، ولم أغمض عيني سوى ساعة الفجر: فيلما وسترن وآخر هندي، مع ثلاثة أفلام للكبار، كفّنتها في ورق جرائد، وسرت إلى المطبخ:

– خلصت القهوة؟ استوضحت أمّي متأفّفاً.

– اشرب السمّ، أجابتني وهي تنشر ثياباً في حوش الدار.

كانت كلّما عاودها ألم ضرسها احتدّ لسانها.

شعرت بأنّ رأسي أثقل من العادة وخرجت صافعاً الباب، غير مُبالٍ بمَسَبّاتها، فهي لم ترض بمهنتي، التي داومت عليها منذ ما يقرب من عامين، بعدما استدنت واستأجرت محلّاً، يعرض أشرطة أفلام ويؤجّر جهاز تشغيل فيديو لمن يرغب فيه. تلك هي التجارة الأقلّ جهداً والأكثر نفعاً، بعد أن حوّلت البلدية قاعة السينما الوحيدة إلى ملحقة إداريّة.

كلّما اشتـدّت شكواها، ذكّرتـها بـأنّ نيل وظيفة في قطاع الحكومة يقتضي تأدية الخدمة الوطنيّة الإلزاميّة، وأنا غير متحمّس لقضاء أربعة وعشرين شهراً في ثكنات بعيدة. لمّح إليّ عمّي لعموري، في إحدى المرّات، بمُرافقته إلى شركة المطّاط والبلاستيك، وشغل منصب مؤقّت، لكنّني اعترضت: «شاب رأسي في الجامعة باش نخدم مع جهلة؟»، تلك الشركة تحضن الفاشلين في تعليمهم وأنا لست منهم. أفضّل الموت جوعاً على أن أذهب إليها. «تعجبك تجارة الحرام؟»... كثيراً ما أنّبتني أمّي ونّاسة، فقد سمعت من جاراتنا أنّ كلّ الأفلام تظهر فيها نسوة يدخّن أو يهوين بشفاههنّ على رجال، بما يُخالف الدين، تُعرض عن مشاهدتها كلّما قابلتها في التلفزيون. لكنّني أؤثر السكوت بدل مناوشتها، أو أدسّ قطعاً نقدية في راحة يدها تطمرها في حمّالة صدرها. «الحرام ما يخرج من الفم لا ما يدخل إليه»، هذه الجملة التي سمعتها مرّة وقذفتها في أذنيها مرّات.

مشيت ربع ساعة، مروراً بجبّانة النصارى ثمّ سوق الخضر، قبل أن أبلغ مقهى الخيمة، الذي احتشدت حيطانه بصور لاعبي كرة قدم إرضاءً لروّاده، الواقع على طرف دوّار مروري يُطلق عليه دوّار الإبريق، لوجود منحوتة إبريق في وسطه لم يتدفّق منها ماء إلّا لحظة تدشينها. انساب الكافيين في دمي وعاد الاتّزان إلى رأسي، ثمّ همست للقهوجيّ المتفرّغ لتنظيف البلاط: «من أين تشترون القهوة؟»، فطقطق أصابعه ساخراً: «نزرعها». إنّها غير متاحة عند الباعة، لكنّها متوافرة في المقاهي بمذاق حادّ، كما لو أنّها مخلوطة بالحمّص المطحون أو الفول. «بلاد بلا رأس ولا أساس»، تمتمت وانطلقت إلى وسط المدينة، في سير مستقيم عبر شارع 5 جويلية، الذي يمتدّ على طول ثلاثة كيلومترات، قطعتها وأنا أحصي الحفر المتناثرة في الطريق، قبل أن أنعطف يميناً، إلى أن وصلت إلى محلّي «وردة الرمال»، المندسّ

في شارع فرعي، خلا من الناس، الذين تعوّدوا على كسل، كلّ جمعة، لا يصحون منه سوى بعد الصلاة.

أشعلت بخوراً، ثمّ رتّبت جاكيتات الأفلام الجديدة، مخبّئاً أفلام الكبار تحت منضدة خشبية على المدخل، جعلت منها ما يُشبه مكتب استقبال. مسحت زجاج الفترينة بخِرقة وتفقّدت خلفيّة المحلّ المتوارية خلف ستارة، والّتي احتلّ جلّ مساحتها سرير حديدي مفروش، أضطجع عليه أحياناً في قيلولة أو أتمرّن فيه على تحسين أدائي على القيثارة أو أواعد فيه واحدة من العابرات. لقد أتممت السابعة والعشرين من عمري ولم تعد تفتنني القصص الورديّة، مقتنعاً بمغامرات أقصر أمداً من حياة فراشة، واثقاً من أنّني سوف أُعيد أغنية «سالمة يا سلامة»، التي طافت شهرتها الأرجاء، أرسلها إلى برنامج «مواهب» الإذاعي، الذي يبثّ مرّة كلّ شهر، قصد بثّها ونيل مكافأة ماليّة عنها إذا صوّت عليها المستمعون.

سحبت، من تحت السرير، الرواية التي اشتريتها في عيد ميلادي، الذي لا يتذكّره أحد غيري، من بائع على الرصيف، كان يعرض أيضاً أقمشة وتوابل، مُتأمّلاً العنوان: «الشيخ»، المؤلّفة: إديث مود هول. سبق أن شاهدت الفيلم المقتبس منها، وابتسمت حين رمقت على صفحتها الأولى ختم «مكتبة البلديّة»، فكثيراً ما صادفت أغراضاً ملك إدارات تتبعثر في الأسواق، وقد يأتي يوم يبيعون فيه الموظّفين كذلك. أحسست بدفء يشدّني إلى «الشيخ» من جملتها الأولى: «هل تأتين للاستمتاع بالرقص...؟»، استعذبت قصّة الحبّ التي تحكيها، بين فتاة بملامح ذكوريّة وشيخ من شيوخ الصحراء الكبرى، واستغرقت في مطالعة صفحاتها الأخيرة حين دخل رجل تساقط شعر مقدّمة رأسه، يبتغي اكتراء جهاز تشغيل الفيديو، بغرض مشاهدة حفل زفاف شقيقه.

«عُد غداً» قلت له، فقد استأجرته شابّة، أطلّت من خمارها خصلات متموّجة، وبدلاً من أن تُسلّمني بطاقة هويّتها كضمانة، كما جرت العادة، فأتلصّص على اسمها وعنوانها، تركت بطاقة خطيبها. تابعت قراءتي منتفعاً من هدوء الشارع، وقد جاور الوقت منتصف نهار 9 سبتمبر 1988، غير مُدرك أنّ تلك الرواية سوف تُحيلني إلى أسوأ أيّامي.

عاشور

لولا السكين التي غرزتها في كتف ابن عمّي، لما نجوت من الموت، ولا عشت لأروي حكايتي، التي بدأت ذلك الصباح، حين لفح الحرّ صلعتي السمراء، وغيظي يتّقد على الذين رحّلوني من القرية، قبل أن يعتريني فزع من المشهد الذي قابلني. قطّبت جبيني وتعرّج ظلّي على شجرة عرعر. ضربت عصاي على الأرض مُعترضاً سبيل شياهي، عددتها من واحد إلى ستّة، ثمّ اقتدتها إلى البيت، حيث لمحت ابنتي لويزة، التي لم تتعدّ الثانية عشرة من عمرها، منحنية ببدنها النحيف مثل قلم رصاص أمام الباب، تُلاعب شقيقها سالم، الذي تعلّم لتوّه المشي، عارياً سوى من قميص أخضر يعلو سرّته، وكلّفتها بصوت صاخب بأن تدخلها الزريبة. استقامت تنفّذ أمري، فسقطت عصاي أمامها، بعدما قذفتها كرياضي يقذف رمحاً، وحين نادت تسألني: «وين ماشي أبّيْ؟»، كنت قد ابتعدت مخلّفاً غباراً ينتفض تحت رجليّ.

عدت إلى مكان الجثّة المُلقاة على ظهرها بساقين منفرجتين، على أرض مُنحدرة بين أعشاب الشيح: «يا سيدي ربّي!»، مسّدت ذقني الذي لم أحلقه من أسبوع، ثمّ رفعت راحة يدي اليُمنى إلى صدغي، مُرتاعاً من منظر دم مُتيبّس يتمدّد بين منخرها وكتفها

اليسرى، قبل أن أسدّد بصري إلى فتحة قميصها البيج، حيث ظهر عقد ذهبيّ، «اللهم اغفر لها»، مستشعراً وخزاً في معدتي.

دقّقت في شعرها الفاحم الطويل الذي ينتهي بخصلات نصف ملتوية. عيناها بنيّتان ورموشهما مخضّبة بالكُحل، بينما أنفها المكوّر مثل حبّة عنب، معفّر بذرّات تراب. ورأيت ندبة على فكّها السفلي متخيّلاً لوعة أهلها لما حلّ بها. أوحت لي قسمات وجهها أنّها في العشرينيات من عمرها، ولاحظت أنّها أنحف من زوجتي، ببشرة أكثر نعومة، متكهّناً أنّها ممرّضة أو مُدرّسة، محتاراً: كيف وصلت إلى هنا؟ لا امرأة عاقلة تُغامر وحدها في هذا المرج، الملتصق بالمدينة، مثل زائدة دوديّة (سمعت هذا التشبيه من موظّف في البلديّة)، حيث تكثر نباتات سامّة وأخرى طبيّة، لا يتزاحم فيه سوى فقراء بنوا مساكن عشوائية لهم من قصدير وقصب وقشّ، على أمل أن تعطف عليهم الدنيا، فينتقلوا إلى بيوت موصولة بماء وكهرباء.

وددت أن أضع يدي على جبهتها وأتلو آيات من القرآن، «كلام ربّي يشفع للموتى»، لكنّني عجزت عن لمسها. ما زلت مسكوناً بخجل من النساء، ورثته من قسوة أمّي معي في صغري، فحين يتقاطع طريقي مع امرأة لا أعرفها أخفض بصري وقد يحمرّ خدّاي إلى أن تغيب عن ناظريّ. عاينت قرطاً مزيّناً بكريّة لؤلؤ على شحمة أذنها وتنبّهت إلى أنّ ابنتي لم تلبس يوماً حلية، ثمّ تراجعت خطوتين مخافة أن يدهمني أحد ما في غفلة منّي ويتّهمني بجرم لم أرتكبه. فطنت إلى ساعة تبرق في معصمها الأيمن، طلاءورديّ على أظافرها الطويلة، وشرد ذهني عمّا قد يوجد في حقيبة اليد التي استقرّت بين ساقيها: مال أم ذهبٌ؟

هرولت إلى حاجز أمن يقع على طريق يُحاذي المرج. يراقب وثائق المركبات ويحرّر مخالفات لمن يفرطون في السرعة، وينتصب

كلّ يوم من السابعة صباحاً إلى الثامنة مساءً. تتناوب عليه دوريّتان. أدّيت التحية للشّرطيين المداومين، بفكّ يرتجف، ثمّ أردفت كلمات متقطّعة: «ميّتة... شفتها... طايحة...»، مُشيراً بسبّابتي إلى مكان الجثّة. مدّ أحد الشرطيين عنقه صوبي: «أنت مريض!»، وهو يحكّ ربلة ساقه اليمنى. «أرواح... تشوف... بعينك...». تبادل الشرطيان نظرة استغراب، ثمّ ركبت معهما في سيّارتهما واتّجهنا إلى المحلّ الذي أرشدتهما إليه.

سلكنا طريقاً ترابية تتخلّلها أحجار ناتئة وسواقٍ جافّة، بينما انطلقت تلاوة للقرآن من مكبّر صوت أحد المساجد القريبة، إيذاناً باقتراب صلاة الجمعة، واستفحلت مخاوفي من أن يتّهماني بما لم أفعل.

غطّى أحد الشرطيين يده بقفّاز وتحسّس نبضها بمُلامسة عنقها: «يا ستّار!»، ثمّ بصق على يساره. رفع رأسها على مهل، قبل أن يُخاطب زميله: «عندها ضربة على القفا».

اتّصل من جهازه اللاسلكي (تعلّمت كلمة اللاسلكي من الإمام)، وحدّد لمحدّثه موقعه. لم يمض ثلث ساعة، قضيناه في صمت، نبصر جراداً يتواثب، غزا وجه المدينة منذ أشهر ولم يعد يُثير فضول أحد، إلى أن وصلت سيّارة إسعاف. تقدّم طبيب لمعاينة الميّتة ولم يستغرق دقائق معدودة، قبل أن تصل سيّارة شرطة أخرى. نزل منها رجلان، أحاطا المكان بشريط أصفر. أخذ أحدهما صوراً للضحيّة، بينما التقط الآخر حقيبة يدها من دون أن يتبيّن فحواها، وانصرفا. سمعت سائق سيّارة الإسعاف يهمس إلى الطبيب: «هذو أولاد حرام»، مشيراً برأسه إلى جيراني، الذين شرعوا يطلّون من مساكنهم ويتطلّعون بأبصارهم من دون أن يتجرّأ أحد منهم على الاقتراب. رأيت لويزة، من

بعيد، أمام باب البيت، تطوّق شقيقها بذراعيها، ثمّ حمل مُسعفان الجثّة، بعد تغطيتها بإزار أبيض، وسألني شرطي:

– اسمك؟

– عاشور حديري.

بينما أضاف الآخر وهو ينزع قفّازه من يده:

– اركب معنا!

عاجلني خوف وتذكّرت أنّني لم أرع أغنامي بما يكفي. أسوقها في العادة ثلاث ساعات أو أكثر، أوجّهها إلى سرط الشيح، الذي يُقلّل عطشها، أو أتيح لها أغصان الخروب المورقة التي تزيدها سمنة. فكّرت أن ألتمس من الشرطيين السماح لي بأن أمدّ لها الخبز اليابس، الذي تجمعه ابنتي من أحياء وسط المدينة، أو أطلب من زوجتي القيام بذلك بدلاً منّي، لكنّني تهيّبت ردّة فعلهما، فتجهّم وجهيهما أوحى إليّ أنّ الضحيّة قريبة لهما.

بمُجرّد الوصول إلى المخفر، اختفى الشرطي الأول، وسأل الثاني زميلاً له وقف خلف مكتب الاستقبال:

– وصل الرايس؟

– نعم.

رافقته إلى الطابق الأوّل.

أجلسني إلى كرسيّ خشبي في رواق غمرته سحابة سجائر، وولج مكتباً أصدر بابه صريراً. لم يلبث أن خرج ثمّ أمرني بالدخول. امتقع وجهي واستحضرت ما فعلته في الأيّام الفائتة: «لعلّي ارتكبت إثماً عاقبني الله عليه». لم أجد شيئاً يستحق الذكر، فحياتي حياة مقهور، أستيقظ صباحاً قبيل السابعة أو بعدها بيسير، أُصلّي ثمّ أرتشف شاياً بشفتين خاملتين، أملأ صفائح من بئر مُتاخم للمسجد، أرعى غنمي، ثمّ أجمع حطباً للطّهو، وقد أبتاع أغراضاً بسيطة من دكّان أو من باعة

على الأرصفة، بعد مُفاوضة في الأثمان، ثمّ أعود إلى مسكني لتفقّد الزريبة، قبل أن أضطجع على حصيرتي، أمضغ شيئاً يُدفّئ معدتي وأنتظر أن يُقبل الليل لأخلو إلى فراشي. أقصد كلّ خميس سوق الماشية، أرصد حركة الأسعار وأتحيّن الوقت الأمثل لأشتري رأساً أو أبيع آخر لأستمرّ في تجارتي، ومن حين لآخر أظفر بيوم عمل في ورشة بناء، تُعينني أجرته في تحمّل كُلفة العيش.

شرد ذهني حين اقترح عليّ مفتش الشرطة الجلوس، وخجلت من شكلي، بقميصي القرمزي الذي لم يبق منه إلّا زرّان سفليان، وسروالي الأسود المُغبرّ وصندلي الأبيض المطّاطي، الذي أطلّت منه إصبعي الكبرى.

– اسما والديك؟

– محّاد ورملة بن عديّ.

– متزوّج؟

– نعم.

– لديك أطفال؟

– اثنان.

دوّن المفتّش، الذي يُشار إليه بالرايس، على كنّاش بغلاف أخضر، أنّني من مواليد 1955، قدّر أنّ طولي لا يتعدّى متراً وسبعين سنتمتراً، مُستبعداً أن أكون مُذنباً، فطريقة كلامي الخالية من تلكّؤ، إبلاغي عن الميّتة واستجابتي للحضور، كلّها دلائل تستثنيني من الاتّهام، كما قال، بينما رقن شرطي آخر، جلس إلى جانبه، ما أدليت به على آلة كاتبة، تُسمع جلجلتها على بعد عشرات الأمتار.

سمعت المفتّش، المُسمّى حميد، يقول لصاحبه إنّ عون الشرطة العلميّة لم يعثر في حقيبة يد المقتولة سوى على منديل أبيض من

قماش حريري، طلاء أظافر، قارورة عطر وأوراق نقديّة، وأن لا وثيقة تدلّ إلى هويّتها: «ننتظر وصول بلاغ باختفاء كي نتعرّف إليها».

بقيت ثابتاً في كرسيّ ذي ذراعين، الجلوس عليه مريح، لا أنطق سوى عندما يسألني. كيف أقضي أيّامي، أسماء جيراني ومهنهم. سطعت في بالي صورة سالم، فهو الذكر الأوّل الذي خلّفته، وتجمعني به علاقة أكثر حميمية من علاقتي بابنتي، أشعرني وجـودي في ذلك المكتب الفسيح، القليل الأثاث، الذي تتشبّث بسقفه مروحة كهربائية، وتفوح فيه رائحة مزيل عرق، نعم مزيل عرق وليس عطراً فأنا أفرّق بينهما رغم أنّني لا أستخدمهما، باشتياق إلى ابني.

– هل شاهدت، في الأيّام الأخيرة، غرباءَ يحومون في المرج؟

– لا.

فكّرت أن أتحيّن وجودي هناك لأشكو جاري «الشيخ لحْمر»، الذي يصبغ لحيته بالحنّاء، تصطفّ أمام بابه، كلّ يوم، نسوة يطلبن أحرازاً، ويخترق أذنيّ على الدوام صياحهنّ وهو يخلّصهنّ من الأرواح التي تسكنهنّ. لكن قبل أن أحرّك لساني دخل شرطي، إلى المكتب، يحمل صور الضحيّة بعد التحميض، فتنهّد حميد ممسكاً رأسه بين كفّيه بينما فكّه السفلي يرتعد: «لا... راني نحلم!»، صرخ ثمّ ركض خارجاً، وتركني نادماً على إبلاغي عن الجثّة.

حميد

جلت ببصري، بحثاً عن سيّارة مالك فندق الصحراء، فلم أعثر عليها، «وقت الشدّة يغيب»، قلت في نفسي ثمّ هرعت إلى البهو، الذي ينتهي بسلالم مفروشة بسجّاد أحمر، تفضي إلى غرف الطوابق الثلاثة، بعدما دست عقب سيجارتي في المدخل. لاح لي موظّف الاستقبال كمال بلعطّار مُنكبّاً على إتمام معاملات زبائن انتظموا في طابور قصير أمامه، قبل أن يرفع رأسه منتحلاً ابتسامة، مدلّكاً شعره الكثيف إلى الخلف، فبادلته عبوساً. يعرف أنّني أناصبه بغضاً مثلما يبغضني.

– الحاج ميمون لم يأت اليوم؟

– إنّه في إجازة.

– أين؟

– في مدينة سطيف.

– هل من رقم للاتّصال به؟

اتّصل برقم الفندق الذي نزل فيه ربّ عمله، معدّلاً ربطة عنقه الحمراء التي تعرّجت إلى اليمين، تاركاً زبائنه ينتظرون، فجاء الردّ بأنّه أخلى غرفته.

– لا بدّ أنّه في طريق العودة.

لم أطمئنّ لغيابه في اليوم الذي قُتلت فيه زكيّة زغواني. لماذا أغمض عينيه عنها؟ كانت مثل نبع يتقاطر عليه العطشى في المرقص، بفضل سحر صوتها وخفّة رقصها. سبق أن التمست منه إخطاري إذا أحسّ أنّ شخصاً ما يُضايقها، وآثرت انتظار عودته حفاظاً على سريّة ما وقع. سمحت لعوني الشرطة العلميّة اللذين رافقاني بالانصراف، واتّصلت بشرطي مرور، على مدخل المدينة الشمالي، كي يترصّد سيّارة بيضاء من نوع بيجو 505، يقودها خمسيني يُدعى ميمون بلعسل، ثمّ يمّمت المستشفى لإلقاء نظرة على المغدور بها.

استولى على رأسي سؤال وأنا أمرّ جنب مركز البريد: هل اغتيالها رسالة لي؟ هل علم خصومي، من أثرياء تمنّعت عن إغراءاتهم، أنّها كانت عيني التي أحرس بها تحرّكاتهم في المرقص؟ هل سيحين دوري أنا أيضاً أم يريدون اخافتي وحسب؟ ضربت المقود براحة يدي وزممت شفتيّ وأنا أقطع شارع 5 جويلية، الذي حفّته محالّ مُغلقة، ثمّ بلغت دوّار الإبريق، واستمررت بخطّ مستقيم، ضاغطاً على دوّاسة الوقود، إلى أن وصلت إلى المستشفى، الذي استلقى على مدخله عجوزان ينتظران دورهما في مصلحة تصفية الدم. واختلطت في أذنيّ نتف من خطب أئمّة، تدفّقت من مكبّرات صوت مساجد، مُتجاورة في ما بينها. هل يريدون إخافتي؟ لطالما أسرّت لي زكيّة بشواغلها ورضخت لتكليفاتي، كانت رسولي في بلوغ من لا أعرفهم وفقهت من دردشاتي معها علم النساء وأحوالهنّ.

راودني أنّ واحداً من المسبوقين قضائياً قد أماتها، فالانتقام لا يُفارق بال من يُغادر سجنه، وحسمت أمري بالتحقيق مع المُفرج عنهم في الأيّام الفائتة، على أن أحتاط في خروجاتي المقبلة، وأنا أعضّ شفتي العليا حتى كدت أدميها. تذكّرت قول عبد الرحمن المجذوب، شاعر الهائمين والمحبّين والمتصوّفين: «لا تسرّج حتى

تلجّم واعقد عقدة صحيحة/ لا تتكلّم حتى تخمّم لا تعود لك فضيحة»، من دون أن تكفّ مخاوفي عن الرفع من خفقات قلبي إلى أن دخلت قسم التشريح، المؤثّث بسريرين حديديين، وقابلت عون الشرطة العلمية بن عليّة سماتي، بوجه من خاصمه النوم أيّاماً وليالي، فبادر إلى القول: «لم نعثر سوى على قرط واحد، في أذنها اليمنى، بينما اختفى الآخر».

كان قرطاً من فضّة تتدلّى منه كريّة لؤلؤ ومال شكّي إلى أنّ الجاني اقتلع منها القرط الثاني، ثمّ استدرت إلى الطبيب الشرعي بوعلام قـرّاش أبتغي منه المزيد... «من المرجّح أنّها ماتت بين الواحدة والثانية صباحاً بعد نزف في القفا»، عقب شارحاً.

رمقت وجه الضحيّة، المُسجّاة بالأبيض، فبدت لي نائمة أو فاقدة للوعي لا ميّتة، مُمتنعاً عن إماطة الإزار كي لا أرى بطنها مُـخـرّزاً بعد شقّه للتّحقّق من علّة وفاتـها، توقّفت عند شفتيها المعوجّتين، مثل من يعبّر عن دهشة، كما لو أنّهما ودّتا نطق اسم الفاعل، واجتاحتني رغبة في البكاء، كتمتها في صدري. البكاء يطهّر مستنقع القلب لكنّني أتمنّع عنه، فهو ليس من صفات الأسوياء، كما تقول أمّي.

– هل وجدت علامات تعنيف؟

– رضّة على خدّها الأيسر، مع آثار كحول إيزوبروبانول.

– النساء يستخدمنه في تنظيف بشرتهنّ.

لا كدمات على ذراعيها أو يديها مما يدلّ على أنّها لم تُقاوم قبل أن تلفظ أنفاسها، لكن أين قرطها الثاني؟

يتحتّم عليّ أن أُبلغ ذويها وأتدبّر جنازتها. لكنّ عائلتها تُقيم في بلدة نزرامة البعيدة، وقد حكت لي، ذات يوم، أنّ أباها مات وتبرّأ إخوتها الأربعة منها، بعدما علموا بطبيعة عملها. منعوا عنها زيارة

والدتها، بل هدّدوها بالقتل بحجّة أنّها لطّخت سمعة أهلها. هل تورّط أحد إخوتها في ما جرى لها؟ واستفسرت الطبيب الشرعي، الذي تقدّم في السنّ وقامته انكمشت فلم تعد تتجاوز المتر ونصف المتر.

– هل نزعت عيّنات من دمها؟

– نعم.

– ما فصيلتها؟

– O سالب.

– تظنّ أنّ العيّنات سوف تفيدنا؟

– لا أدري.

خرجت إلى حديقة المستشفى، أشعر بجفاف ريقي، متلهّفاً إلى سيجارة، بعيداً عن بوعلام الذي لا يحتمل رائحة التبغ. تفقّدت كيساً بلاستيكياً حوى أغراض الميّتة، استللت منه ساعة يد يابانية الصنع، عقاربها ذهبية، أهديتها لها قبل ثلاث سنوات، وكلّفني ثمنها نصف راتب. أخفيتها في جيب بنطلوني وهالني المبلغ الذي حملته معها: «يغني بطون قبيلة بأكملها». عدّلت رأيي فالجريمة لم تقع بداعي سرقتها، عازماً على مُعاينة مسرح العثور على الجثّة، فقد ورد في تقرير الشرطة العلميّة غياب دم على التراب، وهذا يعني أنّها زُحزحت من مكان لآخر، ثمّ أصغيت إلى جلبة مُمرّضين ومرضى، في الرواق، وصياح أحدهم غاضباً: «أغلقوا المستشفى إن كنتم لا تملكون أدوية». حاولت أن أتبيّن وجهه من نافذة تهشّم زجاجها، لكنّني لم ألحظ سوى ظهره العريض، فأطفأت سيجارتي وسارعت إلى الداخل.

عدت إلى الطبيب الشرعي الذي استرخى على كرسيّه، يلوك علكة، باسطاً يديه على فخذيه، فتلك الجثّة العاشرة التي عاينها في غضون أربعة أيّام. تعوّد على جثث متفحّمة أو بأطراف مبتورة: أطفال دهستهم مركبات أو بالغون اخترقت أجسادهم طعنات، وصار يحمد

الله كلّما وصلته جثّة مكتملة. لست أدري كيف يغمض عينيه ليلاً من غير أن تزوره كوابيس الموتى.

– أتحتاج إلى معاينتها مرّة أخرى؟

– أتممت عملي كلّه.

صمّمت على استصدار إذن بدفنها في اليوم التالي، ثمّ اتّجهت إلى المخفر. لا أكاد أنهي سيجارة حتى أشعل أخرى.

هاتفت زوجتي وأبلغتها ألّا تُغادر البيت، وتمنع ابنينا كذلك، فقد علّمتني الخبرة ألّا جريمة تُقترف منفصلة، بل تتبعها أخرى تُشبهها.

– أتودّ سجننا؟

– بل حماية لكم.

أوقفت سيل استفساراتها وختمت المُكالمة:

– ستعرفين كلّ شيء حين أعود مساءً.

اتّصلت بأمن نزرامة وردّ عليّ مُكلّف بالمداومة. نعيت إليه المرحومة، ولُزوم إبلاغ عائلتها حضور جنازتها، على أن أوافيه ببرقيّة رسميّة بعد حين. ارتبك محدّثي، على الطرف الآخر من الهاتف، وطلب منّي مرّتين إعادة اسمها، ففضّلت ألّا أستفيض في الكلام، اقتناعاً منّي بأنّ نبأ رحيلها سيُريح أهلها. وتذكّرت آخر لقاء لي مع زازا، كما سمّت نفسها تكتّماً على هويّتها الأصليّة، وهذا ما تفعله المغنّيات في المراقص عادةً. كان ذلك قبل أسبوع، حين فاتحتني برغبتها في قضاء أيّام راحة في مدينة ساحليّة، وأن تتنسّم ريح البحر الذي يُفرغ بالها من كلّ قلق. أن تدسّ قدميها في الرمل، تملأ رئتيها بالهواء وتغطس في الماء المالح. فاقترحت عليها أن تذهب إلى تيبازة، على أن يوفّر لها صديق لي شقّة على مقربة من الشاطئ.

– هل هو صائد نساء مثلك؟

علّقت ضاحكة فظهرت أسنانها الناصعة.

– بل متزوّج وله طفلة.

– الزواج والإنجاب لا يعنيان اعتزال عشق النساء.

ذهبت إلى حتفها لا بحرها. استحضرت شكلها، وهي تقف أمامي، بنهديها المكتنزين، اللذين كلّما وصفتهما بـ«الحجلتين»، ردّت عليّ: «لا يسقطان في الفخاخ»، بشرتها تفتّحت بعدما كانت مائلة للسّمرة في بدايات تعارفي بها، ثمّ عضضت شفتي السفلى وحرّكت رأسي ممسكاً يدي اليمنى باليسرى، متحسّراً على أنّني لن أشاهدها مرّة أخرى تميل بجذعها إلى المرآة قبل أن تشرع في الغناء. لن أراها تعتني بأظافرها مثل شرطيّ يعتني بسلاحه، ولن أتبادل معها المزاح كما ألفنا في السنوات الأربع الفائتة.

ظنّي أنّ الجاني لم يكن قويّاً كفاية أو لم يُخطّط لفِعلته فباغتها من الخلف. غافلها لأن لا سبيل له للسّيطرة عليها. هذه المرّة الأولى التي أواجه فيها مسألة قتل بضربة على القفا. حقّقت من قبل في شؤون قتل بطعنات في الصدر أو البطن أو خنقاً، «في القلوب ما بقات رحمة... شوف لحالي يا العالي»، زفرت حين عاجلتني مكالمة من جهاز الإرسال، يبلغني فيها شرطي المرور بتوقيف سيّارة بيجو 505، يقودها ميمون بلعسل.

ميمون

تطلّع إليّ مفتّش الشرطة حميد، معلّقاً على ياقة قميصي التي اسودّت من التعرّق والغبار.

– واش هذا السيرك خويا الرايس؟

تعوّدت مناداته كذلك، بينما يُناديني «الحاج» مثل الآخرين، فقد ذهبت مرّتين إلى مكّة، في الأولى بمفردي والثانية بصحبة زوجتي.

– لماذا لم تعلمني بغيابك؟

احترت في سرّي: منذ متى وجب عليّ إبلاغه بما أفعل؟

– لم أنوِ أكثر من يومي راحة. التقيت أصدقاء قدامى فطال غيابي.

لم أرتح لطريقته في مساءلتي، كاتماً شكّي: هل جاء بسبب تلك اللعينة؟ وأنا أضغط سيجارة «كاميل» بين السبّابة والوسطى، مستلقياً على كرسيّ مكتبي.

– وقعت كارثة.

تجمّدت ملامحي، لكنه تابع الحديث.

– وجدنا زازا مقتولة.

أطلت النظر إلى وجهه المربّع غير مُصدّق ما سمعت، فقصّ عليّ ما جرى بعد العثور على جثّتها في المرج، ثمّ إبلاغه بالأمر وهو يُشاهد برنامجاً فرنسياً على التلفزيون كعادته صبيحة كلّ جمعة، منذ أن اقتنى صحناً لاقطاً يستقبل قنوات أجنبيّة، واطّلاعه على صورها في المخفر، قبل أن يلقي عليها نظرة في المستشفى. مع ذلك، أصررت على عدم الأخذ بأقواله.

– ربّما كانت فتاة أخرى تُشبهها!

– يا ليتها كانت كذلك.

استقمت في مكاني، دست سيجارتي وضربت كفّاً بكفّ، ثمّ دلّكت صلعتي التي بلّلتها قطرات عرق. عمّ سكون المكتب، قطعه حميد:

– هل تشكّ في أحد ما؟

– لم يسبق لها أن أخبرتني عن شخص يهدّدها.

استفسر منّي عن آخر لقاء لي بها، فسردت عليه، وأنا أبتلع ريقي، دردشة جمعتني بها، عشيّة سفري إلى سطيف؛ أعلنت فيها رغبتها في تغيير ديكور المرقص، «التغيير يُريح النفوس» كما قالت، وانتداب عازف جديد يُرافقها في غنائها، بدل فرحات الذي لم يعد يروقها أداؤه.

– هل لديك مفتاح غرفتها؟

– عند موظّف الاستقبال.

التحق بنا عونا شرطة علميّة، أثارا فضول السيّاح، وارتقينا إلى الطابق الثالث والأخير، الذي خُصّصت غرفه القليلة للسّاكنين لا العابرين، من بينهم زكيّة التي شغلت الغرفة 301. بجانبها في 303 عاشت مرزاقة سوالم التي هجرت التعليم وانخرطت في السياسة، قبل أن يهوي بدنها من الشرفة وقد صعدت روحها إلى السماء.

قابلتنا غرفة مرتّبة؛ ورق جدرانها يميل إلى اصفرار، بينما شبشب بنيّ إلى يمين الباب، والسرير بشراشف بنفسجيّة ووسادتين حمراوين، تعلوهما صورة زازا وهي تقف جنب مسبح الفندق، بقميص صيفي أزرق فاتح وشورت أبيض، مخفيةً عينيها بنظّارة شمسية. ملابسها كانت في دولاب يعبق برائحة عطر كولونيا، فوقه مكيّف هواء، أغراض زينتها في الحمّام، بجوارها صندوق أدوية لم يحتو سوى على علبة أسبيرين ومشروب لعلاج الكحّة، مع ثلاث فوط صحيّة.

تلمّس العونان، اللذان غطّيا أيديهما بقفّازات، الأثاث، ولم يسترعِ انتباههما أيّ أمر غير عادي في مكان معيشتها. ألقى أحدهما نظرة تحت السرير فلم يعثر سوى على زوج أحذية بكعبين يرتفعان عن الأرض أربعة سنتيمترات، ورفع الآخر بصمات من مسند كرسيّ ومقبض الباب قبل أن يفتح الثلّاجة، المركونة في زاوية قصيّة، فلم يجد فيها سوى قطعتَي نقانق في صحن من فخّار ونصف قنّينة صودا، ثمّ وصلت يداه إلى منضدة خشبيّة، اعتلاها تلفزيون وجهاز تشغيل فيديو، توارت تحته رسالة كُتبت على ورقة من مقاس 27x21 سم، بخطّ مرتعش مستعجل، يميل من اليمين إلى اليسار، كما لو أنّها كُتبت بيد طفل، طُويت طيّتين. سلّمها لحميد الذي قرأ ما جاء فيها:

«زكيّة،

هذه آخر رسالة أكتبها إليك. أرجو منك أن تتفهّمي وضعي. لا خيار لنا سوى أن نفترق دون خلافات. نمحو حبّاً بلحظاته الصافية والدافئة مع ما خالطه من خصام وجفاء في بعض الأحيان. أمّي رفضت طلبي ولن تتحقّق رغبتنا في الزواج. يصعب عليّ هجرك لكن لا حيلة لي. أرجو أن تتوقّفي عن مكالماتك لي،

عن مطاردتي، فقد بات الوضع لا يُطاق، إذا حاولت الاتّصال بي مرّة أخرى فتحمّلي العواقب. لن أتسامح معك.
بشير».

قطّب مفتّش الشرطة حاجبيه وحدجني مستاءً:

– من يكون؟

– حبيبها.

رددت عليه بعد تبكّم وقد تخيّلت أنّها اعتزلته.

زمّ شفتيه مندهشاً، ثمّ خاطبني:

– مرّ على المخفر غداً لتبصم على محضر الاستماع.

كلّف عوني الشرطة بجمع أغراض المجنيّ عليها، مع التقاط صور للغرفة قبل تشميعها، فأحسست أنّ الأرض تميد بي وغالبتني رغبة في التقيّؤ.

10 سبتمبر

ولج بوستّة محلّي، تلك الظهيرة، وناداني كعادته بريهوم بدل إبراهيم، بعينين محمرّتين، يلوّح بكيس بلاستيكي بيده اليمنى مُقبلاً عليّ بالعناق.

– أنت لا تُعانقني إلّا إذا احتجت إليّ!

– من يحتاج إلى قصير قامة لا يظهر من وجهه سوى شفتيه الغليظتين!

أطلق ضحكة وهو يلعب بسبّابة يده اليسرى في تجويف أذنه.

– قصير قامة لكنّني لست بأسنان فأر مثلك.

نبتت بيننا صداقة منذ أن اقتنيت منه طقم كؤوس وأطباق، في سوق تراباندو، تودّداً لأمّي، ثمّ صار يتوسّط لي عند أصدقائه من باعة حشيش، تعوّدت أن أملأ به صدري منذ سنوات الجامعة. يُتيح لي نوعية جيّدة منه بسعره الحقيقي، بينما أكافئه بأن أحجز له أحدث الأفلام قبل أن يُشاهدها غيره، ولا سيّما منها أفلام الكبار، فهو يستغلّ مرأباً متاخماً للحيّ الذي يُقيم فيه، يحوّله كلّ ليلة إلى قاعة عروض، يقترح فيلمين: الأول من الأفلام القتاليّة أو البوليسيّة، يليه فيلم يستفزّ لذّة الحاضرين ويسيل ماءهم في ظلمة المكان.

– هل وصلتك الأفلام الجديدة؟

فقد أبلغته، عندما نادمته، قبل يومين، عن دفعة جديدة من الأشرطة.

– وصلت غنيمة.

ابتسم وسحب من كيس البلاستيك سندويشاً، لم يكن أكثر من نصف رغيف، محشوّاً بحبيبات زيتون وقطعة حشيش في وسطها. ننزع إلى تلك الخدعة اتّقاء أن يُباغتنا زبون من زبائن المحلّ، وهو يُسلّمني سلعته.

– جرّبتها قبل قليل.

– لا يخفى ذلك على من يرى عينيك.

راح يدعك راحتَي يديه، كمن يتهيّأ لالتهام وليمة، فالأفلام الجديدة تعني زبائن أكثر ومدخولاً أوفر.

سلّمته أفلام الكبار الجديدة، التي أخفيتها تحت منضدة الاستقبال المصنوعة من خشب الصنوبر، مثل شابّة تخفي فستان عرسها: «حين تعرضها أخبرني بردود المتفرّجين»، ثمّ انحنيت بظهري منتهزاً انشغاله بالنظر في جاكيتاتها، وسحبت بطاقة هويّة الرجل، التي تركَتها مُستأجرة جهاز تشغيل الفيديو، متأمّلاً اسم وصورة صاحبها وعنوانه، ثمّ أعدت دسّها بحركة خاطفة، وسألته عنه، فهو مثل ساعي بريد، يعرف الجميع والجميع يعرفه.

– هل تعرف بشير لبْطم؟

– تقصد ابن خالتي؟

لجلج في كلامه وارتخى فكّه السفلي.

– يسكن حيّ 20 أوت؟

– نعم.

كذبت عليه بالقول إنّ المعنيّ استأجر أفلاماً ولم يعدها، فأجابني:

– لقد سافر.

– إلى أين؟

– إلى الخارج.

ثمّ انسحب، يجرّ بنطلونه الفضفاض الذي يكنس الأرض، وقد زيّن جيبه الخلفي بعلم أميركا، متعلّلاً بأنّ عليه إعداد سهرة ذلك اليوم.

– بحثت عنك ليلة الخميس وكان المرأب مغلقاً.

– كنت متعباً ونمت باكراً، أجابني.

تلك المستأجرة لم تعد إليّ جهازي، هل خدعتني؟

هدأت أعصابي بلفافة، وعدّلت جلستي على السرير بظهر منتصب، ثمّ رفعت قيثارتي إلى بطني كمن يحضن رضيعاً. سحبت نفساً عميقاً، مباعداً بين ساقيّ. رججت لساني وحككت لثّة فكّي العلوي بشفتي في حركة تسخين. جرّبت نوتات للتّأكّد من سلامة عزفي، وشرعت أغني: «في الدنيا الكبيرة... وبلادها الكثيرة... لقّيت... لقّيت... لقّيت...». لقد تعلّمت الغناء عقب تعلّمي العزف في صغري، في دار الثقّافة المُحاذية لحيّ أوّل نوفمبر، وانضممت إلى فوج الموسيقى، الذي غصّ بأطفال ومُراهقين أكثر من طاقته، تعلّمت فيه الصولفيج، ضبط الأوتار والمفاتيح، واعتدت ألم الأصابع في أيّامي الأولى، ثمّ طوّرت أدائي بالاستماع إلى موسيقى غوسبل في أسطوانة عثرت عليها في البيت، أو إلى بوب مارلي وكات ستيفنز.

قبل أن أغلق محلّي مساءً، غير راضٍ عن البروفة التي سجّلتها، سحبت أوراقاً نقديّة من صندوق المال، التمسها منّي شقيقي الأوحد

خميسي، الذي لم يتمّ السادسة والعشرين من عمره، بغرض السفر إلى قسنطينة والمشاركة في بطولة ملاكمة.

– لماذا لا تُساعدكم مديرية الرياضة؟

– صرفوا ميزانية هذا العام كلّها.

– لا بدّ أنّهم صرفوها في بطونهم المنتفخة.

جرّب خميسي بيع الخُضر والخبز على الأرصفة، ثمّ غسل المركبات وتشحيمها، قبل أن يستقرّ عتّالاً في سوق الفلّاح، ذلك المركز التجاري الفسيح مثل ملعب كرة قدم، الذي يزوّد الناس بغذائهم وحاجيّاتهم. طاف بين مهن تستدعي عضلات وذراعين طويلتين لا عقلاً، كما لو أنّه خرج من رواية «نجل الفقير»، فهو أيضاً لم يؤدِّ الخدمة الوطنية الإجباريّة ممّا يحرمه من التفكير في شغل براتب مستقرّ. يبدأ صباحه بتمارين القوّة، نطّ الحبل وتقوية عضلة القلب، ويقضي ثلاث ساعات أو يزيد في النادي نهاية كلّ يوم.

استُشهد والدي ربيع 1962، قبل الاستقلال بأسابيع، كما أخبرتني أمّي، من دون أن نعثر على قبره، فبات شقيقي، الذي لم يكن يومها سوى جنين في بطنها، أقرب الرجال إلى قلبها. يستفيد من عطفها عليه، فلا يتناول سوى غذاء مليء ببروتينات، بينما أكتفي بما أسدّ به رمقي. تستعين براتبها الضئيل بوصفها منظّفة في فندق الصحراء، كي لا تشعره بنقص. تجلب له ما يسهو عنه سيّاح في غرفهم، من شفرات حلاقة، عطور وملابس داخليّة، يفرح بها مثل فرحة طفل يقتني ملابس العيد. أما أنا فوعدته بمُكافأة ماليّة إن عاد بميدالية، وقرّرت أن أتمهّل قبل أن أقصد بيت بشير لبْطم، فأستردّ جهازي أو تعويضاً عنه أو أودع شكوى عند الشرطة.

بشير

عندما تقدّم إليّ شرطيّان في مقهى الخيمة، تظاهرت بعدم المبالاة، مُتخيّلاً أنّهما يودّان السؤال عن أحد ما، لكنّهما باغتاني: «تعال معنا إلى السيّارة».

ركضت بأقصى ما يُمكنني من سرعة، متجاوزاً دوّار الإبريق، باتّجاه حيّ أوّل نوفمبر، لا أكاد أرى شيئاً أمامي، ورجلاي تتحرّكان لا إرادياً. خمّنت أنّ أحد الشرطيين سيصوّب نحو رجلي رصاصة إنْ عجزا عن القبض عليّ، لكنّهما لحقا بي حتى شركة الكهرباء والغاز. تلقّيت ضربة على ظهري بعصا غليظة طرحتني أرضاً، ثمّ أوثقا يديّ وأنا ألهث. أجبراني على الركوب معهما، ولمحت أناساً يتفرّجون كما لو أنّهم يُشاهدون بروفة فيلم مطاردات.

وقفت، في المخفر، أمام مفتّش شرطة بشارب كثّ، ولم أخطئ أن شككت في أنّه حميد، الذي حدّثتني عنه زكيّة، كما سمعت عنه من تجّار حشيش، من كثرة سجنهم ثمّ الإفراج عنهم، غدوا يتحدّثون عنه كما لو أنّه صديق حميم. لم يمهلني لأستعيد أنفاسي، وبصق كلماته في وجهي مزمجراً.

– لماذا حاولت الهرب؟

– لم أعتد على ذلك السكّير، بل هو المُعتدي.

طفقت أبرّر ما وقع لي في اليوم الفائت، لكنّه لم يبالِ بكلامي، داس عقب سيجارته، زعق بي وأزبد، فخفت أن أصير أنا أيضاً عقب سيجارة، وتلوت آيات من القرآن في سرّي.

– لماذا قتلتها؟

– من؟

– تدّعي أنّك لا تعرف يا رخيص!

تفوّه باسم زكيّة زغواني، فرأيت غمامة تحجب عنّي البصر. لم أستطع تخيّلها ميّتة.

– لم أقتل أحداً.

انحنى بجذعه على مكتبه يدوّن على ورقة، بصمت عليها من دون أن أتبيّن فحواها، وظلّ الشرطيّان واقفين خلفي، أسمع زفراتهما، كما لو أنّهما يتوقّعان أن أقفز من النافذة التي أُغلق مصراعاها الخشبيان خلف المفتّش، قبل أن يقوداني إلى قبو أفعمته رائحة ذكّرتني بما أشمّه في محطّة الحافلات، حيث تختلط رائحة البول بروائح قمامة محترقة، وسلّماني إلى ثلاثة رجال ملثّمين... «حرمتنا راحة الجمعة»، تبرّم أحدهم.

سمحوا لممرّض شابّ، بوجه مُسالم، أن يقيس دقّات قلبي وضغط دمي، قبل أن ينصرف من دون أن يلفظ كلمة. أقفلوا الباب وسمعت أنيناً خلف الجدار، فراودني أنّ الأمر لا يعدو أكثر من مسرحية بغرض تخويفي. طلب منّي مَن ظننت أنّه رئيسهم أن أقرّ بالفعلة «والله عفوّ رحيم»، لكنّني أصررت على براءتي، وجثثت على ركبتيّ. أمسك أحدهم رأسي من الخلف، أماله كمن يريد مني أن أرمق السقف، ووضع آخر منشفة مبلّلة على فمي، بينما شرع الثالث في سكب الماء فوقها: «إذا حبّيت تعترف، ارفع إصبعك». شعرت

بأنّني أغرق في بئر، نفسي يكاد ينقطع وجسدي يرتعش. لكنّني لم أرفع إصبعي، موقناً أنّ الألم الذي لا يحرقني سوف يمحو ألماً قديماً. لم يحتملوا صمتي الطويل، فتوقّف الماء. شهقت وصرخت: «ورأس مّا العزيزة ما قتلتها»، وكان الخوف ينهش قلبي. لم يقتلعوا منّي ما يُريدون، فنعق في وجهي من ذكّرني بعفو الله: «رايح تتربّى في الحبس».

أفرغت معدتي من كلّ ما أكلته ذلك اليوم، ثمّ تسلّمني شخص آخر، بدا لي أرحم منهم. أدخلني حجرة في الطابق الثاني من المخفر، مساحتها لا تتعدّى ثلاث خطوات إلى أربع، احتشد فيها رهط من شباب وكهول. خاصمني النوم أثناء الليل، وأرقت مثانتي في الصباح التالي. التقطوا لي صوراً من كلّ جانب، وثّقوا بصماتي، ثمّ ساقوني إلى المحكمة. أجبت عن أسئلة عن علاقتي بالضحيّة، نافياً التهمة من جديد، فقادوني إلى السجن رهن التحقيق. حلقوا شعري وزوّدوني ببطانيّة ومخدّة. قضيت ساعتي الأولى مثل أبكم، أحدّق إلى السجناء في حراكهم، سكونهم، همساتهم وعجيجهم ورائحة عفونة مُشتبكة بروائح عرقهم وأرجلهم تعبق في المكان، «الداب راكب مولاه»، كما يقول المثل. سألني من يلقّبونه بـ«محشوش النيف»، لأنّ الحاجز الفاصل بين منخريه مقطوع، عن ذريعة سجني، فتجاهلت مُجاوبته، لكنّه ألحّ، فأجبت: «اتّهموني بالباطل».

تحسّرت على أنّني قد أفقد عملي في شركة المطّاط والبلاستيك، التي تنوي تصدير منتجاتها إلى دول صديقة، كما تخوّل لي راتباً بغضّ النظر عن عدد الساعات التي أصرفها فيها. كنت أسرق منها سلعاً وأبيعها لتجّار ترابندو، لأشتري هدايا لحبيبتي. أغيب أيّاماً من دون أن يطلب منّي مسؤولي المباشر تبريرات. تواطأت معه مرّة على تعطيل واحدة من آلات الإنتاج، فنال العمّال أجمعين إجازة أسبوع

حتى تصليحها، اغتنمتها في سفر إلى بجاية مع زكيّة، التي شغفتها تلك المدينة مثلما تشغفها كلّ المدن البحريّة.

لم يعلّق محشوش النيف على كلامي، وتضامن معي شابّ أحول، بجبهة عريضة، تطفو قرحة على شفته السفلى: «كلّنا أبرياء»، فردّ عليه آخر سقطت أسنانه الأماميّة: «مولى المال يتنعّم والعبد الفقير يخلّص».

استحضرت في ذهني صورة زكيّة عابسة حين عرضت عليها مُرافقتي إلى هذه المدينة، في أيّامي الأخيرة من الخدمة العسكرية في نزرامة، على أن أُساعدها في تدبّر شغل، ونحضّر نفسينا للزّفاف.

«ألن تخطبني من أهلي قبلاً؟»، قالت، فصارحتها بشرط أمّي أن أجد عملاً يُعفيني عن الاستدانة أولاً، فشكّت في صدقي وكظمت مشاعرها نحوي.

ساءت وقتذاك علاقتها بوالدها، الذي ودّ إجبارها على ستر شعرها بخمار اقتداءً ببنات الجيران وإحياءً لمظاهر العفّة. تصدّت لرغبته فضربها بمفكّ براغيّ، مخلّفاً لها ندبة أسفل فكّها، واحتلّت بالها فكرة الهرب من البيت، بعدما طالعت إعلاناً في جريدة عن منتجع سيّاحي فتح لتوّه، في مدينة شماليّة، يقترح وظائف شاغرة.

– تعملين مع السكارى؟ امتعضت من خيارها.

– بل في صنع الحلويات.

فقد امتلكت تلك الحرفة من مُراودتها مركزاً للتّكوين المهني.

ضاعت منّي قرابة عامين، لا تُهاتفني سوى في الأعياد على عجل، ولم تكن لي جرأة على التوجّه إلى المكان الذي استقرّت فيه، خشية أن تكون استبدلتني بآخر. أدمنت التدخين، البكاء ليلاً، وانخرطت في مُحاورات صامتة مع طيفها، كما قلّت شهيّتي للأكل. كان حنيني لها يكوي أضلعي، إلى أن عاودت الاتّصال بي، بعد إغلاق

ذلك المنتجع بحجّة إيوائه عشّاقاً غير متزوّجين، بما يُعارض القانون، وقد استحالت عودتها إلى بلدتها، هلعاً من أن يُعاقبها أهلها.

«أصل غداً في منتصف النهار»، أنهت مكالمتها بأن أرسلت لي قبلات في السمّاعة وكان عليّ أن أتدبّر شأنها في أربع وعشرين ساعة. لم يطرأ على بالي سوى صديقي كمال، موظّف الاستقبال في الفندق. درسنا معاً ولعبنا الكرة معاً في نادي هـواة. تخصّص في ركلات الترجيح، وكان يلعب كوسط ميدان هجومي، فشبّهه الناس بالبرازيلي غارينشا، بينما تخصّصت في محور الدفاع حاملاً الرقم 4. تقاسمنا مسرّات وجمعتنا قصص ومقالب حميمة. سألته أن يوفّر لها غرفة وأعلمته بقصّتي معها ليكبح غريزته، فردّ عليّ ببرودة أعصاب كما لو أنّه صاحب المكان لا مجرّد عامل فيه: «يمكنها أن تعمل نادلة».

راقتها بذلة العمل الحمراء وداومت على مُلاقاتي في فترات راحتها، مخفية عنّي ميلها للغناء، الـذي اكتسبته من ملازمتها سهرات المنتجع، بعدما مرّنت حبالها الصوتية، حسّنت إيقاع تنفّسها واكتسبت ثقة في الأداء. ولم تفض لي إلّا لاحقاً بأحاديثها مع ميمون بلعسل، الـذي استحسن صحبتها وأقنعته بأن يمنحها فرصة أمام الميكروفون. انتقَلت من المطعم في الطابق الأرضي إلى المرقص المُحاذي للمسبح، من دون علم منّي، وقد ظنّ كمال أنّني على دراية بشؤونها. ماطلت أسبوعين قبل أن تُبلغني بمهنتها الجديدة وتُدشّن الخلافات بيننا. سألتها ذات مرة «تُريدين أن تصيري عاهرة؟» فأجابتني «وحدهم الأنذال يصفون امرأة بالعاهرة».

تعلّمت في صغري أنّ الغناء ليس من صفات النساء، وقدّرت أنّها مجرّد نزوة لن تداوم عليها، لكنّ حبّها للمال حتّم عليها الاستمرار. وسّعت دائرة علاقاتها وأعلمتني بما كلّفها به مفتّش الشرطة، بمراقبة

ميمون، وبأن تطلعه على تحرّكات أثرياء يقضون سهراتهم في الإصغاء إلى صوتها، فخفت عليها من أن يكتشف أحدهم أمرها. «رضيت بخدمته، على أن يخدمني إذا احتجت إليه»، قالت لي. كانت مُسجّلة كمفقودة، في أمن بلدتها، وتخشى أن تعيدها الشرطة إلى أهلها، فلا ترى النور من جديد. ثمّ ضغطت عليّ لأسرع في خطبتها، بحجّة أنّ مُعجبين آخرين يتحبّبون إليها.

– أريد أن أحمل اسمك، قالت.

في الصيف الذي حلّت فيه هنا عام 1984، باشرت عملي في شركة المطّاط والبلاستيك، بوساطة من زوج خالتي، المُناضل السابق في جيش التحرير. وفّرت مالاً وأبلغت أمّي، الربيع الفائت، بنيّتي خطبتها، فاعترضت. كرّرت المُحاولة الشهر الماضي، فأجابتني: «لا أريد بنات ليل في البيت». تخيّلت حبيبتي أنّ مشروعنا في العيش تحت سقف واحد قد تبخّر، وعاينت حسرة على وجهها. وعدتها بتكرار المُحاولة، لكنّها خاصمتني ورفضت ملاقاتي. أخبرتني شقيقتي سلمى، وهي تلفّ ضفيرتها، عندما عدت إلى البيت متأخّراً في الليلة التي سبقت اعتقالي، أنّ زكيّة هاتفتني في غيابي. هل اشتاقت إليّ قبل أن يستعجلها أجلها؟ لا أصدّق أنّها تركتني وفاضت روحها. هل انتقم منها مالك فندق الصحراء لأنّها تجسّست عليه أو كشفت سرّاً يعنيه؟

حميد

ساورني أنّ شبح زازا سيزول من ذهني بمجرّد أن يُـواري التراب جثمانها، حين دلفت امرأة ترتدي ملحفة بيضاء، تغطّي أسفل وجهها بعجار بنيّ، معقود بخيطين خلف رقبتها، بعد أن طرقت الباب طرقة واحدة، من دون أن تنتظر منّي إذناً بالدخول. تبعتها شابّة قصيرة القدّ، تلبس جلّابة زرقاء داكنة، أكبر من مقاسها، وتغطّي شعرها بخمار أسود. ظننت أنّهما من عائلة أحد الموقوفين؛ فكلّما أُلقي القبض على جانٍ أو مُشتبه فيه هرع أهله إلى المخفر استدراراً للعطف والصفح.

«أرسلني إليك شرطيّ في الأسفل»، قالت المرأة. انتظرت منها أن تعرّف بنفسها وتعلّل سبب قطعها مُكالمتي مع زميل لي في العاصمة فشرحت كما لو أنها فهِمت: «حليمة، أمّ زكيّة زغواني».

ذلك آخر ما توقّعته، أن يستجيب أهل الميّتة لمشيئتي، ألّا يتنكّروا لها، بعدما ابتعدوا عنها في حياتها. قمت من مقعدي، بعدما اعتذرت من محدّثي في التليفون، مقترحاً عليهما الجلوس على أريكة مركونة في طرف المكتب، بدل الكرسيّين اللذين يتوسّطان المكان.

«عظّم الله أجركم»، قلت لها.

أدركَت حينذاك أنّ ابنتها ماتت. لم تصدّق في البدء ما أخبرها به شرطي تقدّم إلى بيتها، متعلّقة بأمل رفيع أنّ خطأً ما وقع. أسقطت الملحفة عن كتفيها والعجار عن وجهها، وشرعت في نواح متقطّع. قدّرت أنّها في أواسط الأربعينيات من العمر وأنا أدوس قدمي اليمنى باليسرى. راحت تصرخ ملء فمها، وهي تضرب صدرها براحة يدها: «بنتي يا ربّـي... بنتي!». حاولت مواساتها من دون أن أعثر على منديل في جيبي رغم يقيني أنّ البكاء يُريح قلبها. قاطعتني وهي تلهث كعدّاء فرغ لتوّه من ماراثون: «نقدر نشوفها؟».

أخفقت الشابّة، التي جلست بجانبها، في التخفيف عنها، مستسلمة مثلها لدموعها بوجه محمرّ، من دون أن تكفّ ركبتاها عن الارتعاش. خمّنت أنّها شقيقة المغدور بها، لكنّ زازا لم تُخبرني سوى عن إخوتها الذكور! فهمت أنّ الحزن سيطول إذا بقيتا في المكتب، ومن عيوبي أنّي لا أحتمل النظر في أحزان الآخرين، فاقترحت عليهما الذهاب إلى المستشفى، وقد قاربت الساعة الحادية عشرة. ولأنّه لا خبرة لي في شؤون الدفن، فقد اصطحبت معي شرطيّين.

سمحت لوالدة زازا بدخول حجرة حفظ الجثث، التي اصطفّت على حيطانها آيات قرآن، تطايرت من جنباتها رائحة كافور ويبرّدها مولّد كهرباء حذر الانقطاعات المتكرّرة، وسألت مُرافقتها عن هويّتها، مُلقياً نظرة فاحصة على عينيها الغائرتين، فأجابت: «ابنة خالة زكيّة».

شعرت بإحباط أنّ تخميني خاب وقد لا أستفيد منها في التحقيق، فأطبقت شفتيّ ومنعت عنها الالتحاق بخالتها: «يُسمح بدخول الأقرباء من الدرجة الأولى فقط».

رمقت حليمة وهي تلطم وجهها، تسكب دمعاً وتولول، وتذكّرت المثل الشعبي: «ما تبكي عليك غير أمّك»، من دون أن يُفارق بالي سؤال: لماذا تبرّؤوا منها قبل ذلك؟

ساعدني الشرطيّان في سحب أمّ الميّتة من ذراعيها، ثمّ أحالا الجثّة إلى المغسلة. تكفّلت عجوز بتكفينها، قبل أن تنطلق سيّارة إسعاف إلى المقبرة، تحمل على متنها النعش.

أعدت حليمة، بصحبة ابنة أختها، إلى المخفر، وأفهمتها أنّ نقل المرحومة إلى مدينتها يستلزم حفنة أوراق إدارية تقتضي وقتاً، فردّت عليّ مُتحسّرة: «الأمّ تلد أولادها لا تدفنهم»، وعاتبت شرطي الاستقبال الذي سمح لهما بالصعود إلى مكتبي قبل استشارتي، ثمّ طلبت لهما فاكهة وماءً، ملتمساً منهما ألّا تغادرا موضعهما ريثما أرجع من الجنازة.

الطريق إلى مقبرة لالّة عمّورة يبعد عن المخفر زهاء نصف ساعة بسيّارة العمل، مروراً بدوّار الإبريق فوسط المدينة، إلى غاية قنطرة تصل بين ضفّتي وادٍ. ينام الموتى قرب مجرى ماء، وهو أسهل الطرق، فقد بُنيت المدينة على خطّ مستقيم مائل، يُمكن السير عليه نزولاً للوصول إليها، وقد قسّمت مساحتها بحسب تعداد العشائر ونسبهم، لا يُدفن فيها غريب سوى في زاوية قصيّة منها، يمتزج فيها لون تربتها البنيّ مع خضرة نباتات عشوائية، شواهد قبورها من رخام أو حجارة بينما قبور أخرى لا شواهد لها تدوسها الأقدام. ومن كثرة تردّد الناس إليها، يخيّل لي أنّ الموت ليس موحشاً، بل مجرّد دعابة.

وجدت الإمام قد اعتدل للصّلاة، مرتدياً ثوباً أبيض ويمسح لحيته التي أكلها الشيب بيده، ويعتمر طاقيّة صفراء حاملاً سبحة بحبّات سوداء تتدلّى من معصمه الأيمن. لم أنبئه بعلّة موتها، لأنّ الأئمّة يحجمون عن جنائز من قُتل أو انتحر، بينما اصطفّ معزّون خلفه. تفحّصت الوجوه ودوّنت مَن حضر ومَن غاب من موظّفي الفندق. لمحت الحاج ميمون بلعسل، الشيف خيّاطي، النادل خليل، فوزي صاحب الحنطور، الهادي مسؤول التنظيف، كريمو البستانيّ،

يوسف الدليل السياحي، وعجرود الذي يسترزق من التقاط صور للسيّاح ومن توثيق حفلات المرقص في فيديوهات. لفتني حضور مشيّعين آخرين قلائل لم أتعرّف إليهم، زعمت أنّهم من الفضوليين العاطلين من العمل، الذين يصرفون وقتهم في حضور الجنائز كسباً للحسنات، أم هم من روّاد المرقص؟ ليس من صلاحياتي سؤالهم ثمّ إنّه لا سرّ يُحفظ في هذه المدينة، النميمة هرمون يُنعش الألسنة. فوجئت عندما رأيتهم يتدافعون في حمل نعشها كما لو أنّهم يحملون نعش واحد من ذويهم.

دفعت لمُقرئ ضرير ليتلو آيات من القرآن على مثواها، ثمّ انفردت بالحاجّ، الذي احتار كيف يحضر جنازة لا يعرف لمن يقدّم عزاءً فيها.

«نعزّي أنفسنا جميعاً فقد كنّا أهلها» قال. أبصرت جبهته ترشح عرقاً، يُضيّق عينيه من لفحة الشمس، وطلبت منه ألّا يغيب فقد أحتاج إلى إفادة أخرى منه في أيّ وقت: «تعرف مكاني»، أجاب.

ثمّ انطلقت عائداً من حيث أتيت، مُجتمعاً بحليمة ومُرافقتها، التي عرفت أنّ اسمها نصيرة. شعرت بحرج من وجودها بيننا، فهاتفت صديقي توفيق، صاحب مُوتيل النور، ليوفّر لهما غرفة مشتركة. لم أودّ أن تبيتا في فندق الصحراء، لأنّ مالكه لن يتركهما في حالهما من دون أن يستجلي ما شاء من معلومات ويؤثّر على سرّية تحرّياتي، فقد تعلّمت ألّا أثق بأقرب المقرّبين منّي في حلّ القضايا العصيبة ولا أسمح لأحد بالتشويش على ما أفعل.

خرجت نصيرة برفقة شرطي إلى المُوتيل، بينما جلست حليمة قبالتي. طمأنتها بأنّ جنازة ابنتها حضرها أناس وقُرئ فيها القرآن، فأزاحت عجارها وأنزلت الملحفة إلى منكبيها، وقد أسعدني صواب تقديري، حين أعلمتني أنّها تشارف السادسة والأربعين من عمرها.

شرعت تحكي لي عن زازا – بينما نوبات بكاء تُفاجئها من حين لآخر – عن طفولتها، خصوماتها مع إخوتها، الذين أخفت عليهم نبأ مصرعها قبل مجيئها، لأنّها لم تصدّقه، وصولاً إلى حكاية اختفاء ابنتها من البيت قبل ستّة أعوام. «عرضت صورتها على الشرطة، لكنّهم لم يعثروا عليها»، أكدت لي.

تعمّدت يومذاك ألّا تطفئ مصباح الباب الخارجي ليلاً راجية عودتها، مستكينة لوساوس أنّ عصابةً مزّقت جسدها للمتاجرة بأعضائه، من دون أن ينقطع لسانها عن الدعاء لها، لكنّ ابنتها عادت في اليوم التالي.

– رجعت خائرة البدن والنفس.

– أين اختفت؟ سألتها.

قالت إنّها قضت ليلتها في عرس واستعصى عليهم التأكّد من كلامها بحكم أنّ ذلك العرس اكتظّ بالمدعوّين وغير المدعوّين، فقد تشاجرت مع شقيقها الأكبر، قبل اختفائها، وحين عادت، أشبعها ضرباً: «أوثق يديها وكمّم فمها ثمّ انهال عليها بركلات في بطنها وعلى وجهها».

عندما رجع والدها مساءً، بعد نهاية دوامه كخمّاس في مزرعة أحد الأغنياء، أمرها بعدم الخروج إلى الشارع مرّة أخرى.

تمدّدت زكيّة في الفراش أسبوعاً كاملاً تشتكي الحمّى وآلاماً في المفاصل، ثمّ توارت مرّة أخرى أشهراً بعد تلك الواقعة.

حسب الأم، وثّقت الشرطة اسمها ضمن المفقودين. وأشاعت أنّ ابنتها تزوّجت في بلدة بعيدة قصد تلافي سوء ظنّ الجيران. فأدركت لماذا ارتبك شرطي نزرامة حين نعيت إليه موتها، مستغرباً أنّ حليمة لم تبلّغ طوال هذه السنين عنها وهي تعرف مكانها، مُغالبة

القانون حماية لصغيرتها. «الأمّهات أحرص الناس على حفظ الأسرار»، قرّرت في خلدي.

تُوفّي والد زكيّة، قبل ثلاث سنوات، متأثّراً بالتهاب رئوي، بعدما أنفق أيّامه الأخيرة يسعل دماً، وغابت ابنته عن جنازته فشكّ الجيران في ما روّجته أمّها عنها، لكنّها تملّصت من أسئلتهم بكلمات مُراوغة... «لم تقطع صلتها بي»، أخبرتني. منعت عنها حليمة زيارتها كي لا ينتقم منها إخوتها، وواظبت زكية على إرسال مالٍ لها: «أرسلت لي آخر مرّة مبلغاً كبيراً على غير العادة».

وقد أخبرتها، في مكالمة أخيرة، قبل أسبوعين، عن رقم والدة نصيرة، حيث تعوّدت مُحادثتها، أنّها تنوي الزواج.

– بمن نوت الزواج؟ سألتها.

– لم تقل لي.

اكتفت أمّها بـ«ربّي يعينك» وفقِهْت أنّ العلاقة بينهما كانت أفضل ممّا خُيّل لي بادئ الأمر.

– هل أنبأتك أنّ شخصاً ما هدّدها؟

أزاحت خيط مخاط رقيقاً تسرّب من أنفها، بظهر كفّها، رفعت رأسها محدّقة في زاوية السقف المصبوغ بالأبيض، تقلّب عن إجابة.

– لم تكن مُطمئنّة لمن كانوا يعملون معها.

– من ضايقها؟

– لا أعرف.

– تذكّري.

– لم أسألها. خمّنت أنّها مجرّد مخاوف عابرة.

استفزّتني إجابتها: هل قتلها واحد من عمّال الفندق؟

سعت حليمة إلى التخفيف من فجيعتها باستجلاب حكايات عن ابنتها «الحرون»، كما نعتتها، عن شقاوتها وصلتها المتينة بها، فهي تؤمن بأنّ الحكايات تحيي الموتى.

– كنّا نُناديها «زربوط» في صغرها. من كثرة لفّها وطيشها مثل خذروف، عقبت.

اتّجه نظري إلى سنّ ذهبية في فكّ مُحدّثتي العلويّ من دون أن أنقطع عن تدوين رؤوس أقلام على كنّاشي، فقد أجابتني، بلا دراية منها، عن أسئلة حامت في ذهني، عن الضحيّة وإخوتها.

حين جفّ حلقها، واجهتني بالسؤال الذي انتظرته منها:

– من قتلها؟

بشير لبْطم ليس سوى مُشتبه فيه ولا أدلّة لديّ على متورّطين آخرين، مع ذلك أجبتها:

– شابّ كان مقرّباً منها.

قوّست حاجبيها الكثيفين، تنتظر منّي المزيد.

– ربطتهما علاقة حبّ.

حجبت ثغرها وذقنها المدوّر بكفّها، كمن سمعت شتيمة.

– لماذا قتلها؟

لا تزال كلمات الرسالة التي عثرت عليها، في غرفتها تدور في رأسي. يصعب عليّ تقبّل أنّها أحبّت رجلاً آخر، بل سعت من أجل أن يُبادلها الحبّ، من غير أن تعير اهتماماً لميلي إليها.

– سوف نعرف كلّ شيء بعد إكمال التحرّيات.

قدّرت أنّها تحتاج إلى أن تختلي بنفسها وتتفرّغ إلى شجنها. لحظت أنّ بشرتها جافّة عكس بشرة زوجتي، وقدّمت لها حقيبة اشتملت على ممتلكات وملابس ابنتها ومبلغ المال الذي خلّفته،

محتفظاً بالقرط الذي صمد في شحمة أذنها... «العثور على القرط الثاني سيسهّل مهمّتي»، قلت في سرّي، ثمّ بصمت على وصل تسلّم، واعداً إيّاها بمُرافقتها في اليوم التالي إلى المقبرة لتتلو الفاتحة على روح فقيدتها.

قبل أن أغادر مكتبي، والساعة تقترب من الخامسة مساءً، اتّصلت بي المُحامية حسينة، تسألني عن وضع واحد من موكّليها في السجن، مُصاب بالسكّري. طمأنتها إلى أنّي أوصيت الحرّاس اللطف به، ثمّ أخبرتها، في سياق الكلام، بالمصيبة التي وقعت من دون أن أفصح عن اسم الضحيّة. فهي لم تكن تستلطف زازا لكنّها أسرفت في فضولها، فتلوت على مسمعها بعض ما جاء في تقرير الشرطة العلميّة:

... بتاريخ الجمعة 1988/9/9، عند العاشرة والنصف صباحاً، تمّ اكتشاف جثّة المرحومة زكيّة زغواني، من مواليد 1964/3/11...

– عاينّا وجود شرخ في قفا الضحيّة، حوالي 4 سم.

– عاينّا عدم وجود دم على الأرض.

– رفعنا البصمات.

– لم نجد في عين المكان أيّ أغراض من شأنها تحديد هويّة الضحيّة.

– تمّ التعرف إلى هويّة الجثّة لاحقاً.

لاذت بالصمت هنيهة، قبل أن تردف:

– أستشعر حزنك عليها.

تحسّرت عندما علمت أنّ المُشتبه فيه قريب صديقتها نورة.

– ما الذي تنوي فعله؟

– ألّا يذهب دمها سدىً.

أغلقت الخطّ وعاودتني كلمات حليمة بأنّ ابنتها كانت مُسجّلة ضمن المفقودين في أمن بلدتها. لماذا تستّر عليها مالك الفندق؟ لماذا لم تكن المرحومة مُطمئنّة لمن عملوا معها؟ لا بدّ أنّ ميمون يخفي شيئاً ما.

نورة

أردت في صغري أن أصير طبيبةً بيطريّة، لكنّني لم أتصالح مع الرياضيات. وتشارك أساتذة تلك المادّة في مخيّلتي على أنّهم ثقيلو الظلّ، فاخترت المُحاماة، عن غير اقتناع، ثمّ روّضت نفسي بعد تخرّجي. المحاماة مهنة مُراوغات، احتمالات الانتصار فيها مُتاحة، كما أنّ المحامية تقبض ولا تدفع، كلّما زادت مشاكل البشر أثمرت شجرة أرباحي. أصرف جلّ وقتي في شغلي، مع ما يُخالطه من سأم، فالقضايا التي أتأسّس في الدفاع عنها تكاد تتشابه في ما بينها، تتعلّق بطلاق أو ميراث أو ما جاورهما، ما حدا بأمّي إلى نعتي بـ«عرّابة المطلّقات»، إلى غاية ذلك اليوم الذي لم أُصدّق فيه ما نُمي إلى علمي في الهاتف: إنّها قضيّة قتل. المُشتبه به فيها هو ابن خالتي.

عندما رفعت السمّاعة وباغتني صوت أمّي المُرتفع، كما لو أنّها تُنادي شخصاً يقف على رأس جبل، ظننت أنّها تودّ تذكيري بما يجب عليّ شراؤه من أغراض، في طريق عودتي إلى البيت... «بشير... في الحبس...». وجمت وأنا أسمع كلماتها، مُمسكة رقبتي بيدي اليسرى كما لو أنّني خفت على رأسي من السقوط، قبل أن ترشقني بجملة أخيرة وتقفل الخطّ: «دبّري رأسك».

لأنّي محامية، تحسَب أنّي بلا شك أملك الحيلة لإخراجه من محبسه، وإلّا فإنّني لا أستحق أن أُعدّ من نسلها. بلعت ريقي، مُحاولة أن أستوعب ما سمعت، من دون أن أكفّ عن قضم ظفر سبّابتي.

لم أعرف عن بشير تصرّفات شائنة ولا انحرافات، وصحيفة سوابقه العدلية لا شائبة فيها. بيت أهله القديم لم يكن يبعد عن بيت أهلي سوى شارعين، مئتين وثلاثين خطوة. قضينا شطراً من طفولتنا نُشيّد قصوراً من حصى وطين، نتبادل حكايات استرقنا السمع إليها من الكبار عن حرب التحرير وأساطيرها، قبل أن يتخاصم والده مع عمّه على ملكيّة السكن، عقب وفاة الجدّ، في العام الذي أمّمت فيه الحكومة المحروقات، فرحل مع والديه وإخوته إلى بيت آخر قرب المرج.

حين التحقت بثانوية البنات في الخامسة عشرة من عمري، كان بشير، الذي يكبرني بعامٍ، يصرف من طريقي كلّ من يُقدم على مُعاكستي. بعدما ضاق صدري من تصرّفاته، التي أوصلته مرّات إلى عراك بالأيدي مع مُراهقين آخرين، ردّ عليّ:

– أنت مثل أختي.

– اهتمّ بشؤون أختك سلمى إذن.

أدركت لاحقاً أنّه كان يتبع خطواتي، لا بغرض حمايتي فقط، بل لأنّ قلبه هفا إلى فتاة درست معي في الحجرة عينها. لكن تلك الفتاة زوّجها والداها إلى مُغترب، كانت تتباهى بأنّه يملك شقّة وسيّارة. كانت تسمّيه عمّي الساسي، فعلمت أنّه يكبرها بعشرين عاماً. رافقته إلى ضاحية باريسية، وهي لا تتقن من الفرنسيّة سوى «بونجور مسيو... بونسوار مسيو».

«أحببتها بسرعة ونسيتها بسرعة»، قال لي يوم اكتشفت أمره.

حـزت البكالوريا وانتقلت إلـى العاصمة لـدراسـة الحقوق. أقمت ببيت عمّتي حيزية في ساحة أوّل ماي، التي لولاها ما اقتنع أبي بخياري في الارتحال إلى مدينة بعيدة، وعـدت منها بالدبلوم المطلوب، قبل أيّام من احتفاء الجرائد بتحرير رهائن أميركيين في إيران، فيما أخفق بشير في تجاوز السنة الثالثة الثانوية. بدّد عاماً يـذرع المدينة طولاً وعرضاً أو متّكئاً على الحيطان ومتلصّصاً على الـمارّة، ثمّ تخرّج في مركز تكوين مهنيّ كمُحاسب. أدّى الخدمة العسكرية وصبر إلى أن نال منصباً في شركة المطّاط والبلاستيك، التي شُيّدت على بُعد ثمانية كيلومترات خارج المدينة، من دون أن يتنازل عن عادته القديمة في مطالعة شعر الغزل وكتب الفلك والجغرافيا وسير المشاهير وتسويد الكراريس بالخواطر واليوميّات.

سبق أن حدّثتني صديقتي حسينة عن زكيّة زغواني، فهي تعلم ما في الصدور وما تخفيه المرأة عن زوجها.

– ليست جميلة لكنّها أصغر سنّاً منّا، بارعة في جرّ الرجال خلفها كجراء جائعة.

حقدت صديقتي عليها حين ظنّت أنّها سرقت منها رجلاً.

– هل أعرفه؟

فأجابتني وهي تقضم ظفرها:

– لا أظنّ.

– لكنّك تعرفين كلّ شيء عنّي!

– من لا يعرف أفضل ممّن يعرف.

فقرّرت بدوري أن أكتم عنها حكاياتي مع الرجال.

فاجأني أنّ بشير تعلّق قلبه بتلك الفتاة وعزم على خطبتها، كما روت لي أمّي في الهاتف، لكنّ خالتي رفضت، فأصيب بإحباط. هل قصدت حسينة أنّ الميّتة سرقت منها ابن خالتي!

سرت بجوار سوق ترابانْدو أو السوق السوداء، التي تمتدّ بطول خمسمئة متر، تنطلق بعنق ضيّق ثمّ تنفرج قبل أن تضيق مرّة أخرى في نهايتها. يتزاحم فيها باعة سلع مُهرّبة وأخرى مسروقة، وتتقابل محالّ وطاولات معدنية تعرض حاجياتها، ولا يحمل أصحابها ترخيصاً، لكنّ الشرّطة تصرف النظر عنهم. يتهاوش فيها تجّار ألبسة مستعملة مع زبائن ونشّالين. خطر لي وأنا أمشي هناك أن أستقلّ سيّارة أجرة صوب فندق الصحراء وأستفسر من مالكه تفاصيل الواقعة، لكنّني عدلت عن رأيي. آثرت مقابلة المشتبه فيه قبل أن أشرع في أيّ خطوة أخرى. عجزت عن إيجاد تاكسي توصلني إلى البيت وأعرضت عن انتظار الحافلة التي تكتظّ بروائح العرق والأرجل والركّاب الذين لا يجدون غضاضة في الالتصاق بجسد أيّ امرأة، مفضّلةً السير وحرق بعض الدهون. تعدّى وزني السبعين كيلوغراماً بينما طولي توقّف عند المتر وستين سنتمتراً، وهكذا تدلّى أسفل بطني مثل حبّة برقوق وانتفخ فخذاي، من دون أن تنفعني الحمية التي أتّبعها في شيء.

وصلت إلى حيّ أوّل نوفمبر، الذي اشتهر باسم غامبيتا قبل الاستقلال، وتتراصّ فيه بيوت بجُنينات، شاردة الذهن، أتبع ظلّي، مُستاءة من أنّ مكياجي ماع من شدّة الحرّ. دلفت إلى دكّان بوكريشة – يُكنّى كذلك بحكم بدانته – الذي يبيع بالتجزئة كلّ ما يحتمل البيع، من حلويات إلى أقراص أسبيرين. أنبأني وهو يحدّق بي، من شعري إلى وسط جسمي، أنّ القهوة لا تزال غير متوافرة، وليس أمامي سوى استبدالها بالشاي.

– تجّار الجملة قالوا بلي السكر راح ينقطع.

فاكتفيت بالقول:

– عندنا العسل.

داعب ذقنه بأصابع يده اليمنى، واجتاحت أنفي رائحة توابل ممزوجة برائحة صابون مارسيليا. اكتفيت بشراء علبتَي ياغورت وخمسة أرغفة خبز، متحمّلة رغم تعكّر مزاجي الإصغاء إلى تبرّمه من فشل الدولة في محق الجراد الذي اكتسح مزارع قريبة.

– عام جفاف وضعف حصاد.

– شدّة وتزول، قلت ثمّ دفعت له مقابل ربع قنطار سميد، سيحمله إلى البيت أخي فضيل. المُسمّى «بوستّة»، نظراً لأصابع يده الستّ.

لا يفعل أخي شيئاً غير التسكّع في الحارات المجاورة، الاعتناء بطائر حسّون، لعب الدومينو أو الورق وتبادل أعقاب سجائر مع أصحابه، الذين يُرهبهم استسهاله الشجارات. يعود في ساعة متأخّرة بعينين محمرّتين، بعدما خاب سعيه في الدراسة، ولا نعلم من أين يكسب مالاً في التزوّد بملابس جديدة كلّ مناسبة. عانى في صغره من تأخّر في الكلام وإفراط في الحركة. لا يرى أبي فيه سوى غلام طائش فلا يمدّ العون له، بينما تلحّ عليه أمّي أن يتعلّم حرفة أو يلتحق بالجيش، لكنّه لا يحلم إلّا بالهجرة إلى فرنسا: «يجي نهار تتمنين قعدة معي»، يلجم محاولاتها إقناعه بالبحث عن عمل براتب ثابت، «واحد ما يتمنّى قعدة مع مغبون كيفك»، تُجيبه.

دخلت البيت فوجدت أمّي تنتصب أمامي، مثل دركي، تغطّي شعرها بمنديل، فهي تحدس وصولي من حركة إدارتي المفتاح في الباب المصنوع من خشب الساج. أمسكتني من معصمي وهمست إليّ تسألني عمّا يجب فعله لمساعدة ابن خالتي:

– ربي يفرّج.

– جات خالتك فطّوم.

أهملت المشتريات في الردهة، التي تزيّن حائطاها برسوم زخرفيّة، وسوّيت هيئتي كي لا تلاحظ خالتي توتّري. حين شاهدتني، هبّت من مجلسها في الصالون الرحب، بوجه شاحب وقد بدت لي أنّها تقدّمت في العمر، تجرجر جلّابة خضراء داكنة. قبّلتني على وجنتيّ، وأمعنت النظر في عينيّ مثل هرّة ظمآنة.

أسهبت في الكلام، كما لو أنّها في مُرافعة، عدّدت لي خصال ابنها وحسن تربيتها له. قالت إنّه خاصمها بعد رفضها خطبة تلك الفتاة حين علمت مهنتها كمغنّية: «لو عرفت أنّ الحال يوصل به هكذا كنت قبلت». تحدّثت عن زوجها وتقلّب مزاجه ولم تستثن بكائياتها ابنيها الآخرين وابنتها الذين يشعرون بالفقد: «بشير في مقام باباهم»، ثمّ حكت لي أنّها قذفت كلّ ما أكلته من دون أن يُفارقها مغص في المعدة: «نحسّ أن أفعى تتلوّى في مُصراني»، متخيّلة أنّ ابنها يقبع في زنزانة انفرادية ورجال أشدّاء ينهالون عليه بالضرب كلّ ساعة.

حاولت أن أتلفّظ بكلمات مضبوطة ومختصرة كي أهدّئ من روعها ومن هذرها، فأخبرتها أنّ ابنها محلّ شبهة لا أكثر، من دون أن أمنع نفسي من حسدها على بشرتها الفاتحة، عكس بشرة أمّي المائلة إلى سمرة.

– غدوة نزوره ونعرف منه وش صرا.

لم أتمّ جملتي حتى اتّسعت حدقتا عينيها وألحّت على مُرافقتي.

– نهار آخر ندبّر لك إذناً بزيارته.

تلت عليّ قائمة مشتريات، أنقلها إليه، من مكسّرات، شوكولاتة، لوازم حلاقة غالية الثمن، معجون أسنان وفرشاة، فشعرت

بأنّ ابن خالتي يعيش حياة أغنياء، لا كموظّف بسيط في شركة وطنيّة. «نعطيه دراهم ويطلب وش يبغي من إدارة الحبس»، أكدّت لها.

انصرفت فطّوم وما كادت تفعل، موصية إيّاي بأن أترجّاه الصبر والثبات، حتى كدت أجيبها: «هذي هي الدنيا، الحوت يأكل الحوت وقليل الجهد يموت». عادت أسئلة أمّي المستفزّة، عمّا ينبغي فعله وكيف السبيل لإطلاق سراحه، متوهّمة أنّني قاضية ولست مجرّد مُحامية. ذكّرتها بأنّ حكايته ليست واضحة، لكنّها لم تكترث: «المهمّ يخرج من الحبس».

فقدت رغبتي في الأكل بعدما أبلغتني أنّ والدي، الذي انفصل عنها وتزوّج شابّة في مطلع العشرينيات من عمرها، قد أوفد إليها قريبة له كي تجمع شملهما، بعدما ثبت عقم زوجته الجديدة. «جُنّ عقله»، قالت. «وأنت تودّين تجنّنيني»، نويت إسكاتها، على وقع خرخرة القطّة رونة، التي أطلقت عليها اسماً من حروف اسمي، وقد أخذت تحكّ فروها على ساق الكنبة، رأسها صغيرة وأذناها منتصبتان، بطنها أبيض وذيلها أسود مع بقع بنيّة على ظهرها.

انسحبت إلى غرفتي، المزوّدة بسرير يسع شخصين. خلعت ثيابي ولبست روباً خفيفاً، ثمّ لفت بصري شريط «الشيخ»، مهملاً على منضدة أغراض الزينة، التي تعلوها مرآة متوسّطة الحجم ذات إطار خشبي، فأولجته في جهاز تشغيل الفيديو، لمشاهدة الفيلم للمرّة الثانية، منحازة إلى قصّة الحبّ التي يرويها. تابعت أداء الممثّلين الصامت بصورهم بالأسود والأبيض، مُتخيّلةً ما يرغبون في قوله، مُبتكرة ألواناً لأزيائهم وبشراتهم. أحببت المُمثّل رودولف فالنتينو، الذي جسّد دور البطل، مع أنّني لم أستسغ تعنيفه للبطلة وإجبارها على طاعته. لم أحبّه كممثّل فحسب بل كرجل. أحببت رجلاً ميّتاً،

التقيت بوجهه في فيلم صامت ضاعف من ثقتي بأنّ الناس يتفاهمون بالحركات أكثر ممّا يتفاهمون بالكلمات.

قبل أن أنهي المشاهد الأخيرة منه اضطرم رأسي بنرفزة عمّا حلّ ببشير، وهممت بالتفكير في الأسئلة التي يجب أن أطرحها عليه، لأمسك برأس خيط يُمكّنني من تخليصه ممّا هو فيه. تحسّست إبطيّ براحتي يديّ مطمئنّة لملوستهما، لكن ضايقني أن رأيت شعرة بيضاء تتدلّى من رأسي. اقتلعتها مثل فلاح يقتلع عشبة ضارّة، غير عابئة بمن يقولون إنّ نتف شيبة يُنبت عشراً أخريات، ثمّ أشعلت سيجارة فتصاعد دخانها إلى السقف المطليّ بأصفر فاتح، بعدما تأكّدت من أنّني أزلجت الباب ولن تهجم عليّ أمّي وتتلو مرافعتها الأثيرة بأن أبحث عن رجل «يسترني»، أي يتزوّجني. «الرجال لا يقبلون امرأة تدخّن»، تعيب عليّ متناسية أنّني اجتزت الثلاثين من عمري والرجال يصطفون من هنّ أصغر سنّاً منّي كما فعل أبي، قبل أن يأتيني صوتها وطرقها: «امرأة تحبّ تكلمك في التليفون».

ظننت أنّ واحدة من الزبونات تودّ السؤال عن قضيّة تخصّها، لكن فاجأني صوت حسينة على الطرف الآخر.

– هل يمكن أن نلتقي غداً؟

– لماذا؟

– بشأن ابن خالتك.

11 سبتمبر

امتعضت عندما اقتربت من البيت وسمعت أحد المسطولين، الذين كانوا يتجمّعون على مدخل الحيّ المُترب، يقول بلسان أثقله شرب كحول طبّي مُعالج بالماء: «جاء بعيرة». تلك هي كُنيتي، تصغيراً لكلمة «بعرة»، ألصقت بي نظراً لرأسي المكوّر. «إذا كرّرتها فسأحشو بعرة في مؤخّرتك»، زجرته والساعة تقترب من منتصف الليل، فصمت.

لم أجد، في المطبخ، الذي اصطفّت على حائطه غرابيل، وأوانٍ فخاريّة منثورة على إحدى زواياه، سوى نصف رغيف خبز، حبّة طماطم وصحن فول مدمّس طعمه حامض، وانتهزت عودة الماء لأخلّص جسمي من بقايا العرق.

دعكت زغب صدري أمام مرآة الحمّام، ثمّ رقبتي، مقتنعاً بأنّني أملك من الوسامة ما يوقع بقلوب أعذب النساء، لا أعيب على نفسي سوى عينيّ الغائرتين: «جمال الرجل في شدّة بأسه لا في شكل عينيه»، قلت في نفسي، فمغامراتي الحميمة، رغم قصرها، تزيدني ثقة برجولتي. تفحّصت وجهي وتذكّرت كلمات نورة الساخرة: «أنت لا تختلف عن البهيمة سوى في قدرتك على التقبيل». عرفت قبلها تلميذة كانت لم تزل في المرحلة الثانوية، شغوفة بالموسيقى والرسم.

ظننت أنّها ستصير قدري مثل يوكو أونو وجون لينون، لكنّها خابت في اجتياز البكالوريا، فمنعها والدها من تخطّي عتبة البيت، ثمّ تعرّفت إلى مُطلّقة، لم أصبر على رائحة جسدها ففارقتها. أنستني المحامية إيّاهما، «جعلت منّي ملكاً غير متوّج»، كما قال كات ستيفنز. كنت كلّما احتضنتها، مقلّداً مشاهد رأيتها في أفلام، وشعرت بدفئها بين ذراعيّ، اطمأننت إلى أنّ دم كازانوفا يسقي عروقي.

صببت دلو ماء على رأسي فنفذ طعمه المالح إلى لساني. حلقت ذقني وأعدت ارتداء قميصي وسروالي الداخلي وبسطت بنطلون الجينز على كتفي، ثمّ انسحبت على رؤوس أصابعي، إلى غرفتي، كي لا أوقظ أمّي وأخي، اللذين ينامان في حجرتين منفصلتين.

شممت رائحة لزجة في فراشي، فأمّي التي تنظّف غرف الغرباء، وتعتني بغرفة شقيقي، تتمنّع عن دخول غرفتي، عقاباً لي على مزاولتي مهنة لم تقتنع بها. كثيراً ما وبّختني: «كما لو أنّك تعيش مع جيفة». إذا حاميت عن نفسي، تفحمني: «جِد امرأة تتزوّجها وتمسح خراءك». هي تعلم أنْ لا مال لي من أجل خطبة، ودفع مهر، وإقامة زفاف، ثمّ التكفّل بحاجيات زوجة. نظرت إلى الزرابيّ الملفوفة والمصفوفة إلى الحائط بعضها فوق بعض، محشوّة بكريّات النفتالين ذات الرائحة القويّة الطاردة للحشرات والعثّ، وقدّرت كم سأنال منها لو بعتها، عشرات الأوراق النقديّة، ربّما. حاولت، أكثر من مرّة، أن أقنع أمّي بأن تسمح لي بعرضها في سوق ترابandو، لكنّها رفضت: «لقد نسجتها قبل أن تولد». تصفها بالإرث الذي لا يحقّ المتاجرة به، كما تحتفظ بمكنة خيّاطة قديمة من نوع «سنجر» في غرفتها، مثل جندي يحتفظ برصاصته الأخيرة. كانت في شبابها تنسج وتخيط وتطرّز، لكن بعد ترمّلها تخلّت عن هواياتها.

وددت معاينة فيلم جديد لعلّي أستدرج النوم، فانتبهت إلى انقطاع الكهرباء. ارتفع صياح في الشارع وشتائم من جرّاء تعارك المسطولين في ما بينهم. يظنّون أنّ الفحولة في خشونة الصوت، كثرة التشاجر وتخدير العقل كلّ ساعة، وكثيراً ما تنتهي جلساتهم بدماء تنزف من الأنوف أو طعنات في الأذرع، وفي اليوم التالي يتصافون مثل صبيان سريعي النسيان.

راجعت في ذهني قائمة الأشخاص الذين لم يدفعوا ما عليهم من دُيون، من استئجار جهاز تشغيل الفيديو أو أشرطة أفلام، عازماً على الضغط عليهم، عدا كمال بلعطّار، فقد دفع ما عليه من حيث لا يعلم. وقبل أن أغمض عينيّ، بلغتني تأوّهات أمّي من الحمّام، الذي تعلوه كوّة تطلّ على حوش الدار، يتسلّل منها ضوء القمر، وهي تتقيّأ وتشكو ألماً في معدتها. بعد ألم ضرسها عاودها مغص، لم يعتزلها منذ أشهر، فأجّلت نومي وهرعت إليها سائلةً: «هل آخذك إلى المستشفى؟»، فرجفت يدها دلالة على التشكّي.

استفاق شقيقي يفرك عينيه، مستفسراً ما يحصل، فأرحته بأنّني سأتكفّل بها، وأخرجت جاري حملاوي من فراشه يتمطّط، بعدما تبعثر المسطولون في بيوتهم، فهو الوحيد الذي يملك سيّارة في الحيّ، ولم يتوانَ عن الامتثال لمشيئتي. سيّارته من نوع «داسيا» متعدّدة الألوان، هي عبارة عن كوكتيل أجزاء مجمّعة تفوح منها روائح زيوت وأصباغ، كما يجب تسخين محرّكها قبل أن الانطلاق. تتدلّى سبحة من مقدّمتها، وصاحبها لا يكلّ من التذمّر من زيادة الرسوم على أصحاب المركبات. يتكسّب في تجارة قطع غيار قديمة مُعيلاً خمسة أولاد.

لم يكن المستشفى، الذي ضاق رواقه بصخب المُنتظرين كما لو أنّهم في سوق أسبوعيّة، يتوافر سوى على ممرّض واحد يُداوم ليلاً. شعر الممرّض يُشبه عشّ عصفور نظراً إلى الصلعة التي تتوسّط

رأسه، بينما أذناه طويلتان مثل ميكي ماوس، وقد تدلّى ستيتوسكوب على صـدره. في غياب الطبيب المـناوب، اكتفى بوخزها بحقنة لا أدري إن كانت معقّمة أم لا، من دون إجـراء أيّ فحوص. «من لا يملك واسطة فليتحمّل الألم»، قلت لنفسي، واخترقت أذني شهقات شابّة تبكي رضيعها، بينما أمّي تئنّ: «يا ربّي... حياتي هي رضاك»، مُردّدة اسم أبي: «يا بن قـدّور... رُحت وخلّيتني قدر بلا ذراعين». كلّما توجّعت، حنّت إليه وزادت من حزني. في صغري كنت أراها تبكي حين ترد سيرته، تحضنني وتناديني باسم الدلع «بريهة»، عندما كبرت نسيت ذلك الاسم وباتت تخجل من دموعها أمامي، مع أنّ النسوة كلّهنّ يبكين، على رأي بوب مارلي. لم أبال بغياب الأب سوى عندما التحقت بمدرسة البنين، في الأسبوع الذي مات فيه تشي غيفارا، وصادفت أطفالاً يأتون كلّ صباح مرافقين بأوليائهم، فسألني أحدهم: «لماذا لا يصحبك والـدك؟»، لم أجبه وشعرت بيتمي في عينيه. قضيت نصف عمري بحثاً عن قبر أبي بلا جدوى، وقرّرت في تلك اللحظة أن أستردّ حقّه. فقد استشهد في حرب التحرير، لكن سي محفوظ، أمين نادي قدامى المجاهدين، تمنّع عن استصدار بطاقة أرملة شهيد لأمّي، بداعي عدم توافر ما يُثبت انخراط بن قدّور في الحرب، ناصحاً إيّاي بأن أجمع شهادات من جنود جيش التحرير السابقين «وسوف نلبّي طلبك». كيف أقنعهم بأن يشهدوا لوالدي الذي لم أعرفه ولا أعرف قبره؟

نورة

بوجه شاحب كمن يعاني فقر الدم جلس بشير قبالتي، في غرفة ضيّقة مطليّة بالجير، لا يؤثّثها سوى طاولة بشكل بيضويّ وكرسيّين. كان بابها مُوارباً تصل منه حركة أقدام. حدّق فيّ هنيهة ثمّ أراح ذقنه على راحة كفّه وخفض بصره. أتذكّر حين صرت مُحامية، فطالع كتاباً يشرح أصول تلك المهنة، ملتقطاً منه كلمات كثيراً ما تلفّظ بها في دردشاته معي، ليُوحي إليّ أنّه ليس أقلّ شأناً من الذين أتمّوا دراساتهم. عقدته الكبرى أنّه أخفق في الالتحاق بالجامعة، يرى حملة الشهادات في مقام أعلى منه.

«لم أقتلها... لم أقتلها». راح يردّدها إلى أن مللت من سماعها وذراعاه تتراقصان في الهواء. وحزرت أنّ الحارس البدين، الذي نشط في الدخول والخروج، انتابه ملل مثلي. أفهمته أنّني لم آت إلى السجن لاتّهامه أو تبرئته، بل لأعرف بواطن علاقته بالميّتة، وما دار بينهما في أيّامها الأخيرة، لأحضّر ملفّ الدفاع عنه، منتظرة لحظات كي تهدأ شفتاه المتيبّستان عن الارتعاش ويستطيع لفظ كلام مرتّب.

تعرّف إلى زكيّة عام 1982، في نزرامة، حيث أتمّ خدمته العسكرية. «كلّ نساء المدينة لم يُعجبنك وأحببت غريبة؟»، أضمرت

في نفسي. توسّط لها للعمل في الفندق، وما برح يتردّد عليه من حين لآخر، لحضور سهراتها. تعزّزت عندئذ شكوكي في أنّ ابن خالتي تعوّد على حياة الأغنياء، فالولوج إلى مرقص الفندق يقتضي على الزبون دفع تذكرة دخول، كما أخبرني، يُلزمه باستهلاك مشروب، كلّ ساعة، أو أكل، ولا يخرج منه في الغالب إلّا وقد أفرغ ما في جيبه. «لا يتحلّى سلوكه بالمسؤولية»، قدّرت أنّ ذلك من سمات المجرمين.

«صادفتها، أوّل مرّة، بجانب مركز للتّكوين المهنيّ»، أخبرني. سحرَته بجمال وجهها وجسدها الممشوق، فخطا خلفها مثل فراشة تتبع الضوء. لقد رجّح دائماً جمال الجسد على جمال الروح، «إن كان جمال الصحراء في صمتها فإنّ جمال المرأة في إيقاع مشيتها»، هكذا سمعته يقول مرّة. ألحّت عليه أن يتركها وشأنها أو تصرخ فتثير الناس من حولهما، لكنّه استمات إلى أن غيّرت نبرتها وبادرته بأنّها لا ترغب في علاقة خارج الزواج. «فحْلة»، همهمت وأنا أنظر إليه بشعره الحليق.

«وعدتني أن تُرافقني حيثما شئت إذا تقدّمت لطلب يدها»، تابع.

أذعن لشرطها على مضض وقضيا الأسابيع اللاحقة يتواعدان ويطعم كلّ منهما الآخر من فاكهة العشق، يحلمان بحياة سرور وبيت وأطفال وأنّ الموت سيُمهلهما إلى أرذل العمر... «كنت كلّما اقتربت منها، شعرت بأنّني أذوب فيها»، قال لي.

هاتف أمّه وحدّثها عن رغبته في التقدّم إليها فنصحته بالتريّث، إلى أن يحظى بعمل يُتيح له قوت يومه. أتمّ فترة التجنيد وقفل عائداً من دون أن يوفي حبيبته حقّها ونار الاشتياق إليها تحرق قلبه. كاد ينقطع الوصل بينهما بفعل بُعد المسافة، لكنّها أحيت شغفهما بعد زهاء عامين من فراقهما والتحقت به. لاطفها بأن يوفّر

مالاً ليتزوّجها، لكن راحت خصومات تطفو بينهما، مع الوقت، فانكبّ على مُراسلتها، بخواطر وأبيات شعر مسروقة من دواوين الغزل، لتليين مشاعرها وتجديد رحلتهما في الحبّ والإخلاص.

لم يرضَ عن حياتها الليليّة، وطمحت بدورها إلى محوها وغايتها أن تصير ربّة بيت، مُقتنعة بأنّ حبّ رجل يعلّم المرأة الأنانية بينما الإنجاب يعلّمها السخاء، كما أخبرني.

فطن الشهر الفائت إلى أنّ أمّه فطّوم عارضت زواجه بزكيّة زغواني من أجل غاية في نفسها لا احتجاجاً على مهنتها: «أرادت أن تزوّجني بابنة عمّي».

لماذا لم تقترح عليه أن يتزوّجني؟ لأنّ ابنة عمّه أصغر سنّاً منّي؟، همست في قلبي.

– هل كان لها خصوم؟ سألته.

– لم تكن تُطيق مُغنّية أخرى في المرقص.

– ما اسمها؟

– صفيّة... يُنادونها الشيخة ذهبيّة.

علاقة طيّبة ربطت بين المغنّيتين، في البداية، «بل إنّ صفيّة تكفّلت بإيصال رسائلي إليها في لحظات تخاصمنا»، قال لي، ثمّ اختلفتا وأرادت الشيخة ذهبيّة أن تزيحها عن طريقها وتستفرد بنجوميّة المرقص. كثيراً ما حاكت قصصاً للإساءة إليها. أشاعت أنّها تدسّ السحر في أكل مالك الفندق. وأضمرت ضحكة حين ردّد على مسمعي أنّها اتّهمت زازا بامتهان الوشاية، واصفة إيّاها بـ«الزرزومية»، أي الوزغ، لا تنشط إلّا ليلاً، وكلّما بُتر ذيلها بتوريطها في مأزق نبت لها آخر.

ما كاد بشير يُواصل مكاشفته حتّى بغتته نوبة شهيق، وأنا أسدّ أنفي من تشمّم رائحة العرق التي فاحت منه. سالت دموعه وضغط

على قبضتي يديه مثل ملاكم يتهيّأ للصّعود إلى حلبة، بينما اصطكّت أسنانه كأنّه أصيب بنزلة برد.

– أنا بريء.

«المُجرم لا يقرّ بجرمه»، تمتمت في سرّي.

– الصبر والثبات، قال.

كـرّرت وصيّـة أمّـه لأُقـلّل مـن تـوتّـره، وهـو ينظر إلـيّ بشفتين منفرجتين، من دون أن أصارحه بأنّ قضيّته مُستعصية، ثمّ ناولته مالاً يعينه في طلب ما يحتاج إليه من إدارة السجن، فأبلغني أنّه يقتسم مهجعاً مع اثني عشر رجلاً. يتشاركون في حمّام واحد لا يفصله عن الخارج سوى ستار من قماش مشمّع. لم يرغب في أكل أيّ شيء منذ توقيفه ولم ينم.

«يُريدون مسح دمها في رقبتي»، قال ثمّ رافقه الحارس الذي لم يتوقّف عن تدليك بطنه إلى حيث أتى، وهو يُداري وجهه بكفّيه.

لمحت في مكتبي، الذي أعتني بنقائه وتطييب رائحته أكثر من اعتنائي بغرفتي في البيت، ملفّات موكلّيّ: امرأة تُقاضي مُطلّقها الذي لم يدفع نفقة أبنائهما الخمسة، كهل يشتكي جاره الذي سطا على حقله، وشابّة تبتغي حقّها من ميراث والدها الذي مات ودُفن في فرنسا. أعرف أنّ حكاية بشير سوف تستنزف كامل وقتي، فقرّرت أن أحيل قضاياهم إلى حسينة، لعلّها تكسب مالاً منها، واتّصلت بالفندق أنوي ترتيب موعد مع صاحبه.

– ليس موجوداً الآن.

– أنا المحامية المكلّفة بالدفاع عن المُشتبه به في اغتيال الآنسة زكيّة.

صمت محدّثي، في الطرف الآخر، كمن انشغل بشيء آخر، ثمّ أردف:

– عاودي الاتّصال في وقت لاحق لأحدّد لك موعداً معه.

أشفقت على حال ابن خالتي وقاومت رغبتي في البكاء... «في هذي البلاد، الحوت يأكل الحوت وقليل الجهد يموت».

طفت على مخيّلتي ذكرياتنا ونحن طفلان. حماقاته حين كان يسرق أحذية مصلّين في المسجد أو حين كان يرفع تنّورتي في غفلة منّي فأصفه بـ«اللقيط». جرمه أنّه أحبّها وكاتَبها، ويُقيم جنب المرج حيث عُثر على جثّتها. هل تورّطت تلك المُسمّاة صفيّة في مقتلها؟

غصت في تفكيري إلى أن رنّ الهاتف، وذكّرتني حسينة بموعدي معها.

استقبلتني بعبارتها الأثيرة: «نورة الحنّونة»، في بيت أهلها، الواقع على طريق يفضي إلى مقبرة لالّة عمّورة، الذي لا يختلف عن بيوت العائلات المتوسّطة التي تعيش على قدر المستطاع. نافذتاه الخارجيّتان مسيّجتان، لا جنينة بجواره ولا خضرة في فنائه الصغير. تكبرني حسينة سنّاً بعامين وبثلاثة سنتيمترات طولاً، وتفوقني بخبرتها في المحاماة، فكثيراً ما أسعفتني في دفاعي عن موكّليّ. ولا أخفي غيرتي من ساقيها المدهونتين على الدوام بكريمات، ببشرة أكثر نعومة من بشرتي. تحرّك يديها أكثر ممّا تحرّك شفتيها عند الكلام، صوتها ناعم وحادّ يصلح للغناء الأوبرالي؛ تُداوم على نكت شائنة من دون أن تفوّت فرصة في وصف المسؤولين بلاعقي جيوب المغلوبين. رغم أنّنا ننظر إلى الحياة من زاويتين متنافرتين: أؤمن بأنّ البلد يسير نحو الأفضل وهي تظنّ العكس، أواظب على مطالعة مجلّة وطنيّة، بينما هي لا تُطالع سوى ما يأتي من خلف البحر، وجدنا في مهنتنا منطقة وسطى في تناسي وطأة حياتنا، بالتناوب في سرد بذاءات والسخرية من الآخرين ومن نفسينا. ما إن جلسنا على أريكة

في الصالون، الذي علّقت على حائطه سورة الفلق مؤطّرة في كادر خشبي، وقد قاربت الساعة الثالثة زوالاً، حتّى خاطبتني مُتضايقة:

– أشعر بأنّ وجهي بدأ يشحب وأخشى أن يتجعّد.

دلّكت ذقنها ثمّ فركت إبهامها الأيمن بالسبابة وأخبرتني أنّها فقدت شهيّتها للأكل.

– بل يزداد جمالاً.

– كذّابة. قلت وأرفقتها بضحكة.

– نحن نكذب كي لا نبتئس.

أومأت برأسي إلى نهديها المنتصبين، مثل كُرتَي يد، تحت قميصها البرتقالي، فردّت عليّ: «لديهما مالكهما»، مخفية فمها براحة يدها، ومفصحة عن أنّ رجلاً ينوي خطبتها، متمنّعة عن البوح باسمه إلى أن يتمّ الحفل. وابتغت رأيي في فستان جديد لها، كُحلي اللون، صنعته خيّاطة معروفة من البوليستر، بكمّين قصيرين ورقبة دائرية، يصلح لبسه مع كعب عالٍ أو حذاء مسطّح، ففرحت لأجلها. خاصمها الحبّ سنين حتّى ظنّ الناس أنّها أخلصت روحها للعزوبيّة، قبل أن أبادرها بالسؤال عمّا تعرفه عن قضيّة بشير.

– قصّته معقدة. أوحت لي أنّني لن أفلح في تبرئته.

– كيف سمعت بما وقع له؟

– لديّ مصادري.

أعرف أنّ أذنيها تلتقطان طنين ذبابة على بُعد عشرات الأمتار.

– أتعرفينه شخصياً؟

– كلّا.

فمحوت من مخيّلتي أن تكون عاشرته يوماً، مثلما خُيّل لي.

– أين كان وقت الجريمة؟

– نائماً ولم يُغادر البيت قبل التاسعة صباحاً.

ثمّ حكيت لها ما سمعته منه في السجن وعن علاقته بالضحيّة.

– أودّ أن أقترح عليك حلّاً!

أحسست أنّها تعرف أشياء غابت عنّي.

– أتعرفين أهلها؟

أدخلت رأسي بين كتفيّ، ثمّ حرّكته نافية.

– لا بدّ من الوصول إليهم ومُساءلتهم.

«غالبية الجنايات التي سمعت عنها أو تأسّست في الدفاع عن المتّهمين فيها، لم تكن سوى تصفية حسابات عائليّة أو عشائريّة»، بيد أنّني لم أعبأ بقولها، لا يمكن أن أشكّ في أهل الضحيّة من دون دليل، فغيّرت الموضوع بأن عرضت عليها التكفّل بملفّات بعض موكّليّ.

– أكاد أغرق في القضايا التي تصلني كلّ يوم، أجابتني.

رحنا نثرثر في ارتفاع أسعار موادّ غذائية، ندرة البعض الآخر منها، انقطاع الماء وزيادة كلفة الكهرباء، قبل أن تسألني:

– ما دليلهم في الاشتباه به؟

– رسالة إلى زكيّة يتوعّدها سوء العقاب إن لم تتركه وشأنه. ذلك ما اطّلعت عليه في محضر الاستماع إليه.

– نوى الانفصال عنها؟

– ذلك ما فهمته.

– متى أرسلها إليها؟

حككت خدّي بأصابع يدي اليسرى كما لو أنّني تلقيت صفعة، كيف لم أسأله؟ هل هي رسالة قديمة أم حديثة؟

12 سبتمبر

ما زلت أذكر آخر مرّة ارتشفت فيها ماءً معدنياً، حين ابتعت قنّينة يوم تحدّث التلفزيون عن مجاعة في إثيوبيا، اقتسمتها مع زميلة لي في الجامعة، نويت استمالتها ففشلت. وهي فعلة لم أكرّرها. تآلفت مع الجراثيم بعدما أصبت في صغري بالتهابات جلد وحالات إسهال، فحزت مناعة. وحين مرّ بائع جافيل، ذلك الصباح، بمركبته التريسيكل، اشتريت منه لترين، مثلما طلبت منّي أمّي بعدما خفّ ألم معدتها. يكاد لا يخلو بيت من هذا المُطهّر الضروري للماء، الذي يصل على فترات مُتقطعة إلى الحنفيّات، مختلطاً بتراب تفوح منه رائحة بيض فاسد.

سحبت جريدة بالفرنسية، من بين كومة الجرائد القديمة المكدّسة تحت منضدة الاستقبال، أستفيد منها في تغليف أشرطة الأفلام التي يطلبها الزبائن، بدل استعمال الجرائد الناطقة بالعربيّة التي تحوي كلام الله، ثمّ استغرقت في حلّ كلمات متقاطعة، بينما مُذيع يتلو الأخبار في الراديو: «الاستعداد للدّخول المدرسي... تحضيرات الوفد الجزائري لدورة الألعاب الأولمبيّة في كوريا الجنوبيّة... قوّات الأمن تطلق الرصاص على متظاهرين في بورما...»،

حين ركنت سيّارة شرطة قرب الرصيف المُقابل لمحلّي. جال في خاطري أنّ الشرطيين اللذين نزلا منها، بقامتيهما الفارهتين، سيتوجّهان إلى محلّ بولنوار المُجاور لي، الذي يمتهن صنع الحلويات منذ عقدين، لكنّهما دخلا وردة الرمال.

– إبراهيم درّاس؟

حرّكت رأسي من أعلى إلى أسفل، بعينين تائهتين، وطويت الجريدة.

– تفضّل معنا.

أقفلت الباب ومضيت معهما إلى مخفر الشرطة، بوجه مصفرّ، أمام أعين أصحاب المحالّ الأخرى، الذين أطلّوا برؤوسهم، مستغربين ما يحصل.

رافقاني إلى الطابق الأوّل، ولم يطل مكوثي في رواق علّقت على حائطيه صور مطلوبين للعدالة، قبل أن يطلبا منّي دخول مكتب علته لافتة «مفتش الشرطة»، تعبق فيه رائحة قهوة. ظننت أنّ الأمر يتعلّق بما أدفعه من رشوة بالتقسيط قصد نيل بطاقة الإعفاء من الخدمة الوطنيّة، أو دسيسة ألقاها أحدهم نظير متاجرتي في أفلام الكبار بما يتعارض مع القانون، قبل أن أشاهد جهاز تشغيل الفيديو الذي أجّرته للفتاة التي لم تعد.

– عليه اسم محلّك. هل هو ملكك؟

– نعم.

احترت: هل سُرق منها؟

– لمن أجّرته؟

– لا أعرف اسمها.

– لم تترك بطاقتها؟

– بل بطاقة خطيبها.

عدّل مفتّش الشرطة جلسته وفتح كنّاشه.

– هل بطاقته معك؟

– بل في المحلّ.

– ما اسمه؟

– بشير لبْطم.

نظر إليّ مستغرباً وهو يتمتم: بشير!

– أتعرفه؟

– لا.

لم يكن ينقص ذلك المفتّش سوى نظّارة طبّية لأشبّهه في مخيّلتي بالممثّل غروتشو ماركس. أردت أن أسأله كيف وصل إليه الجهاز وحرج يُغالبني أن يُجيبني بأنّ ذلك ليس شأني، لكنّني تحامقت:

– لم تدفع لي تلك المُستأجرة مؤخّر استئجاره.

– متى أجّرته لها؟

– قبل ستّة أيّام.

– هل تحدّثت معك في شأن يمكن أن تصرّح به؟

– طلبت غرضها، سلّمتني البطاقة وانصرفت.

توقف شرطي، كان يجلس إلى يمينه، عن الضرب على الآلة الراقنة، ثمّ سمح لي المفتّش باستعادة جهازي، قبل أن يُباغتني:

– عُد إلى محلّك وأحضر البطاقة التي سلّمتك إيّاها المرحومة.

ماتت؟ شعرت بتقلّص في رئتيّ وذابت رغبتي في الغناء ذلك اليوم. خرجت بنبضات قلب مُتسارعة، وشعرت بأنّني مددت ساقي إلى أرض زلقة.

كمال

انبريت، في الصباح الرابع بعد الفاجعة، خلف الكونتوار، أنهي مُعاملة زبون فرنسي، في منتصف العمر، مبتذلاً الابتسام واللباقة مثلما تعلّمت في معهد الفندقة الذي تخرّجت منه ضمن دفعة موظّفي الاستقبال، كما تعلّمت منه أيضاً الكياسة وحسن التدبير. وما إن أدار ظهره منصرفاً حتّى تقدّمت إليّ نورة، مرتدية بلوزة بيضاء وبنطلوناً أسود، فأحسست باختلاج في معدتي.

شغلت بالي أيّاماً وليالِيَ، كنت أخطّ اسمها على هوامش كرّاساتي وأستعيد ملمحها كلّما استسلمت إلى فراشي. عندما أبصرتها، أوّل مرّة، قبالة ثانويّة البنات، استحسنت وجهها واهتمامها بشكلها. تبادلنا ابتسامات تخفي ميل أحدنا للآخر، ثمّ تحيّات تترع بالرغبة. واعدتها مرّتين، ثمّ تواريت عن ناظريها من دون أن أودّعها. ظنّت أنّني بخست جمالها، فانغمّ قلبها، لكنّها تفطّنت من زميلة لها (واعدتها هي الأخرى) إلى أنّني تخلّيت عنها، كي لا أغيظ صديقي بشير، فمن المعيب أن يختلي رجل بشقيقة أو قريبة صديقه من دون عقد شرعي. بغَضَت ابن خالتها ولم تكلّمه طوال أسابيع فظنّ أنّ مسّاً

أصابها، قبل أن تكبح عواطفها وتوقن أنّ الحبّ إمّا أن يكون طوفاناً لا يحوّله صخر أو مآله السُلوان.

– منذ متى تعمل هنا؟ سألتني.

– من خمس سنوات.

لحظت أن لا شيء تغيّر في ملامحها، شعرها قصير وثغرها يُشبه قلباً حين تزمّ شفتيها. ترمق محدّثها بصرامة، ولا تحرّك يديها في الكلام كما يفعل الآخرون.

– وأنتِ، ماذا تعملين؟

– مُحامية.

ألقيت عليها سؤالي وأنا أعلم الإجابة، أعرف شقيقها الأصغر، وسبق أن أخبرني ابن خالتها أنّها أنهت دراستها وعملت مساعدة لمحامٍ كهل، قبل أن تفتتح مكتباً لها، بدعمٍ من والدها، الذي يستفيد من امتيازات بطاقة مجاهد في حرب التحرير، تمنحه أولوية في الإدارات والمستشفيات، وفي مجالسة صفوة القوم.

– جئت لملاقاة المدير.

– لماذا؟

قبل أن تتمّ ردّها، تذكّرت مكالمتها وقد نسيت أن أسألها عن اسمها آنذاك. صفعت صدغي براحة يدي، فحرّكت رأسها، من أعلى أسفل، مسبلة العينين، مستغلّاً تلك اللحظة كي أطيل النظر إلى شفتيها، متخيّلاً حرارتهما لحظة التقبيل.

شغلت منصبي في هذ الفندق، المسمّى «الصحراء»، بعدما أُعفيت من الخدمة الوطنيّة، لكوني الذكر الوحيد بين أخواتي. حللت محلّ ستينيّ أدرك سنّ التقاعد، في ذلك اليوم الذي اشتركت فيه نشرات الأخبار في نعي الكوميدي لوي دو فينس. وغدوت محلّ ثقة ربّ عملي، يفوّض إليّ متابعة صفقات شراء سلع وأغراض تخصّ

المطعم أو الغرف أو الحديقة أو المرقص أو المسبح الذي نعيد ملأه مرّة كلّ شهر بصهاريج باعة الماء. حدست أنّ الحظّ فتح لي باب الرزق، بأن أعمل في مكان لا يفصله عن البيت الذي أستأجره، سوى مسيرة نصف ساعة بالسيّارة، لكن منذ مقتل زكيّة أو زازا، اقتديت بالمثل: «أبعد عن الهمّ يبعُد عنك»، مشفقاً على الحاج، لا بدّ أنّ النوم لم يُحالفه بعد ما حدث.

– الله يرحمها.

تحسّرت وأنا أعضّ شفتي السفلى.

– بشير يدفع الثمن بالغلط.

نطقت كلماتها برصانة، ففتحت عينيّ على اتّساعهما. لم أبتلع ما ودّت إيصاله لي، إلى أن علّلت جملتها بأنّه في السجن.

– أتمزحين؟

أرخيت ربطة عنقي، مترقّباً أن تشرح لي أكثر.

– ألم تعلم بذلك؟

لم ألتق ببشير، منذ الخميس الذي سبق موت المغنّية، وقضيت اليوم الذي خرجت فيه روح زازا بين العمل ومكاتب الشرطة، بغرض توثيق شكوى ضدّ مجهول اقتحم بيتي.

هاتفت ميمون في مكتبه وأنبأته بموعده مع المحامية، فتحجّج بكثرة انشغالاته.

– لكنك أخبرتني أن آتي اليوم؟ برطمت نورة.

– الأمر ليس بيدي.

أجبتها وأنا أحبس أصابع يدي اليمنى في اليد اليُسرى، فغادرت مُتأفّفة. وحدّثني صوت داخلي بأنّها تحمّلني إثم عدم التعاون في قضيّة سُجن على أثرها صديق مقرّب إليّ. في تلك الأثناء، غيّر مالك الفندق رأيه إلى مقابلتها، لكنّها كانت قد انصرفت.

حاولت إخماد جمرة الودّ التي أشعلها ظهور نورة المُباغت، فمضغت قطعة شوكولاتة وظلّ رأسي يدور مثل خلّاط بأفكار متلاطمة بعدما علمت بما حلّ ببشير. ماذا يتحتّم عليّ أن أفعل؟ هل يُسمح لي بزيارته في السجن؟ هل أزور أهله؟ كيف يُمكنني أن أُساعده؟ ثمّ سحبت مرآتي الصغيرة من جيب بنطلوني، مُطمئناً أنّ الوجه الذي قابلت به المُحامية لا عيب فيه، وسرحت ببصري إلى السقف، الذي تدلّت منه مصابيح مُسوّرة بدوائر منقوشة بالجبس.

فندق الصحراء هو قِبلة السياح. في هذه المدينة المستلقية بين جبلين، يبدو مكعّباً من الخارج، مع طلاء رمليّ اللون، بواجهة من معمار موريسكي. بناه فرنسيون قبل نصف قرن ورمّمه فرناند بويون، الذي رمّم أيضاً فيلّا فيكتور هيغو، ميناء مارسيليا القديم، وخطّط لمكتبات ومدارس، كما أصدر رواية بعنوان «أحجار متوحّشة»، تدور وقائعها في القرن الثاني عشر الميلادي. يقصد هذا الفندق أيضاً مسؤولون كبار لتمضية ساعات في المسبح، أو للسّهر في مرقصه، الذي ذاع صيته بفضل صوت زكيّة ورقصها.

حين كلّمني عنّها بشير، للمرّة الأولى، ابتسمت وهززت رأسي:

– هل ذهبت إلى ثكنة في نزرامة أم لصيد الغزلان؟

قابلتها وأعجبني وجهها الباسم مثل وجه مضيفة طائرة. لحظت قميصها العريض الذي حجب محاسنها، عرّفتها إلى موظّفي المطعم، سلّمتها مهامها وأبلغتها بمواعيد الدوام، على ثلاث فترات في اليوم، وعلى وجوب أن تهتمّ بهندامها ومظهرها.

– ألا يعجبك شكلي؟

– يهمّني أن يُعجب الزبائن.

لم ترض بصفة نادلة واختلت بالحاج في مكتبه، قبل أن تنتقل إلى الغناء. ولم يلبث أن لامني صديقي بشير عندما علم بنشاطها الجديد.

– قلت إنّها ستعمل نادلة لا عاهرة!

– لست وليّ أمرها.

خفّ غيظه، بعدما أقنعته حبيبته بتقبّل صفتها المُستحدثة، وكثيراً ما تستّرت عليه وهو يتسلّل إلى غرفتها، يقضي معها ساعة أو أقلّ، ثمّ ينسحب مثل طفل خجول. وقد انفطر قلبي حزناً حين علمت أنّ أمّه رفضت ارتباطه بها. هل خلق الله الأمّهات لتشتيت قلوب العشّاق؟

«بلوى»، غمغمت وأنا أطوي ساقيّ تحت الكرسيّ عندما اقترب منّي فوزي بقامته المتوسّطة. فوزي الذي يسترزق من حنطور، عربته من خشب البلّوط ومقعداه من جلد، يركبه السيّاح أو يلتقطون صوراً فيه، ويهزأ به الجميع رغم دماثته عدا زكيّة التي كانت تتّخذه صديقاً لها. تُجالسه أو تسبح معه، رغم ما شاب علاقتهما من تجبّرها عليه كما لو أنّها أمّه. حرص دوماً على كسب ودّها، متجنّباً إغضابها كي لا يرى بصاقها يطير بين شفتيها. كان ما إن يتباطأ في تلبية تكليفاتها، حتّى ينتفخ خدّاها وتنطلق يداها على وجهه، صفعاً أو لكماً. كثيراً ما رأيتها وهي تصرخ في وجهه أو تلوي شحمة أذنه، وبعد ظهر الجمعة الماضي جثم على ركبتيه باكياً حالما علم بما وقع لها. «هل يُمكن أن تُعيد لي علبة أعواد الثقاب؟»، سألني فوزي.

رميت العلبة، التي استلفتها منه لإشعال سيجارة على صدره، فأمسك بها قبل أن تسقط. كنت غاضباً ممّا دار ببيني وبين نورة وتعاملت معه بفظاظة، مع أنّه نوى ملاطفتي، وقصّ عليّ، بجفنين مرتخيين ملوّنين بكُحل حداداً على رحيل زازا، آخر مرّة التقاها

فيها، عندما طلبت منه أن يُرسل شريط كاسيت بالبريد إلى عنوان في الجزائر العاصمة، ثمّ عاد وشاهدها تخرج من مخدع الهاتف، المُتاخم للفندق.

– كانت تبكي.

– مع من تكلّمت؟

– سألتها فلم تجب.

13 سبتمبر

أعادت إليّ نورة شريط فيلم «الشيخ» بوجه متجهّم ولسان يقتصد في اللغو.

– لم يُعجبك؟

– فيلم ظريف.

لم تمتدح ما شاهدت، كي لا تشعرني بأنّني أسديت لها خدمة، فقد تعوّدت ألّا تشكّرني على فيلم اقترحته عليها كي لا أزداد غروراً، كما تقول.

اعتزمت أن تُغادر إلى مكتبها، الذي لا يفصله عن وردة الرمال سوى شارع فرعيّ، غير مكترثة لتعليقاتي على الفيلم الذي عبت على مُخرجه تغافله عن تفاصيل وردت في الرواية التي أُخذ منها، والتي تدور حول شابّة إنجليزيّة، تُدعى ديانا مايو، تولّعت بالشيخ أحمد بن حسن بعدما كانت تنفر منه.

أخبرتني أنّها قضت ليلتها متأرقة، فلم أبال: «تنصرفين من دون أن أتذوّق عسلك». درجت على مغازلتها، بتلك الجملة، قصد نيل قُبلة منها.

تعرّفت إلى نورة، قبل انتحار داليدا بيوم واحد، حين جاءت تطلب فيلماً لمحمد لخضر حمينة قرأت عنه في مجلّة. ولأنّني لم أمتلك نسخة منه فقد اقترحت عليها فيلماً أجنبياً بديلاً منه فأعجبها. راقها كرمي في إعارتها أشرطة من دون مقابل، منتقياً الأفلام التي أحبّها من أجل إطالة النقاشات عنها، كما أعجبتها أحاديثنا عن الجزائر العاصمة التي درسنا فيها لكن في معهدين مختلفين. تلك الأحاديث التي كانت غالباً ما تنتهي بقبلات، ثمّ راحت تستتّر في خلفيّة محلّي، ولا سيّما في الصباح قبل توافد الزبائن، كي تدخّن سيجارة أو اثنتين، وهي تهتزّ من سماع عزفي على القيثارة. يساورني أحياناً أن أطلب يدها وسرعان ما أتراجع مُتعلّلاً بوضعي الماديّ، وهي تستبعد أن ترضى أمّي بكنّة تكبر ابنها: «الأمّهات يردن يافعات مُطيعات طيّعات لهنّ ولأبنائهنّ»، حدّثتني مرّة متحسّرة. لم أنكر كلامها وتمنّيت أن تخفض وزنها وتتلوّن عيناها بالأزرق بدل البنيّ، فقد مللت ملامح نسوة هذه المدينة، المتشابهات، كما لو أنّهن خرجن من رحم واحدة. سمحت لأصابعي في ما مضى بأن تجول في غابتها، وأن أحضنها بقوّة إلى صدري، استجابة لي لا رغبة منها، متمنّعة عن المُغامرة أبعد من ذلك: «عندما أصير حلالك، نفعل ما نشاء».

غافلتها وقرصت مؤخرتها المُترجرجة، فعاتبتني: «قوّاد». تسمو جمالاً في عينيّ كلّما غضبت، لكنّني شعرت بأنّها تطمر شيئاً أو مُستاءة من أمّها، التي طالما اشتكت لي منها، بسبب مراقبتها مواعيد دخولها وخروجها من البيت، عكس أمّي التي لا تسألني أين أذهب أو متى أرجع.

خطت برجلها إلى الخارج وهي تسألني عن أمّي وأحوالها.

– تودّين خطبتي منها؟

– بل أن أطلب منها قطع يدك.

ثمّ أفشت بحاجتها إلى سؤالها عن فتاة كانت تعمل في فندق الصحراء، عُثر عليها مقتولة.

– أمّي لم تُخبرني بشيء.

بل أخبرتني عن نسوة سمعتهنّ في الحمّام العامّ يتحدّثن عن العثور على قبور لم يتعرّف أحد إلى أصحابها.

حدّثتني نورة عن المدعوّة زكيّة زغواني، عن العثور على جثّتها في المرج وقد تأسّست في الدفاع عن المُشتبه فيه.

– سوف أشاورها إن كانت ترغب في الكلام معك.

رويت لها كيف ساقني شرطيّان إلى المخفر واستردادي جهاز تشغيل الفيديو الذي أجّرته للفتاة، من دون أن أعلمها بالشريط الذي وجدته في جوفه، فعادت إلى الداخل.

– هل جاءت زكيّة إلى هنا؟

قدّمت توصيفاً لها وأخبرتها أنّني لم أعرف اسمها حينذاك، فقد سلّمتني بطاقة من وصفته بخطيبها: «اسمه بشير لبْطم».

شرد بصرها، دلّكت عنقها وانطلقت من دون أن تردّ على سؤالي الذي علق في الهواء: «متى تعودين؟»، كلّ يوم أراها فيه أحسّ أنّه يومنا الأخير، مندهشاً أن علمت أنّ الميّتة كانت مُغنّية، ثمّ اختليت بآلتي الموسيقيّة. شغّلت جهاز التسجيل للاطمئنان على أدائي، وارتفع صوتي: «بعد المغارب... نتلملم في قارب... ويطول السهر...»، قبل أن أستلقي على السرير، مستشعراً صعوبة في التحكّم في إيقاع أنفاسي، متذكّراً وجه المجنيّ عليها. أليس الموت راحة؟

حميد

دخلت شقّتي التي فرشت ردهتها بسجّاد ملوّن وعلى حائطها ساعة بإطار فضيّ، ذلك الجمعة الذي صعدت فيه روح زازا، ورأيت زوجتي زينب تجلس على كرسيّ خشبي، في المطبخ، تضع راحتي يديها على ركبتيها، مائلة إلى الأمام تزفر كما لو أنّها أنهكت من عمل شاقّ. تشتكي من الحرّ ومن الذباب الذي لم تنفع معه مُبيدات، منتظرة أن أُفسّر لها مُكالمتي بمنعها من الخروج.

– تُريد تحويل المنزل إلى مخفر!

تقذف تلك الجملة كلّما غضبت أو احتدّ الكلام بيننا.

– وجدنا فتاة مقتولة.

– من تكون؟

– مُغنّية في مرقص.

– لا شأن لي بذلك.

– ومن يضمن ألّا تكرّر الجريمة.

تتملّكني مخاوف من أنّ يداً طويلة تحوم حول رقبتي، إن لم تقبض عليها فستقبض على رقبة واحد من أفراد عائلتي، نظير كبحي شهوات بعض الأثرياء المرتشين.

هممت بأن أشرح لها أنّ الوضع غير آمن، لكنّها عاندت.

– مهمّتك أن تحفظ الأمن لا أن تمنعني من الخروج.

بعدما هاتفتها، تلك الظهيرة التي استنزفت فيها علبة سجائر كاملة، من دون أن أشعر بطعمها، اتّصلت ببوّاب العمارة، التي يُجاورني فيها موظّفو شرطة مثلي، وأمرته بمنعها من تجاوز عتبة البيت، وقد امتثلت.

«أنا زوجتك، لست خادمتك»، قالتها كما لو أنّها تُطلق رصاصة النصر، فبلعت كلماتها من دون ردّ، متّكئاً على باب الثلّاجة المحليّة الصنع، مستحضراً في سرّي مقطعاً لعبد الرحمن المجذوب، الذي أحفظ أبياته مثلما يحفظ المتعبّدون آيات القرآن: «نصبر لتعوس الأيّام/ حتّى يأتي زماني».

لقد زاد بطنها انتفاخاً ومن المُحتمل أن تضع مولودها في غضون أسابيع. اتّفقنا على اسم لمياء للأنثى وثامر للذّكر، ليصيروا ثلاثة أبناء برفقة أمين ونزيم، اللذين أتّما ستّ سنوات وخمس سنوات تباعاً، وقد باتت تُؤنّبهما على أسخف الأمور. منذ استفادتها من إجازة أمومة، تنعر مثل دجاجة تحتضر ولا يسعني سوى تحمّلها. تخاصمني لمُجرّد إبطائي في المجيء من العمل أو عدم إبلاغي عن احتمال تأخّري في السهر، أو بعلّة تقاعسي في أن أوفّر لها موادّ غذائية، غير متاحة في سوق الفلّاح أو في البقالات. هذا آخر مولود أنجبه معها، مع أنّني ابتغيت، في ما مضى، نصف دزّينة أولاد مثل أخي الأكبر، فلطالما تخيّلت نفسي كهلاً محاطاً بأبناء بلغوا أشدّهم، آمرهم فيُذعنون، لكنّ خصوماتنا تحملني على ندم من إنجاب ذريّة معها.

قامت إلى فرن يشتغل بغاز بوتان، لتحضّر كوب شاي، ولمحت تسريحة شعرها الشينيون، عنقها العريض وردفيها المرتخيين تحت بيجامتها الرماديّة التي أهديتها لها في عيد زواجنا الأخير،

فأغمضت عينيّ مُتحسّراً لفتور الحبّ بيننا. بدت لي على النقيض من المحامية حسينة، التي سحرتني بعينيها الواسعتين الملوّنتين بالكحل، فاستحلت مُراهقاً يستجيب لنزواتها، في الإخلال بالقانون قصد معاونتها.

تعرّفت إلى حسينة يوم اقتحمت مكتبي قبل أربع سنوات، تشتكي من تعنيف شرطيّ لها بعد فضّ تظاهرة ضدّ قانون الأسرة. احتشدت نسوة يومها أمام المحكمة، يُطالبن بإعادة النظر في ذلك القانون، الذي لا يسمح للمرأة بالزواج من دون توكيل وصيّ، وفي حال الطلاق يجب عليها مُغادرة مسكن الزوجية ملزمة بمواصلة تربية أبنائها. يُبيح القانون تعدّد الزوجات للرّجل ويسلب المطلّقة حضانة الأطفال إذا ارتبطت بشخص آخر. توقّع أعوان الشرطة أن تنصرف المتظاهرات في غضون ساعة، لكنهنّ أطلن الاحتجاج وعكّرن سير المارّة والسيّارات، فتدخّلوا. وودّت المحامية أن تثأر لكرامتها التي أُهينت أمام زميلاتها.

– ابنة عزّ يضربها شرطي بهراوة!

تكلّفت الاستماع إليها لامتصاص غضبها، مبصراً اتّساع حدقتيها، مُدّعياً أنّني سوف أُحيل الشرطي الذي تجرّأ عليها إلى مجلس الانضباط.

– مضى شهر على صدور القانون ولم تحتجن حينها؟

– أن نتمهّل لا يعني أنّنا نسينا.

– لكنّه قانون وفق الشرع.

– الشرع لم يأمر الرجل باستعباد المرأة، أجابتني.

جاريتها في غيظها ريثما هدأت وتراجعت عن شكواها، قبل أن أعرض عليها لقاءً في اليوم التالي في مطعم النخيل، المُجاور لشركة الكهرباء والغاز، الذي يرتاده أصحاب النعمة، مدّعياً الرغبة في

التعرّف إلى شغلها. جاءت في الموعد، في كامل حسنها، ومازحتها: «كلّ مُؤمن يراك يجب عليه أن يُعيد الوضوء»، فخفضت رأسها تلفّ خصلة من شعرها الأسود حول سبابتها. حين استشعرت أنّ زواجي لا يمنع توطيد علاقتنا، طلبت من صديقي توفيق أن يُتيح لنا غرفة في مُوتيل النور، الواقع على الطريق المؤدّي إلى العاصمة، مُعلّلاً استمرار علاقتي بزوجتي، مثلما يفعل كلّ المتزوّجين، بأنّني أتحمّل واجبي كأبٍ فقط. شبّهتها بإحدى شخصيّات مسلسل «دالاس»، فضحكت: «من الإجحاف مقارنة الأمريكان ببلاد القفار»، وهي تتشمّم رائحة عرقي وتجول بيدها في صلابة صدري، تدلّك أسناني بلسانها، مستلذّة دغدغة شعيرات ذقني. حينذاك، كانت زكيّة قد انتقلت لتوّها إلى المرقص، ولم أشعر في البدء بشيء نحوها. توالت السهرات، فآنست نوراً في عينيها، صفاءً في وجهها، وناراً تجرّني إليها. انقطعت عن مُلاقاة المُحامية ليلاً، مكتفياً بالاختلاء بها نهاراً، وشكّت زينب في وفائي لها فواظبت على استفزازي لعلّ لساني يفضحني لكنّني أحبطت مبتغاها. لم أكتم ميلي للوافدة الجديدة إلى فندق الصحراء، فاكتشفت حسينة أمري. خاصمتني ورفضت الردّ على مكالماتي. بل إنّها قصدت الفندق، ذات مرّة، على أمل مباغتتي مع زازا، ومن حسن حظّي أنّي كنت غائباً ذلك المساء. أرسلت لها باقة ورد إلى مكتبها، فامتنعت عن تسلّمها. وصفتني بالعاجز جنسياً ولم أنكر تهمتها، فقد كنت سرعان ما يدهمني ارتخاء حين مُباشرتها، عجزت عن مداواته بشرب منقوع الزنجبيل، وأرجع الطبيب مشكلتي إلى القلق وضغط العمل. ثمّ تصالحنا، مقتنعين بكبح العواطف والحفاظ على رباط صداقة، عندما توسّطت لها في شطب شكوى رفعها ضدّها مدير شركة المطّاط والبلاستيك، الذي ابتزّته وعابت عليه توظيف أقاربه ومعارفه دون غيرهم.

تحبّ حسينة أن أكلّمها بلهجتي العاصميّة، بكلمات مُفخّمة تحتكّ فيها العربيّة بالفرنسيّة، أن أحكي لها عن القصبة، بأزقتها الملتوية ومبانيها العتيقة، التي وُلدت فيها وكبرت.

– ألا تعجبك «قصبة» مدينتك؟ سألتها.

– تُشبه مغارة زومبي.

يُطلق الناس على المدينة القديمة هُنا اسم «القصبة» أو «القصر»، لأنّها بُنيت على أنقاض قصر يعود إلى القرن الخامس عشر. تتشعّب فيها حارات بمساكن لا تتعدّى مساحة الواحد منها أربعين متراً مربّعاً، متراصّة في ما بينها، شيّدت من طوب وطين وجذوع نخيل وأقواس مزخرفة فوق أبوابها الخشبية، على منوال قصبة العاصمة، الآيلة للانهيار على رؤوس ساكنتها. لا يمرّ يوم من دون أن تتصاعد منها أخبار طعنات بسكاكين أو سرقات، كما حال هذه المدينة التي وصلت إليها، ذات صبيحة مغبرّة، من منتصف أبريل، قبل ثمانية أعوام، حين قارب برميل النفط 35 دولاراً لكنّه تهاوى اليوم إلى 15 دولاراً. هذه المدينة لا يدبّ بشر على أزقتها من دون أن يبصق على أرضها. نسوتها مغلّفات بملاحف بيضاء يعبرن مثل أشباح، وواديها اصفرّ ماؤه ولا يزال أطفال يسبحون فيه، بينما جلودهم تطفح بقيح وفطريّات. أتذكّر تدافع أناس لا يقصّون أظافرهم، وتطير من أفواههم رائحة تبغ، على دعوتي للأكل أو ارتشاف قهوة، تحبّباً وتمسّحاً، ومحاولاتهم استدراجي لخطبة ابنة فلان أو ابنة علّان، قبل أن ينصرفوا عنّي، عندما أبديت صرامة في ردّي عليهم. إنّها مدينة تحفل بالغريب إلى أن يصير مبتذلاً. لا يُضايقني شيء فيها إلّا شحّ مطرها وقلّة صبر أهلها.

لطالما منّت حسينة نفسها بأن يتزوّجها رجل من العاصمة، التي تُشبّهها في مخيّلتها بمدن أوروبية. ترى النساء فيها جميلات، الرجال

مهذّبين، والمباني متناسقة في ما بينها تعلو مداخلها منحوتات من حجر ينبض روحاً. رجل يخلّصها من مناطحة أمّها، التي تثقل عليها بأشغال البيت وتُؤنّبها: «عندما كنت في سنّك، كنت أمّاً لطفلين».

شُغفت في الجامعة بالماركسية وبالجدال في معاني الثورة. كانت تشتم من يُعاكسها ولا تُقسم سوى برأس لينين، ثمّ شعرت بالعمر يتقدّم بها وضاعف ضغط والدتها من ضعفها. فشلت في تعلّم الطبخ من دون أن تملّ من البحث عن رجل يرضى بخطبتها.

هل كانت ستقبل مُعاشرتي لو لم أكن مفتّش شرطة؟ فعملي الذي وصلت إليه، عقب تسلّم أنور السادات جائزة نوبل للسّلام، تلبية لرغبة أمّي لكوني نجل شهيد، وفّر لي حسنات: أتوسّط لها مرّات وأغضّ الطرف عن موكّلين لها تورّطوا في جنح مرّات أخرى. حلمت أن أصير طيّاراً أو قبطان سفينة أجوب البقاع، فضللت طريقي إلى مخفر في إحدى ضواحي العاصمة، قضيت فيه فترة عملي الأولى، إلى أن ساءت علاقتي بعميد الشرطة. انتقم منّي بطلبه من مدير الأمن تحويلي إلى هذه المدينة الجنوبية، من دون أن يدري أنّه أرسلني إلى امرأة تصغرني بعامين، اسمها زينب، كانت ترفل في حسنها. كنت أصادفها في مركز البريد عندما أتسلّم راتبي أو مدّخراتي. استحسنت نسبها ورأيت فيها ربّة بيت عكس أخريات عرفتهنّ. صدّت مطاردتي لها في البداية فزاد شغفي بها. ابتهج والداها أن أصاهرهما فتزوّجتها يوماً قبل أن يضرب زلزال مدينة الأصنام أو الشلف، فردم ناسها تحت الأنقاض. وردمت زينب ذكرى حبيبها القديم، كما أقرّت لي، الذي عجز عن خطبتها فارتحل إلى العمل في شركة المحروقات. مرّت السنة الأوّلى رحيمة، أصغينا فيها إلى معظم أغاني جو داسان. كانت تأوّهاتها في الفراش تبلغ أذنيّ مثل نوتات. أنجبنا بكرنا، ثمّ طفلاً ثانياً، قبل أن يخبو الحبّ بيننا. أمسيت لا أُجامعها سوى على

فترات مُتباعدة، أشعر فيها كما لو أنّني أطأ دمية خشبيّة، من دون تبادل كلام الأزواج أو المحبّين، غير متحمّس لتقبيلها، ولم يفرحني أنّها حملت آخر مرّة. صارت أمّاً فتحوّلت نعومتها إلى خشونة. «الزين للعزبات وليس للأمّهات»، أجابتني يوم استقبحت عدم اعتنائها بشكلها.

أغرقت زوجتي مكعّب سكّر في كوب الشاي وانصرفت، ولم أجد طبخاً أسدّ به رمقي فهي لم تفكّر في حالي. سحبت قطعة خبز من كيس وفتحت باب الثلّاجة، التي علت جلجلتها مثل ضربات طبل، بحثاً عن مربّى المشمش، فوجدت أنّ البرطمان شبه فارغ. أنستني انشغالاتي أن أطلب من ميمون إرسال قفّة ببعض المواد التي نفدت عند الباعة، فمع بدء اختفاء السلع أصبحت أتّكل عليه في الحصول على ما أعجز عن الوصول إليه. يحجز لي كميّة من الضروريات، بأسعارها الحقيقية من دون زيادات.

رحت أمضغ الخبز على وقع ضحكات ابنيّ وهما يلهوان بلعب الليغو في غرفتهما، إلى أن رنّ الهاتف، فظننت أنّ حماتي تريد الاطمئنان على ابنتها، لكنّ زينب نادتني: «مكالمة لك».

هذا أكثر ما يشعل أعصابي. أن يتّصل بي أحد ما، في يوم يُفترض أنّه يوم راحة. حضّرت حالي لأردّ ببرود وأنهي الاتّصال في الحين، إلى أن عاجلني نعيب مُحافظ الشرطة، على الطرف الآخر.

– هل صحيح ما سمعته بشأن المُغنّية؟

– للأسف، نعم.

أطلق كلمة نابية، تعوّدت سماعها منه كلّما تكدّر مزاجه.

– من الفاعل؟

– نشتبه في شخص يسكن جنب المرج.

– لماذا قتلها؟

– كان على علاقة بها واختلفا.

لست مُتأكّداً إن كانت للمُحافظ علاقة بها، مع أنّ زازا نفت صلتها به، فقد شاهدته مرّة واحدة فقط في المرقص، يتبادل ضحكات معها. جلس إلى طاولة، بالقرب منّي، وسحب من جيبه رزمة أوراق نقدية، وطلب من مُرافقه أن ينثرها على رأسها وهي تغنّي. لم يسعني سوى أن أفعل مثله، ولكن برزمة أقلّ قيمة. استحسن ربّ عملي المشهد، ثمّ رفعنا كأسينا كما لو أنّنا صديقان حميمان. لم يعد مرّة أخرى، وعلمت أنّه يقضي سهراته في مكان آخر دون أن أفلح في تحديد موقعه.

شغّلت التلفزيون الذي يتوسّط الصالون، وخفضت الصوت، كي لا أُزعج زوجتي التي تمدّدت في غرفة النوم، والساعة تُقارب الثامنة مساءً. ظهرت مذيعة الأحوال الجويّة على القناة الوطنيّة، خلفها خريطة البلد مع درجات حرارة اليوم التالي، تتنبّأ بيوم تطأ فيه السماء الرؤوس. تلتها نشرة الأخبار التي ركّزت على مزرعة إنتاج بُيوض في تلمسان وتزفيت طرقات في باتنة وغليزان، كما تحدّثت عن اجتماع وزراء دول عدم الانحياز و«مقاومة المُجاهدين الأفغان للسّوفيات الشيوعيين»، فطرأ على ذهني أن أستحمّ لأخفّف من قلقي وأتخلّص من رائحة بدني المتعرّق التي باتت تُشبه رائحة مساجين، حين سمعت طرقاً على الباب وصراخ بوّاب العمارة المُتعكّز على أعوامه الستين: «الرايس... الرايس»، يلهث بعد ركضه إلى الطابق الثالث: «كسروا زجاج سيّارتك وهربوا، كانوا يغطّون وجوههم بأقنعة».

تحسّست بأصابعي قرط زازا، الذي استبقيته في جيب بنطلوني، ثمّ ضممت يديّ إلى عنقي، وأنا أسمع تكتكة الساعة الحائطيّة، موقناً ذلك الجمعة أنّ موتها سيجرّني إلى مصائب.

14 سبتمبر

هوسي بالبحث عن قبر أبي تحوّل إلى هوس بصورة زكيّة، التي لم تُفارق مُخيّلتي منذ أن شاهدتها في شريط حفلة، أهمله مفتّش الشرطة في جهاز تشغيل الفيديو الذي أعاده إليّ. ظنّي أنّه أهمله عن قصد، مترقّباً ردّة فعلي في الأيّام المقبلة. هل يشتبه فيّ؟ لم أعبأ بتخميناته واستملحت صوتها الأقرب إلى ميزو – سوبرانو تشقّه بحّة، وتعوزه مرونة في صعود ونزول سلالم موسيقيّة. في اعتقادي أنّها لم تتعلّم العزف، مقتنعاً بأنّ أفضل المغنّين عازفون، لا تملك أذناً مُرهفة كما لم تتعلّم الغناء سوى قبالة الميكروفون على غرار المغنّين الجدد. لفتتني ثقتها بنفسها، تمايل جذعها وحركات ساقيها إلى الأمام والخلف كما لو أنّها ترقص السامبا. نظراتها الشاردة وحنكتها في استثارة الحاضرين بكلماتها: «... اشطح وانطح وخلّي الدنيا تفرح...»، ممّا أغدق عليها تصفيقات جمهور لم تستدر إليه الكاميرا، قدّرت عدده ببضع عشرات، في مرقص لمعت فيه لمبات ملوّنة. أظهرت الكاميرا وجهها أثخن ممّا بدا عليه حين جاءت إلى المحلّ، ولو أنّني عرفتها قبلاً لأسعفتها في تطوير أدائها. ولم أستفق من خيالها سوى بولوج نبيل وردة الرمال، وقد

عجزت لوهلة عن التعرّف إليه، برغم أنفه الطويل وعينيه الضيّقتين اللتين بدتا لي مألوفتين.

تفرّس في وجهي، ثمّ دنا منّي بالأحضان: «إبراهيم... خويا». طوى حياة التقتير التي عاشها في ما مضى، سمن وابيضّت سحنته. شبّهته بمُذيعي الأخبار ببدلته السوداء ذات الأزرار الأربعة، مع قميصه الأبيض وربطة عنقه الزرقاء، كما كان يجمّل معصمه الأيسر بساعة تبرق كلّما حطّت عليها أشعّة شمس متسلّلة من الفترينة.

– مررت على بيتكم وأرشدتني أمّك إلى هنا.

لم تخفت دهشتي من تغيّر مظهر صديقي، وقد عرفته في ما فات هزيلاً، ببشرة يستقوي عليها حبّ الشباب، ومن شدّة رائحة العرق التي كانت تفوح من إبطيه تعوّدت على نعته بـ«البقّ».

– متى وصلت؟

– أوّل أمس.

قصّ عليّ شذرات من السنوات السبع التي قضاها في باريس، فقد نال أعلى معدّل في البكالوريا، في الجنوب، وحظي بمصافحة رئيس الجمهورية، الذي تكرّم عليه بمنحة دراسة في الخارج. اختار البيطرة وتعرّف إلى مُمرّضة، تزوّج بها وأتمّ تخرّجه، ثمّ «حصلت على الجنسية الفرنسية»، وشوش كما لو أنّه يفشي سرّاً، فتغيير الجنسية يُشبه ردّة عن الدين. جاء بمفرده في زيارة إلى والديه وإخوته الستة، ولمُتابعة ورشة بناء بيت جديد: «كي يستوسع الأهل».

– كيف وجدت المدينة بعد كلّ هذا الغياب؟

– بالكاد أصادف من أعرفهم.

جلّ من عرفتهم أنا أيضاً تشتّتوا. ولم أجد ما أقصّه عليه، مُختصراً الكلام، خافضاً بصري وأنا أمسّد شعري، سوى أنّني تخرّجت في معهد الترجمة، من دون أن أحصل على وظيفة بذريعة مماطلتي

في أداء الخدمة العسكرية، من غير أن أفضي إليه ما أدفعه كلّ ثلاثة أشهر لوسيط بقصد شراء بطاقة إعفاء منها. أخبرته كيف استقررت بعض الوقت أمام مركز البريد، أرقن رسائل لمسنّين يرجون رواتبهم من شركات بناء أو تصنيع عملوا فيها في فرنسا، لكنّ تلك المهنة لم تدرّ عليّ دخلاً كافياً. لم تفدني سوى في شراء قيثارة قديمة، مستسهلاً عمّن لا يستطيع الدفع، وصرت أقضي يومي في هذا المحلّ، بل يحصل أحياناً أن أبيت فيه. لم أغب عنه، منذ وصولي إليه، عدا مرّة واحدة لعارض صحيّ. لم أخف عنه مواجهتي تبرّم أمّي، التي باتت تكره هذه المدينة وناسها وكثبان الرمال التي تطوّقها، وأحلام شقيقي في احتراف الملاكمة، ورغبتي في تمرين أذنيّ على الموسيقى، طامعاً في أن أمتلك أذناً حسّاسة، أعرف بها النوتة المُطابقة لكلّ صوت أسمعه، كما هو دأب كبار العازفين. أغفل أحياناً عن الاستحمام في غياب الماء وأعدّ الأيّام في ضجر، مكتفياً بالاسترزاق من تأجير أشرطة أفلام وجهاز تشغيل فيديو، وما زلت أعرض عن أكل البيض الذي يثير آلاماً في أحشائي، مختلساً المسرّات مع ذوات عيون بنيّة، فلولا قربي من النساء لشعرت بعدم جدوى حياتي.

«خبيث»، علّق نبيل ضاحكاً وهو يجول ببصره بين أركان المحلّ؛ بحائط تملأه جاكيتات أفلام وآخر تتجاور فيه أفيشات وصور ممثّلين، تحرسهم عينا شارلتون هيستون. ولا ريب في أنّه خال، من شدّة اعتنائي بالمكان، أنّه يجود عليّ بمالٍ وفير.

جاهرته بأنّ أجمل الفتيات اللواتي صادفتهنّ قد لقيت مصرعها، وبات من النادر ملاقاة أخريات يتفاخرن بحسنهنّ، خشية أن يتجشّمن فظاظة الكلام.

– كانت لها ابتسامة تشبه ابتسامة كاترين دونوف.

لكن صديقي لم يبد تحمّساً لمعرفتها، نافياً علاقته بالسينما.

– زرني في فرنسا لمُلاقاة المُمثّلات!

قالها هازئاً فاستأثرت جملته بفضولي.

– لِمَ لا!

«حياتي هنا لا تنبئ بالكثير»، وعزمت على أن أسأله عن طرائق الاستقرار في الضفّة الأخرى، قبل أن أتذكّر أنّني لا أملك جواز سفر بحكم أنّني لم أؤدّ خدمتي الوطنيّة، «ربّي يفرّج»، قلت في نفسي، حين دسّ يده في جيب بدلته وسحب منه علبة بنفسجية، احتوت قارورة عطر صغيرة وساعة يد: «اشتريتهما لك»، قال.

سهوت منذ أمدٍ عن الاهتمام برائحة جسمي، وظنّي أنّ العطر سيُغري نورة وتقرّب شفتيها منّي. لحظت أنّ الساعة لا تختلف عن تلك التي يربطها على معصمه، وشعرت بحرج ألّا شيء لي أهديه له إلى أن لمحت رواية «الشيخ» أسفل منضدة الاستقبال. «سوف تستمتع بمُطالعتها»، قلت له.

استسمحني بالمغادرة، ولم أصرّ على بقائه، متفهّماً ضيق وقته في التفرّغ لأهله ومُتابعة ورشة البناء. أجّلت سؤاله عن مُساعدتي في الهجرة وأسندت ذقني إلى راحة يدي، شارد الذهن، أتخيّل شكل حياتي إنْ أفلحت في الوصول إلى باريس، فنساء تلك المدينة «بارعات الجمال واللطافة، حسان المسايرة والملاطفة»، كما قرأت في أحد الكتب، لكن قبل ذلك، عليّ أن أستلّ أجوبة من أمّي بشأن مغنّية الفندق!

نورة

كتبت رسائل إلى موكّليّ، أعتذر فيها عن عدم متابعة قضاياهم، فما حصل لبشير يشغل كامل وقتي، «الخبزة تجي عند فمي وأنا هاربة منها»، تمتمت. أودعتها في علبة البريد الحديدية الصفراء، راجية أن تصل إلى أصحابها، فقد تعوّدت ضياع الرسائل وتنصّل الإدارة من مسؤوليتها، وقصدت الفندق مشياً، منتقية كلمات عتاب في رأسي، أقذفها في وجه كمال، إذا تعذّر عليّ ملاقاة ميمون بلعسل كما في المرّة الفائتة.

مررت حذو سوق ترابًاندو، الذي يفصله مفترق طرق عن فيلّا الرومي، التي خلّفها ثريّ فرنسي ولا أحد يعلم ماذا يدور خلف بوّابتها. علت مدخلها، ذات مرّة، لافتة «محافظة الغابات»، فظنّ الناس أنّ الحكومة تنوي غرس سدّ من الأشجار على مخرج المدينة، يحول دون زحف الرمال إلى الشمال، ثمّ أُزيلت تلك اللافتة، فسرت شائعة أنّ مسؤولاً كبيراً يسكنها في إقامة جبريّة. ولا شيء مؤكّداً سوى أنّ سيّارات ألمانيّة الصنع تلج إليها كلّ ليلة، الذي يراها يُخيّل له أنّ أهل المدينة ينعمون في رفاه لا في فقر، واستمررت في خطّ مستقيم عبر زقاق، يزدحم بالراجلين وبحوانيت أعشاب طبيّة ومحلّ قطع غيار

انتصب أمامه لفيف من المُشترين يتصايحون في هرج، «الحوت يأكل الحوت وقليل الجهد يموت»، قلت في نفسي. وصلت إلى طريق عريض، يتقابل فيه بائعو الخردة والأثاث القديم، وانحرفت يميناً، قبل أن أصادف قاعة سينما «دنيا زاد»، التي شُيّدت قبل ستين عاماً، وقد تحوّلت إلى ملحقة إداريّة، بعد تجديد واجهتها بطلاء أبيض من دون تصليح زجاج نوافذها العلويّة المهشّم. تكتظّ بالموظّفين وبأناس لا يملّون من طلب أوراق شخصية، تعلوها لافتة كُتب عليها: «من الشعب وإلى الشعب». ثمّ مررت أمام كنيس استحال متحفاً لحرب التحرير، بعد إزالة النجمة السداسية التي كانت ترصّع مدخله. شبابيكه خشبيّة مقوّسة، بابه من خيزران، ومصباحه الخارجي مضاء على الدوام مع أنّ الكهرباء تنقطع عن بيوت الناس. بلغت وجهتي بعد مسير قارب ثلثي ساعة، فأحسست ببنطلوني يلتصق بردفيّ من شدّة التعرّق. رأيت سيّاحاً يقفون في المدخل وحافلة في انتظارهم على أهبة الانطلاق. لماذا يصرّون على زيارة هذه المدينة؟ من أجل التنزّه بين كثبانها والتقاط صور تحت نخيلها أم من أجل حاراتها القديمة وشمسها التي لا تغيب؟ من أجل أكل الكسكسي، الزفيطي والشخشوخة أم من أجل نسائها وغلمانها؟ لو قُدّر لي سفر لاخترت بقاعاً حيث المطر والخضرة. هل يفرحهم اختلاس النظر إلى حيوات الذين يعيشون في شقاء؟ تسلّلت بين الأجساد، فلمحت كمال، يجلس خلف مكتبه، من دون أن يُوليني اهتماماً، منغمساً في إتمام معاملات زبائنه. صبرت هنيهة إلى أن رفع بصره، مبتذلاً ابتسامة، اتّسعت معها غمّازتا خدّيه واهتزّ لها قلبي: «دقيقة من فضلك!». أعلم أنّ دقيقة في عُرف الناس تعني مدّة غير مُحدّدة، لذلك استويت على صوفا أترقّب إشارة منه، موقنة أنّه أدرك علّة مجيئي.

طال انتظاري ربع ساعة من دون أن تخفّ جلبة السيّاح وحافلتهم لم تنطلق بعد، فقمت من مكاني لأذكّر موظّف الاستقبال بأنّني لم آت لتمضية الوقت.

هل سيطول الأمر؟ سألته، فرمقت شرراً في عينيه، مقترحاً عليّ أن أطلب عصيراً من بار الريسبشن ريثما يخلص من إجراءات روتينية، كما وصفها. شكرته بلباقة على عرضه وخطر في بالي ألّا أذعن له، فالفتور سمة رجال هذه المدينة، فتورهم يعجّل بنهاية حكاياتهم الوردية وتجاهلهم هو الردّ الأمثل عليهم. تبعت السهم الذي يُشير إلى «الإدارة»، سائرة في رواق بوسطه مرآة حائطية نظرت فيها إلى نفسي مبتسمة كما أفعل كلّما قابلت مرآة، إلى أن بلغت مكتب المدير، فطرقت طرقتين خفيفتين، ثمّ دخلت.

– بونجور.

ما إن عرّفت مالك الفندق بنفسي حتى ترك ما بين يديه من أوراق وعرض عليّ الجلوس.

– قلبي يعتصر منذ سمعت بمقتلها، قال.

خاطبني بصوت رزين، مثل إمام الحيّ وهو يعظ الشباب بالصلاة، وشاهدت تورّماً أسفل عينيه، «ربّما من قلّة النوم مع تقدّمه في السنّ»، خمّنت، مع عروق زرقاء على ساعديه، وسألته:

– هل تشكّ في بشير لبْطم؟

لم يتّهمه ولم يُدافع عنه.

طفقت أطرح عليه أسئلة عن علاقته بزكيّة زغواني، عن شكل حياتها في الفندق، والأشخاص الذين خالطتهم، بينما عيناي تدوران في أرجاء المكتب الذي بدا لي مثل صالون ملكيّ، مؤثّثاً بأريكتين رحبتين من الجلد، لا ذرّة غبار تلوّث أرضيّته، على حائط منه صور لميمون، مرتبّة بشكل مثلّث، برفقة رابح درياسة، مصطفى دحلب،

يحيى بن مبروك، وآخرين من أصحاب مناصب عليا، لا أراهم سوى في التلفزيون أو في المجلّة التي أحرص على مطالعتها. وعلى حائط آخر عُلّقت آية الكرسي مُطرّزة بخيوط ذهبية اللون على قماش حريري أسود. راح يردّ عليّ بهدوء مشدّداً على أنّها كانت بمثابة ابنة له، سعيدة بحياتها، كلّ الموظفين عائلتها، وقد صعقهم خبر موتها.

– بشير يصرّ على براءته.

– العدالة ستفصل.

نقر قلبي شعور بأنّ محدّثي لا ينوي التعاون معي، أو أنّه لا يملك إفادة في القضيّة. لم يوح لي وجهه العريض، الذي لفحته الشمس، بشخص عنيف، فشكرته وانصرفت، متأسّفة على مقاطعتي له في عمله.

– أتمنّى ملاقاتك في ظروف أحسن، قال لي.

شيّعني إلى الباب، وأحسست، من دون أن ألتفت، أنّه يختلس النظر إليّ من خلف.

مررت أمام كمال، الذي أنهى معاملات زبائنه، وقد انسحبوا إلى الحافلة، «ليت المحكمة تستدعيه فيُدلي بشهادة حسنة عن صديقه»، قلت لنفسي، وودّعته مطيلة النظر إليه بابتسام مورّطة إيّاه مع ربّ عمله، الذي هاتفه ناقماً، كما أخبرني في وقت لاحق.

لم أحتمل انتظار سيّارة أجرة وأبصرت حنطوراً، يمسّد صاحبه عنق حصانه البربري الأسود، فأرضيته بمبلغ معقول ليقلّني إلى بيت خالتي، في حيّ 20 أوت، جنب المرج، على الطرف الآخر من المدينة.

عبرنا كنيسة سان فيليب، التي بنيت عام 1931 بالحجارة، ويرتفع فوقها ناقوسان نحاسيّان، ولا تزال مغلقة من سنين، بعد أن اختلف مسؤولو البلديّة في شأن تحويلها إلى مسجد أم إلى ورشة للحرفيين، ثمّ عبرنا مقبرة الشهداء، وصولاً إلى مقهى راحة البال،

وقبل أن نبلغ مركز البريد، سألت الحوذي، ذا الوجه الأملس أكثر من وجهي، عن اسمه:

– فوزي.

خضت في استفساره عمّا يعرف عن قضيّة المجنيّ عليها.

– كانت تعاملني كيما الأخ.

– عندك أخوات؟

حدّثني عن أخواته الأربع، اللواتي يكبرنه ولم يلتق بهنّ من شهرين، رغم أنّهم يقتسمون بيتاً واحداً، لا يعود إليه سوى في ساعة متأخّرة من الليل، بعد أن ينام الجميع ويغادره باكراً، ليتلافى الخصومة معهنّ ومع والديه نظير عدم تقبّلهم له.

بعدما تجاوزنا مخفر الشرطة، وقد علت وراءه، على بعد بضع مئات من الأمتار عمارة العاملين في الأمن، حاولت أن أسمع منه ما يعرفه عن بشير.

– كان يحبّها. مش مصدّق أنّه قتلها.

بصق مرّتين على يساره، وهو يحوذ حصانه، ذا الذيل الطويل الذي يكاد يُلامس الأرض، مُجيباً عن أسئلتي.

– ما دام في الحبس، أكيد عنده دخل فالحكاية.

فهمت أنّ كلامه عصارة شائعات، وكلّ شائعة تضمر حقيقة، حين جانبنا المستشفى، ثمّ استمررنا بشكل مستقيم إلى أن بلغنا وجهتنا، فشكرته.

دخلت حيّ 20 أوت، الذي حفّته أكياس قمامة ونعيق صِبية يتقاذفون بطمي خلّفه انفجار أنبوب يزوّد البيوت بالماء الشروب، يُراودني سؤال: متى أنجب أطفالاً ألاعبهم أو أنهرهم؟ لم يرزقني ربّي سوى القطّة رونة، أداعبها وأفرغ فيها غضبي، بينما فطّوم تترصّد وصولي، فمنذ أن أنبأتها، في اليوم الفائت، بقدومي، بغرض

الاطّلاع على غرفة ابنها لعلّي أعثر فيها على شيء ينفعني في دفاعي عنه، لم يهدأ لها بال. طلبت من زوجها أن يتغيّب عن عمله كسائق لسيّارة الإسعاف، ليتحدّثا إليّ وجهاً لوجه، فهو الذي نقل جثمان زكيّة من المرج إلى المستشفى من دون أن يعلم أنّ ابنه سيتورّط في ما حصل. وما إن أطللت على مدخل الشارع الطويل، ذي البيوت التي ميّزها لون طوب أحمر، حتّى وجدتهما في انتظاري على عتبة الباب. أشعرتني خالتي كما لو أنّ شخصاً عزيزاً يدنو إليها، لا مجرّد ابنة أختها، فلطالما شدّت أذني أو صفعتني على مؤخّرتي في صغري، وهي تُكرّر: «ما يضربك غير اللي يحبّ لك الخير». كثيراً ما شبّهتها، من شدّة خوفي منها، بشخصية «لالة عيني» في مسلسل «الحريق». كان ذلك المسلسل الوحيد الذي أدمنت مشاهدته. كلّ المسلسلات المحليّة الأخرى تتطابق في ما بينها في بداياتها ونهاياتها، وكثرة صراخ ممثّليها.

– جات نورة ومعها البشارة.

تضاعف حرجي أن لا بشارة في الأفق، وجلسنا ثلاثتنا في الصالون، في وسطه طاولة خشبيّة صغيرة تعلوها مزهريّة مزيّنة بباقة توليب بلاستيكية.

– وش حال بشير؟

سألني زوج خالتي، بعينين حائرتين، بينما شاربه يخفي شفته العلوية وشعره الرمادي مسرّح إلى الخلف.

لم أنس صورة ابنهما بوجهه الشاحب ودموعه التي لم يطق منعها، بيد أنّني تفاديت أن أستحضر ذلك أمامهما.

– بخير، قلت.

ران صمت من دون أن أدلي بتعليق آخر، والساعة جاوزت الحادية عشرة. توقّعا أن أحمل لهما خبراً مبهجاً، يقلّل من شجنهما،

كأن أقول إنّهم ارتكبوا خطأً بسجنه أو إنّ القضاء يتّجه صوب تبرئته. لأفتّق الجمود، استفسرت من خالتي عمّا إن كان بشير متعوّداً التردّد على المرج فنفت الأمر.

«ما بقاش على حاله»، تذمّرت فطّوم. كان مقصد العائلات للتنزّه، نهايات الأسبوع، أمّا اليوم «دخلوا ليه ناس ما نعرفوهمش»، ابتنوا أكواخاً لهم، ودبّت مشاجرات بين الجيران والمُقيمين الجدد، أحياناً بالكلام وأحياناً أخرى باللكمات أو بتبادل الحجارة. يتزاحمون مرّات أمام بئر المسجد ويمنعون الآخرين من ملء صفائحهم. يبول أطفالهم تحت الحيطان ويسرقون أحذية مصلّين يوم الجمعة. يبقرون كلاباً متشرّدة، ويلقون بجثثها في مكبّ نفايات فتفوح رائحة تصيب البشر بالغثيان، كما قالت.

عرضت عليّ أن أتذوّق حلويات، لكنّني تمنّعت.

– عملت ريجيم.

لم يُعجبها ردّي فهي مثل أميّ تظنّ أنّ الرجال يحبّون ذات الشحم والبدن العريض، وأحسست أنّ المروحة المعلّقة في السقف ستسقط على رأسي، من شدّة أزيزها واهتزازها، فطلبت منها السماح لي بالاطلاع على غرفة ابن خالتي، فدلّتني عليها.

استغللت اختلائي بها وسألتها:

– نويتِ تزوّجي بشير بابنة عمّه؟

– بصح ما سمعش كلامي.

«لا تتذكّرينني سوى حين المصائب»، كتمتها في صدري، «ألا أصلح للزّواج؟»، سألت نفسي. أفهمتها أنّني أودّ دخول الغرفة وحدي، فسألتني إن كان بمقدورها وزوجها دفع دية لأهل الميّتة وإطلاق سراح ابنهما.

– لا تسير الأمور على هذا النحو.

رأيت بوستر أم كلثوم معلّقاً، يُقابله آخر للفريق الوطني لكرة القدم، قميصان نظيفان مطويّان على منضدة، بجانبهما كاسيتات مغنّين مشرقيين وقارورة عطر، ديوانا شعر غزل وكتاب عن تاريخ الحضارات القديمة، فضلاً عن قلم ووترمان، مع ثلاثة أزواج أحذية تحت السرير. أزحت ثياباً من أسفل الخزانة، فقابلتني رزمة أوراق نقديّة. لو لم يسقط بشير في الخراء لما كشفت عن البحبوحة التي ينعم بها. لم أعثر على شيء لافت فخرجت ووقفت خالتي أمامي، كما لو أنّها كانت تتلصّص عليّ، فهي التي رتّبت الغرفة بعدما غادرها شرطيان فتّشاها يوم توقيفه. سلّمتني قميصاً بنصف كُمّ، لونه أخضر فاتح، تظهر عليه علامة لاكوست.

– لقيته في اللبسة الموسّخة في الحوش، قبل ما يحكموه البوليس.

تراخى ذراعاي وزحف صداع على رأسي. كان قميصاً ملطّخاً بالدم.

همست إليّ متوتّرة:

– رايحين يسجنوه مدى الحياة؟

دسسته على عجل في حقيبتي من دون أن أردّ على سؤالها، عائدة إلى مكتبي، ووسواس يسكنني: هل هو دم زكيّة؟

15 سبتمبر

سيطر عليّ إحساس بأنّ الحبّ أمات زكيّة زغواني. «من المحتمل أنّها هجرت حبيبها، فقتلها»، أنا أيضاً كدت أخنق حبيبتي التي هجرتني في المدرسة الثانوية، لكنّ أمّي فنّدت فرضيّتي وحدّثتني عن خصومة المغدور بها مع مُغنّية أخرى في الفندق: «كانت تغار منها»، حين سمعنا طرقتين خفيفتين على الباب.

وجدت نورة تشخص أمامي، تدسّ رأسها بين كتفيها، خافضة بصرها مُبتسمة. «جئت لمقابلة أمّك»، قالت.

استعجلت المجيء من دون أن تمهلني مُشاورتها إن كانت ترغب في إبداء شهادتها أم لا. استأت من جرأتها، وتمنّيت أن تنصرف في الحين، قبل أن أسمع والدتي تُنادي من المطبخ: «شكون عند الباب؟» فهمت أنّ المُحامية مصرّة على فعلتها، فسمحت لها بالدخول إلى الصالون، الذي لم يكن سوى حجرة ضيّقة، مثل ضيق قلبي بالهموم، منخفضة السقف، تقشّر طلاء حيطانها، وفرشت بزربيّة من نسج يدويّ، على طرفها كنبة تتسع لثلاثة جالسين، بجانبها طاولة بأرجل منخفضة، قبالتها تلفزيون بالأسود والأبيض، نافذتها مغلقة على الدوام حذراً من تسرب الكلام الفاحش من الشارع. وعلى حائطين

منها، تقابلت صورتان: الأولى لوالدي، بعينيه الواسعتين، بشرته ذات السمرة الفاتحة وشاربه الخفيف، والثانية لصبيّ يرفع سنبلة للسّماء، كُتب تحتها: «الأرض لمن يخدمها»، ترويجاً للثّورة الزراعية.

– امرأة جات تشوفك!

ظنّت أنّ واحدة من قريباتها أقدمت على زيارتها، بعدما اقتلعت ضرسها تخلّصاً من ألمه، مع أنّهنّ لا يأتين إلى بيتنا، وتضطرّ للتّنقّل إليهنّ في المناسبات والأفراح، فتركت طبقاً من فخّار، قشّرت فيه حبّات فول. مسحت يديها بفوطة وتوجّهت إلى زائرتها، بقدمين حافيتين كما هي عادتها في البيت. قبّلتها نورة على وجنتيها وكلّمتها كما لو أنّها تعرفها.

– كيف حالك مّا ونّاسة؟

أبلغتها بمهنتها وكانت تلك أوّل مرّة تُقابل فيها أمّي مُحامية، بينما انسحبت إلى رواق البيت، أسترق السمع إليهما من خلف الجدار، من دون أن تتأخّر نورة في إشعارها بحجّة مجيئها.

– ربيّ يرحمها.

التحقت أمّي بالفندق، بعد سنين قضتها في تنقية بلاط دار البلدية. غسلت في البدء الصحون في المطعم، ثمّ تحوّلت إلى منظّفة، تتكفّل ببهو الاستقبال وغرف الطابق الأوّل، بينما تقوم سيّدة أخرى تدعى فتيحة، بتنظيف الطابقين الثاني والثالث، تخشى أمّي مكرها وتتودّد إليها، كي لا تذيع اتّهامها لها بسرقة أغراض سيّاح.

– وش تحكي لي عن المرحومة؟

خشيت أنّ ما تقوم به قد يكدّر ربّ عملها ميمون بلعسل، فحاولت التهرّب من سؤالها، وعرضت عليها أن تُعدّ لها كوب شاي.

– جئت لنتحدّث فقط.

ساد صمت بينهما وساورني أن يحتدّ قلق نورة فتشعل سيجارة وتـدرك أمّي أنّ النسوة يُدخّن في الواقع لا في الأفلام فقط، لكنّها تقيّدت برزانة: «اللي بيناتنا ما يسمع به حتّى واحد».

– خايفة نخسر رزْقي.

– الساكت عن الحقّ لا يرزقه الله.

لم تجد أمّي توصيفاً لزكيّة سوى القول:

– كانت في طريق ما يرضاها ربيّ ولا الملايكة.

أردفت قائلة إنّ القتيلة كانت تُغنّي وغناء المرأة حرام، كما سمعت من الإمام، بينما شائعات تقول إنّها كانت تختلي برجال.

– شفتيها مع رجل؟

– لا.

– شكّك باطل!

– هكذا سمعت.

– ممّن؟

– من خدّامين في الأوتيل.

– لكنّني عرفت أنّها كانت بنت أصول!

– الله وحده يعرف وش في قلوب الناس.

– سبق لك أن دخلتِ غرفتها؟

– عمري ما دخلت.

– شكون قتلها في رأيك؟

– ربّي يعلم.

أحسّت نورة أنّ إفادة أمّي، التي فاح شعرها برائحة حنّاء وطفت هالات سوداء تحت عينيها، لن تنفعها في شيء. رغم ذلك تركت لها رقم هاتف مكتبها، مع علمها بأنّنا لا نملك خطّاً، ونكتفي في مرّات نادرة بالاتّصال من مخادع التليفونات في الشارع، ملتمسة منها أن

تتّصل بها إذا أرادت قول شيء آخر. يمّمت باب الخروج بعد أن لذت بغرفتي، التي لا تسع أكثر من شخص واحد، مؤثّثة بسرير تُحاذيه منضدة صغيرة، تراكمت فوقها كتب وجرائد، جهاز راديو صغير ومنبّه للاستيقاظ، مع خزانة من حديد أرتّب فيها ثيابي، وإلى يمينها زرابيّ منسوجة مكوّرة ومتراصّة بعضها فوق بعض، متظاهراً بتصليح تلفزيوني الصغير، الذي علته شهادتي الجامعيّة مُحاطة ببرواز. رفست خنفساء طار من بدنها سائل لزج، مستفسراً في سرّي: «لماذا أخفت عنها أمّي شكوكها في تورّط مُغنّية أخرى في موت زكيّة؟».

بشير

الثلاثاء

المساجين من حولي يبتكرون قصصاً عنّي.

يقول أحدهم إنّني قتلت جارتي، آخر يظنّ أنّني قتلت أمّي طمعاً في ميراث، وثالث يدّعي أنّني قتلت زوجتي ولا أحد منهم سألني إن كنت متزوّجاً أم لا، وأنا أتحاشى السجال معهم. حاكموني ورفعوا الجلسة، «فمن يقتل مرّة قد يقتل مرّتين»، سمعت أحدهم يهمس إلى صديقه. لا أحد منهم يجرؤ على التلصّص على ما أكتب، في هذا الدفتر الذي دفعت ثمنه إلى الإدارة من المال الذي وهبتني إيّاه نورة، مع قلم بيك يسيل على الورق بسلاسة أقلّ من قلم ووترمان، الذي تعوّدت عليه. لا يثقل عليّ سوى «فارمسيان». بدين بوجه يُشبه ضبّاً، حاول أن يفتك منّي مخدّتي، راغباً في استفزازي لأُعاركه، لكن رحّال أنهى المشاجرة من بدايتها: «تجنّب الاحتكاك بالمحابيس تفادياً للزنزانة الانفرادية». أخذت بنصيحته ومكّنني تدخّله من التقرّب منه، فهو الوحيد الذي صدّق أنّني لست قاتلاً، وقد حُكم عليه بخمس سنوات سجناً، أتمّ منها سنتين. تلطّف أوّل من أمس

وغسل قميصي مع قمصانه أو بالأحرى غمسها في ماء ثمّ بسطها على الأرض إلى أن جفّت. «نحن إخوة»، ردّ عليّ بوجهه الذي تبرق منه عينان مثل فنجانَي قهوة، حين اعترضت. أكثر شيء يُعجبني فيه أنّه لا يُقاطعني حين أتكلّم، يُشبّه حاله بسيّدنا أيوب: «درجت على الاستقامة والصبر»، بينما أشبّه حالي بعيسى: «محنتي فدية عن آثام الآخرين».

الأربعاء

أجد نفسي محشوّاً في حياة تسير ببطء. حرّاس يعبرون الرواق ببطء، يقتحمون باب المهجع كلّ صباح للتأكّد من عدد المساجين بمناداتهم ببطء. يفتّشون كلّ زاوية من زواياه ببطء، مساجين يلهون أو يتخاصمون ببطء، يتمشّون في الباحة وقت الاستراحة ببطء. زمن ثقيل أبطأ من البطء، يقولون إنّ البطء حكمة لكنّه هنا جنون، يورّطني في كوابيس إذا أغمضت عينيّ. هل تعذّبت زكيّة ببطء قبل أن تلفظ أنفاسها أم ماتت ميتة رحيمة؟ فضّلتني على رجال آخرين وظلّت وفيّة، آثرتني على أصحاب مال ومن عرض عليها الزواج، فهل انتقم منها واحد من عشّاقها؟ الحبّ من شأنه أن يعمي الأبصار ويجرّ العشّاق الخائبين إلى أسوأ الأفعال.

الساعة الآن الواحدة ظهراً. كان يُفترض أن أكون في مكتب المُحاسبة في الشركة، أعدّ رواتب العمّال وأجهّز بيانات وجداول العمل، لكنّني محبوس. رحّال يسرد عليّ قصّة مغنٍّ بريطاني اعتنق الإسلام وأنا أصغي إلى كلماته مشتاقاً إلى طعم النيكوتين. تسكنني غيرة منه أن أقلع عن التدخين.

الخميس

وقف رحّال بقامته التي تتعدّى المتر وسبعين سنتيمتراً، في مواساة ثلاثة مساجين انغمسوا في بكاء صامت: «الرجال لا يخافون». لقد عشت ابناً، أخاً، تلميذاً، عاطلاً، متسكّعاً، جندياً، موظّفاً، حبيباً، متفائلاً ومتشائماً، لكنّ الخوف يسكنني أنا أيضاً ممّا سيحلّ بي. لست رجلاً ولن أكون كذلك ما دمت محبوساً. لست سوى بعرة تدوسها الأقدام.

الجمعة

الجريدة أغلى ثمناً من شريحة لحم. أدفع لحارس حفنة دنانير لأقرأ ما جاء فيها وأنبئ زملائي بما يحدث في الخارج، مع أنّ الأخبار تكاد تتشابه، لا فرق بين بداية أسبوع ونهايته: **تسوية ملّفات البناءات اللاشرعية، مكافحة الأمراض المتنقّلة بسبب المياه، الحكومة تحثّ على تباعد الولادات حفاظاً على صحّة الأمّهات...** لا حدث يُثير الاهتمام، لكن فارمسيان، الذي هادنني، كسباً لودّ رحّال، الذي يجلّه الجميع لأنّه أقدمنا في هذا المكان، بدا فضولياً حين تلوت خبر مصادرة مخدّرات في مدينة مُجاورة. شرع يعدّد أسماء أشخاص مُتخيّلاً من منهم ألقت الشرطة القبض عليه، وظنّي أنّه من المخبرين المندسّين الذين ينقلون أخبارنا للإدارة. لم يُثرني سوى مقالة جاء في عنوانها: **المعرض الثالث للحصان في نزرامة.** معرض يُشارك فيه 1300 حصان، منها 840 للفانتازيا و100 لمسابقة تربية الخيل، والباقي للسّباقات القصيرة والطويلة. نزرامة لا تزال تنام في مخيّلتي. مدينة نساء قبل أن تكون مدينة أحصنة. لم يهتمّ صاحب المقالة بقول أشياء كثيرة عنها، لو سألني لقصصت عليه ما يمكّنه من أن يسوّد جريدة بأكملها.

قلبت الصفحة، وشرعت في مطالعة ركن الثقافة. عثرت فيه على أخبار ندوات وكتب جديدة، مع قصيدتين لشاعرين من العاصمة وقصّة مترجمة لكاتب روسي. صفحة الثقافة لا تهمّ أحداً سواي، أقتبس منها جملاً أُضيف إليها ما أحفظه من كلمات أغاني أمّ كلثوم أو من دواوين الغزل، لهدف دمجها في الرسائل التي أكتبها باسم محشوش النيف الذي ينوي بعثها إلى خطيبته.

الأحد

لا أبي ولا أمّي زاراني، مع أنّني لا أرجو ملاقاتهما هنا، ولا سيّما أمّي التي عاديتها في ساعة غضب، بعد أن عارضت ارتباطي بحبيبتي. أتخيّل أنّ ما وقع لي قد يعجّل في تصالح أبي مع عمّي، اللذين تنازعا ميراث جدّي. لم يتحادثا منذ زهاء سبع عشرة سنة. سعت أمّي إلى التقريب بينهما عندما اقترحت عليّ خطبة ابنة عمّي لكنّني قطعت رغبتها مؤكّداً أن لا امرأة تشغل بالي عدا زكيّة.

الاثنين

تمرّست في كتابة اليوميّات منذ سنوات الثانويّة. سوّدت أوراقاً ودفاتر، وآمنت بأن أصير كاتباً لكنّني أخفقت في دراستي. هل يصحّ أن أدّعي الكتابة من دون أن أمتلك شهادة عليا واحدة؟

ظننتني من كثرة قراءاتي أنّني أمتلك أسرار اللغة، لكنّني قضيت أيّاماً كي أفقه لغة السجناء من حولي. ينعتون الحرّاس بـ«الجراد»، كلمة «زيارة» تعني الاستراحة في الباحة، أمّا زيارة ذويهم فيسمّونها «القفّة»، لأنّ أهاليهم يجلبون لهم قفّة أكل. يطلقون على الصابونة لقب «الحجرة»، مع أنّهم لا يستخدمونها إلّا نادراً في غياب الماء.

خسروا حرّيتهم لكنّهم حرّروا لغتهم.

2

أطياف

حميد

أسبوع مضى منذ أن لقيت زازا مصرعها، من دون أن أحظى سوى بمعلومة واحـدة، أفادني بها فـوزي، الـذي يقولون عنه أنّـه وُلَـد بلا خصيتين. فقد شاهدها تخرج، قبيل أن يحلّ أجلها، من مخدع التليفون المُجاور للفندق. طلبت موافاتي بقائمة الأرقام التي جرى الاتّصال بها من ذات المخدع ذلك اليوم، وعلمت من سائق سيّارة المسافرين، الذي يعمل على خطّ نزرامة، أنّها افترت عليه، مُنتحلةً صفة ممرّضة: «كانت تسلّمني مالاً، أضعه في يد أمّها وأنصرف».

عدت إلى المرقص الذي استأنف إيقاعه، غير قادر على محو صورتها من مخيّلتي. أشعر بغصّة أنّها أحبّت رجلاً بتّ أصفه، منذ أن استجوبته بـ«البعير»، نظراً إلى منخريه العريضين. أحلت رسائله العاشقة التي كتبها لها إلى المحكمة مع بطاقة هويّته، مثلما أحلت القرط الذي تمسّك بشحمة أذنها. أعدت البحث عن القرط الثاني في غرفتها بلا جدوى، وجلست إلى طاولة أمسّد سيجارة بين أصابعي، في زاويـة دامسـة، لا تصل إليها الأضـواء الملوّنة التي تملأ وسط الصالة إلّا قليلاً. فتحت زرّ قميصي العلويّ، أكرع من قدح، وقابلني الحاجّ ميمون، الذي يكبرني بإحدى وعشرين سنة ويصغرني بعشرين

سنتمتراً، بعدما شمّر كمّيه وظهر منهما ساعدان نحيفان، غير مُصدّق ما بلغه أنّ المغدور بها كانت مقيّدة في سجلّ المفقودين في أمن بلدتها، نادماً على ثقته بها، مغفلاً التنقيب عن ماضيها: «صدّقت كلامها أنّها كانت ابنة وحيدة من أبوين تطلّقا وتخلّيا عنها»، موصياً موظّفيه بالتستّر وإعلام الزبائن أنّها خرجت في إجازة، مع أنّني أشكّ في قدرتنا على إخفاء حكايتها.

تعود علاقتي بميمون إلى العام الذي وصلت فيه إلى هذه المدينة. نشب حينذاك حريق في مخزنه المُجاور للمرج، الذي يكدّس فيه أغذية موجّهة للبيع بالتجزئة. تلفت قناطير من القمح والحبوب الجافّة، ولم تفضِ التحقيقات إلى معرفة الجاني، مع أنّ صاحب المخزن اتّهم سي ميلود، مُنافسه في تلك التجارة، من غير أن أعثر على قرينة ضدّه، فكلّفت دورية شرطة بحراسة المكان، مُتظاهرة بحفظ الأمن على طريق بالقرب منه، فلم يتكرّر ذلك الفعل، وفتح لي باب الفندق ردّاً للجميل، يسمح لعائلتي بقضاء أوقات في المسبح، أيّام العطل، بلا مُقابل، بل يتكرّم عليهم بما يشتهون من أكل وشرب.

لم يكن المرقص مكتظّاً مثل عادته، فبعض الطاولات لم تجد زبائن، وميمون لم يغيّر الديكور كما وعد الميّتة. لا يزال على حاله ببابه ذي المصراعين، مع منحوتات خشبية على زواياه ولوحات تشكّيلية على حيطانه تروق روّاده من موظّفين ومن أصحاب مهن حرّة. مراوح كهربائية مثبّتة بالسقف تدور من دون أن تجلب هواءً عليلاً، وموسيقى جاز تنبعث من بافلات، تموّه على مُحادثات الجالسين، جلّهم بذقون حليقة، يطوف عليهم النادل خليل، العريض المنكبين، أشقر بعينين صافيتين ووجه نمش.

سحبت نفساً من سيجارتي، متخيّلاً زازا تتقدّم منّي، بعينيها النجلاوين وفستانها الأسود القصير، الذي يفصّل تضاريس جسمها،

وهي تميل إليّ بشفتيها اللتين تطليهما بأحمر لامع، وتبثّ في أذني تحرّكات ميمون وزوّاره، من دون أن تخفي تبرّمها من عملها ونيّتها تغيير حياتها. «كلّ النسوة يحسدنك على المنزلة التي أنت فيها»، كنت أطمئنها.

عرضت عليها، أكثر من مرّة، أن نقضي نهاية أسبوع معاً، لكنّها تمنّعت، ولم أعد أشمّ رائحتها سوى في ساعة اليد، التي أهديتها لها قبل ثلاث سنوات، واسترجعتها من كيس أغراضها عقب رحيلها، أحتفظ بها مثل وثنيّ يحتفظ بصنم. «كانت ضيّاءً يغمر قلبي»، همست بالفرنسيّة وأنا أحرّك قدحي على الطاولة، قبل أن أدير بصري إلى الحاج، الذي لم ينقطع عن التدخين رغم أزمته القلبية الأخيرة، متجاهلاً نصيحة طبيبه بأن يُطلّق النيكوتين.

– كيف حال تجارتك؟

– بخير.

حدّثته عن الطوابير التي تحتشد كلّ صباح أمام سوق الفلّاح، فأبى تصديق ندرة موادّ غذائيّة: «الخير كاين إنّما الناس هبلوا»، يُسرفون في اقتناء حاجياتهم، إيماناً منهم بالشائعات غير مبالين بتطمينات الحكومة، كما قال. رغم ذلك امتعض من خلوّ الصيدليات من أدوية أساسية، وأخبرني عن نيّته اقتناء مضادّات حيوية، أقراص وأمصال.

– تنوي فتح صيدلية؟

– بل مُساعدة الصيادلة.

غمزته في إشارة منّي بأنّني أفهم ما يدور في خاطره: «الزيت يخرج من الزيتونة/ والفاهم يفهم لُغات الطير»، على قول عبد الرحمن المجذوب، مدركاً أنّ مُجالسي لا يطمئنّ باله إلّا إذا بسط يده على كلّ ما يُباع ويُشترى. «ميمون يدخلك في الماء ويخرجك منه ناشف»،

كما وصفته زكيّة، لا يُباريه أحد في الحيل. رغم أنّها أخلصت في مراقبته، لم تحز شيئاً من أسراره، «مصلحته أولى من صحّته»، أسرّت لي مرّة ضاحكة.

بينما راح يخوض في شحّ الأدويـة، دخل شابّ فارع القامة، بشعر أسود طويل، يرتدي قميصاً بنصف كمّ وينتعل حذاءً رياضياً، لم يسبق لي أن رأيته من قبل. جلس بمحاذاتنا إلى طاولة وحده، طلب مشروباً من النادل وصحن مكسّرات، وأنا أحدّق إليه في صمت، ثمّ تذكّرت أنّ ذلك اليوم عيد ميلاد زينب. صفعت جبهتي براحة يدي، واستغرب رفيقي فعلتي.

– أنت بخير؟

– نعم... نعم.

أخـذت موسيقى الجاز تخفت شيئاً فشيئاً والساعة تقترب من العاشرة ليلاً، حين ظهرت الشيخة ذهبيّة، ترتدي بنطلوناً عريضاً حـول الردفين، ضيّقاً في الأسفـل، مع قميص يكشف بطنها، تضع قبّعة صيفيّة على شعرها المصبوغ بالأشقر وتخفي يديها بقفّازين من دانتيل على الموضة. انتصبت خلف الميكروفون. ألقت ابتسامة تودّد، ثمّ انحنت للحاضرين على قلّتهم، الذين صفّقوا لها. عدّلت في جلستي واستويت بظهري على الكرسيّ، كي أستمع إلى أولى أغانيها، فيما لم يمسك ميمون عن مراقبة ما يدور من حوله مثل رادار لا يغفل عمّا يدبّ على الأرض.

«يا لالّة يا تركيّة... وأنا سمعت البندير... لا صحّة لا ذريّة وتعاونيني بالخير...».

ظللت أمـدّ لساني إلى طرف شاربي، أمتّع ناظريّ بصدرها المنتفض، الذي لمع تحت اللمبات. كانت كلّما دارت حول نفسها، ازداد بصري تركيزاً. لم تستثر رغباتي من قبل، لكنّها أينعت بعد

دفن زكيّة. نزعت قبّعتها السوداء فظهر لي أنّ شعرها مستعار وليس حقيقياً.

– محظوظة أنّها نالت مكانة المرحومة.

– كانتا غريمتين.

– ماذا تقصد؟

– كانت الشيخة ذهبيّة تقسو عليها.

«هل كانت مجرّد غيرة نسوان؟»، وقد حسمت أن أهدي لزوجتي الساعة التي استعدتها من مقتنيات زازا، قبل أن يقوم ذلك الشاب الفارع القامة، الذي جلس بالقرب منّا من مكانه، متجشّئاً مثل ضفدع كسول، ثمّ تحاور مع النادل قبل أن ينصرف. أثار المشهد فضولي فناديت على خليل، الذي عبق عنقه برائحة عطر فرنسي.

– هل تعرفه؟

– لا.

– ماذا يُريد؟

– قطع 80 كيلومتراً قصد مُشاهدة زازا الليلة.

نظرت إلى الحاج: «لم يعد المكان يُساوي شيئاً من دونها».

ارتفع صوت الشيخة ذهبيّة وامتزج مع ألحان سانتيسيزور يعزف عليه وافد جديد، أصلع وأنفه طويل.

– من هذا؟

– عزوز.

– ...

– اقترحت عليه فترة تجريبيّة.

– لماذا عابت المرحومة أداء العازف الآخر فرحات؟

– اشتكت لي من أنّه يؤدّي نوتات خاطئة.

لم أقتنع بذلك التبرير، فقد رافقها أعواماً، وأمكنها أن تطلب تغييره في وقت سابق.

– ألا تظنّ أنّها أخفت علّة أخرى؟

– لا أظنّ.

– هل استغنيت عنه؟

– بل طلب إجازة.

«تعرّض لحادث سير بدرّاجته النارية، قرب المرج، ليلة الخميس إلى الجمعة الماضيين»، قال ميمون.

– ليلة مقتل زكيّة!

18 سبتمبر

أخبرتني أمّـي أنّ مالك الفندق يعرف أسماء شهداء المدينة على قلّتهم، لكنّه نفى معرفته ببن قدّور. «من عساه كان يعرف أبي؟»، لم أعثر على جواب، ووصل بوستّة إلى وردة الرمال، يدندن أغنيّة «فات اللي فات» لأحمد وهبي، يلفّ كعادته سندويشاً في كيس بلاستيكي، معتقداً أنّ عينيَّ ستبرقان فرحاً. لكنّني قابلته بوجه كالح، أشرت له بسبّابتي إلى الخروج، ثمّ دفعته بيديّ نحو الباب.

وقف على الرصيف، منتظراً تفسيراً... «وش صرا بريهوم؟»، سألني.

بلغتني شائعات تفيد بأنّ حرق سيّارة صاحب محطّة البنزين دبّره شباب من حيّ أوّل نوفمبر، فخطر في بالي «بوستّة»، أو فضيل، وهذا هو اسمه الأصلي، فهو يُقيم هناك، يحظى بطاعة من هم في سنّه مثلما أطاع الحواريون يسوع. لا أصدّق أنّ تلك الواقعة حدثت في غفلة منه، كما إن صاحب المحطّة هو والد صديقي السعدي، الذي أقرضني مالاً قصد تأجير المحلّ، وبات يقبع في سجن، بعدما أوقفته الشرطة إثر اعتدائه على مُحصّل الضرائب في محلّه.

– تُهمتك باطلة!

تداولت الأفـواه أنّ شجاراً نشب عندما جرّب شخص أن يفرّ بصفيحة مازوت، على متن درّاجته النارية، من دون أن يدفع مقابلاً، فانتهى به الأمر بلكمات من عاملين اثنين في المحطّة، ثمّ عاد وانتقم، فبوستّة هو الوحيد الذي يمتلك درّاجة ناريّة في حيّه.

طفق يُدافع عن براءتـه، لكنّني صممت أذنـيّ، وأنـا أكنس الأرضيّة متأهّباً لبقر بطنه بعصا المكنسة إذا تجرّأ على تخطّي العتبة، رغـم أنّـه ترجّاني أن أسمح لـه بعـرض ما يحمله من حشيش لـذّة لعقول المدخّنين.

– دخّنه وحدك.

لم يطق تلك الإهانـة وهـو يقف على الرصيف، مثل مُصاب بالجرب، نادماً أنّه أعاد لي أشرطة أفلام الكبار متمنّياً لو أنّه حطّمها.

– غدوة نحرق محلّك يا وجه الخرا.

قبل أن يتمّ جملته انطلقت في أثـره، ألـوّح بالمكنسة، أصيح ملء فمي: «والله نقلعلك خصيتيك».

لم أدركه فعدت هامساً: «وزن ذبابة يخوّفني أنا!»، مع أنّني بحاجة إلى والـده المجاهد السابق في حرب التحرير، لينفعني بشهادته فأظفر ببطاقة أرملة شهيد لأمّي. بحت لنورة بتلك الرغبة، فلم تبدِ تعاوناً.

– انفصل أبي عن أمّي ولم أعد ألتقي به.

طلبت منها عنوانه، فنفت معرفتها به. شعرت بأنّها تضمر رفضاً، لكنّني عزمت على ألّا أيأس من مُحاولاتي، مؤمناً بـأنّ تلك البطاقة سوف تحيلني من سَقر إلى جنّة لا أسوار لها، سوف تُعينني في نيل إعفاء من الخدمة الوطنية وتنجيني من ابتزاز ذلك الوسيط الذي يسلبني ما أكسب. سوف تساعدني في تحصيل وظيفة أنشدها أو في تسهيل مشروع تجاريّ أفضل.

«يا نـورة، عمري بين يديك»، حاولت استعطافها، مستحضراً زيارتها لوالدتي.

– سألتني عنك.

– بماذا أجبتها؟

– أنّك شقيقة صديقي.

– لو علم بعلاقتنا لشنقك، قالت ضاحكة.

تكتّمت عمّا علمته عن عداوة زكيّة زغواني مع مُغنّية أخرى في فندق الصحراء، مع أنّني أستبعد أن تُقدم امرأة على قتل أخرى، فالنساء أقلّ عنفاً من الرجال بعشر مرّات. لا بدّ أنّ هناك من تواطأ معها، راغباً أن أنبئها بأن تشرع في تحرّياتها من بيت أهلها، لكنّني بلعت لساني. لا يزال ثمّة شكّ يضغط عليّ في أن بوستّة شارك في الفعلة، فقد بحثت عنه بلا جدوى ليلة الواقعة، وارتبت من إجابته حين سألته عن حجّة اختفائه: «كنت متعباً ونمت باكراً». لعلّه نام باكراً لكن بعد أن أزهق روحاً، جازماً أن أحضّ صديقي تيجاني، مُراسل جريدة «الشعب»، على الإشارة إلى موتها، فقد تشحذ قصّتها، رغم فقر المعلومات عنها، مخيّلة كاتب ويبحث في حياتها.

الشيخة ذهبيّة

اختلست النظر إليها وهي تقف على ناصية الشارع، تترقّب خروجي من البيت مثل لصّ يترقّب ضحيّته، تطيل في ابتسامتها الخجولة وهي تخفض بصرها تارة وتصوّبه نحوي تارة أخرى. لم أكن أعرف اسمها ولا شاهدت وجهها قبل ذلك اليوم. خلت أنّها تنتظر شخصاً آخر غيري وما إن وصلت إليها حتى بادرتني بكلمات تسرف في اللطافة. ظننت أنّها واحدة من اللواتي يعترضن طريقي قصد سؤالي عن أزواجهنّ الذين يقصدون المرقص، فتهيّأت أن أجيبها، كما أفعل دوماً، بعدم معرفتي بروّاد ذلك المكان، لكنّها عرّفتني بنفسها ومهنتها.

– المحامية نورة عرقوب.

علّلت حجّتها في ملاقاتي، فأجبتها:

– الله يرحم كلّ الموتى.

لقد ماتت زكيّة ولم يعد مهمّاً حديثي عنها، بالسوء أو الحسنى، لكنّني ما زلت أحفظ لها خيط وقار نظير حسن معاملتها معي وقربها منّي، في أيّامها الأولى في الفندق، وذلك ما جعلني أذعن لإلحاح المحامية، أن أقبل دعوتها لي في مقهى السعادة، ملتمسة وعداً غليظاً منها بألّا يسمع أحد أنّني تكلّمت معها.

جلست على كرسيّ قبالتي، في ركن قصيّ من المقهى، ولحظت أنّها تكدّس بضعة كيلوغرامات أكثر منّي.

– أجبت في المخفر عن كلّ الأسئلة.

– جئت للإنصات إليك لا لاستجوابك.

تبصّرت شعرها البنّي القصير، عينيها البرّاقتين، وخمّنت أنّها متزوّجة أو مخطوبة، متيقّنة أنّ أعين الرجال لا تغفل عن جمالها. لكنّني لم أر خاتماً على أصابعها ولم أجد مُسوّغاً لطرح السؤال عليها، مخافة أن تردّ عليّ: «كلّ شيء بالمكتوب» أو تصعقني: «ما دخلك!» أو تتحسّر لكونها مطلّقة، فأجد نفسي في حرج أمامها، من دون أن يكفّ نادل المقهى عن الطواف حول طاولتنا، ملمحه حادّ وشعره كثيف مسرّح إلى الخلف ذكّرني بكمال، موظّف الاستقبال في «الصحراء»، الذي لا أحتمل قلّة حيائه وقسوته في تعامله معي ومع الموظّفين، كلّما رأى اثنين يتهامسان شملهما بنظرة غاضبة، ظنّاً منه أنّهما يتحدّثان عنه. يتطاول في غطرسته منتفعاً من تشاركه مع الحاج ميمون في العشيرة عينها. كلّما صادفته أبادره بالتحيّة، من دون أن أتوقّع استجابة منه، وإن ردّ فإنّما يردّ من طرف لسانه كما لو أنّه يشقى في لفظ كلمة بين شفتيه. يُعاملني كما لو أنّني ارتكبت جرماً ولم أره يتلطّف سوى بالسيّاح الأجانب، فيقبض منهم بقشيشاً بالعملة الصعبة.

– ما هو اسمك الحقيقي؟

– صفيّة بشيش.

– عمرك؟

– سبعة وعشرون عاماً.

طلبت نورة عصيراً وكرواسون واكتفيت بكوب شاي، متفادية أن أظهر مثل فتاة مُشتهية أمامها، فقد تعوّدت على العوز. على

خلاف الضحيّة، التي حظيت بإقامة كاملة المصاريف في الفندق، تأكل من المطعم وتنعم بماء المسبح، لم يكن مسموحاً لي المبيت. أكتفي باستغلال حجرة ضيّقة في الطابق الأرضي، لتغيير ملابسي عند الحاجة، مُجاورة لغرفة تغيير ملابس رجاليّة، وعليّ أن أدفع ثمن الأكل إذا رغبت فيه. مزّقت معدتي بسندويشات البطاطا المقليّة، التي أشتريها من محالّ تقع على أطراف الأحياء الشعبية، وكثيراً ما لعنت ميمون في سرّي، الذي فضّل زكيّة عليّ، لأنّ أمّي مُجرّد منظّفة وأمّها لا تمتهن ذلك الشغل الشائن؟

– منذ متّى تعملين هناك؟

– منذ خمس سنوات.

طلبت منّي، بنبرة رصينة، أن أحكي لها عن حياتي، وقد جدّدتُ لها طلبي ألّا يسمع أحد أنّني أدليت لها بإفادتي، ملقية نظرة فاحصة على عيني مُسائلتي، فلمحت دفئاً فيهما، ثمّ خفضت رأسي، فلحظت أظافرها المطليّة بالورديّ. «حياتي لا تختلف عن حياة أيّ امرأة عاديّة»، أخبرتها.

أصرّت على طلبها بلطف، وهي تنظر بفضول إلى يديّ المغطاتين بقفّازين من الدانتيل، كتفيّ العريضتين، شفتيّ المصبوغتين بلون زهريّ، مع أحمر خدود، ورموشي مرسومة بلون غامق. شبّهت صوتها بصوت ابنة عمّي مليكة الخيّاطة، التي حازت سمعة حسنة بين العرائس، وعلّمتني كيف أحافظ على نعومة بشرتي بخلطات أعشاب من دون أن تملّ من اختلاس قبلات من شفتيّ. عدّلت شريط حمّالة صدري، الذي أطلّ من تحت قميصي الصيفي الرمادي. أزحت خصلة نزلت على عيني اليمنى، ودفعت قدميّ تحت الكرسيّ، مسرورة بتعرّفي إلى شخص يستمع إليّ، فملأت رئتيّ بالهواء وشرعت من يوم ميلادي. فتحت عينيّ على أبٍ لا ينطق سوى حين يغضب، فيصفع

أمّي أو يركلها أو يشدّها من شعرها أو يلقي صحناً أو ملعقة على وجهها، وفي الليل تختلط همهماتهما في غرفتهما، مطيعة له كما لو أنّها طفلة وهو والدها. ثمّ وُلد أخي الأصغر لُطفي ولم أتعدّ السادسة من عمري، من دون أن يتغيّر سلوك أبي مع أمّي، بل بات يعنّف أخي الأكبر مُقداد أيضاً، الذي لم يكن يتوانى عن غرز أظافره في وجه أبي. دخلت المدرسة وصاحبت صديقات، انفضضن مع مرور السنين. تطوّعت في جمع ملابس مستعملة لأطفال فييتنام ثمّ التحقت بالكشّافة الإسلامية، حيث تعلّمت الضرب على الدربُكة ودرّبت صوتي بترديد أناشيد وطنية ومدائح دينية. يوم بلغت اثنتي عشرة سنة، كررت في الصباح قصيدة «يا قلبي خلّي الحال يمشي على حاله»، كما غنّتها فضيلة الدزيرية، وفي المساء عاد أبي كعادته من شركة المطّاط والبلاستيك، التي بناها يوغسلافيّون، فلم يستحمّ ولم يغيّر ثيابه بل ذهب إلى فراشه فوراً، فأغمض عينيه، ولم يستيقظ بعدها. سمعت أمّي شخيره قبل أن تدهمه سكتة قلبية. هجرت الدراسة، لأنّني لم أحبّ المعلّمين ولم يحبّوني، أغدقوا عليّ بأصفار وبضربي على أطراف أصابعي بعصا خشبيّة. امتهنت حلاقة النساء، لكنّني لم أطل المكوث فيها. ثمّ علمت عندما كبرت أنّ غضب أبي في البيت نجم عن معاقرته الخمر. «كان يشرب باش ينسى المحن»، نبّهتني أمّي، التي استحالت مُدافعة عنه عقب رحيله، «المرأة الصالحة تطيع زوجها في حياته وبعدها»، قالت لي.

– هل تُحبّين أمّك؟ سألتها.

لا أراها سوى شبح يطوف البيت، تطبخ، تنظّف وتختلي إلى نفسها بالدعاء والشجن. تشعرني كما لو أنّني مجرّد ضيفة لا دم يصل بيننا. لست أذكر متى قبّلتني، آخر مرّة، أو حضنتني. لست متأكّدة من لون عينيها ولا تستحق أن أنعتها بـ«ستّ الحبايب» كما نعتت

فايزة أحمد أمّها، بل إنّها غابت عنّي يوم انقلبت حياتي وقد بلغت الرابعة عشرة من عمري. أرضعتني الضجر واتّخذت من وحدتي أمّاً لي.

لم أستطع أن أكبت دمعة باغتتني، فرغم كلّ هذه السنين وتواليها، ما أزال أحنّ لأمّ تعطف عليّ، كلما صادفت امرأة في سنّ أمّي، ألحّت عليّ رغبة في أن تحضنني وتنسيني شقاء صغري.

– أن أحبّها أو أكرهها فلن يتغيّر شيء من حياتي ولا حياتها.

ثمّ عضضت شفتي السفلى، أحنيت رأسي وحرّكته يمنة ويسرة، أغمضت عيني هنيهة شعرت فيها بأنّني أغرق في بئر، وكتمت في حنجرتي ما وقع لي تلك الظهيرة، عندما أتممت الرابعة عشرة من عمري.

غافلني ذلك اليوم مُقداد، الذي يكبرني بأربع سنوات، فارع القامة بشعر أسود، وأنا أكنس أرضيّة الصالون. طوّقني بذراعيه من خلف مثل أفعى تطوّق ضفدعاً، فالتفتت إليه بابتسامة بلهاء، أترجّاه أن يبتعد عنّي، متمنّية أن يحدث الباب صريراً وتدخل أمّي، التي توارت في بيت الجارة برفقة أخي الأصغر، تنفّس عن همومها. ظننت أنّه يُمازحني ولم أعرف كيف أصدّه، فقد تربّيت على طاعته. قاومت وعويت، ركلته لكنّه لم يُبال، عيناه كانتا تشبهان عينَي أبي حين يغضب. لم يحدث الباب صريراً وأمّي لم تعد. صار أخي عدوّي وأسرعت إلى الحمّام أتقيّأ، ألقي دلاء ماء على بدني وطالت غيبة أمّي. بلغ أذنيّ صوت مذيع الراديو ينعى أمّ كلثوم ونعيت ثقتي بأهلي. شعرت بأنّني كبرت عشر سنوات وخرجت من جسمي رائحة حامضة لا تزال تُراود أنفي كلّما تعرّيت للاغتسال. ظننت أنّ سرطاناً سوف يصيبني أو مرضاً خبيثاً آخر، والتمس مُقداد عفوي لكنّي عجزت عن النظر في وجهه في الأيّام التالية، متحمّلة نزفاً متقطّعاً.

كلّما استحضرت اسم أو صورة أخي الأكبر، يفترسني فزع يُحوّلني إلى ثور هائج. لم أنس منذ ذلك اليوم أن أخبّئ سكّيناً، في جيبي أو في حقيبة يدي، كلّما نويت مقابلة رجل على انفراد.

– لا توجد أمّ لا تُحبّ ابنتها، قالت المحامية.

– الأمّهات لسن مُتشابهات.

تقضي أمّي فتيحة أيّامها في تنظيف غرف في الفندق، في الدعاء بعينين شاردتين، وصبّ سخطها من عاملة نظافة أخرى تدعى ونّاسة، تتّهمها بالسعاية والإشراك بالله وبمضاجعة سيّاح مقابل بضعة دنانير. أتمّت الخمسين من عمرها وأنا أودّ مُصارحتها بمن مزّق سرّي، لكنّني أخشى ألّا تصدّقني. لم تتكرّم عليّ سوى بنهدين يسرّان الناظر، لم أحتج إلى تكبيرهما بأقداح كما تفعل أخريات، ولا أحفظ عنها سوى حسنة وحيدة أنّها أرشدتني إلى «الصحراء»، بعدما فشلت في امتحان الباليه الوطني. عملت في أيّامي الأولى في المغسلة، ثمّ انتقلت إلى المرقص حال افتتاحه. صبغت شعري وتكنّيت بالشيخة ذهبيّة، فالشعر الأشقر يتناغم مع الأنوثة أكثر من الأسود المرادف للحزن، كما كانت عليه زازا. لم يخطئ ذلك الأميركي أن عنون فيلمه «الرجال يحبّون الشقراوات»، ألم تصبغ داليدا شعرها بالأشقر فتضاعف عدد محبّيها؟ كما أعلمتني مليكة التي تغيّر صبغة شعرها كلّ فصل. أقنعت ميمون بصوتي وتجربتي في فرقة الكشّافة، دونما اعتراض من أمّي، التي خمّنت أنّ وجودي في ذلك المكان سوف يتيح لي العثور على زوج، بعدما امتنعت عن الاقتران بمسؤول التنظيف الهادي، الذي تساقطت أسنانه، بداعي فارق السنّ.

حين ناهز أخي الأكبر الثالثة والعشرين، التحق بشركة المحروقات في أقصى الجنوب، بعدما فشل في خطبة فتاة، مكلّفة بصرف رواتب الموظّفين في مركز البريد، بسبب انتمائنا إلى عشيرة

أقلّ شأناً من عشيرتها. واظب في البدء على زيارتنا بين الفينة والأخرى، ثمّ تباعدت زياراته إلى أن انقطعت، ولا سيّما بعد زواجه وإنجابه ثلاثة أطفال.

– وأخوك الأصغر؟

أتذكّر أنّني ظللت أناديه «بيبي» إلى أن بلغ السابعة من عمره، كنت ألاعبه وأحضنه كما لو أنّه دمية.

– إنّه في السجن.

تُفضّل أمّي أن يُعتقل على أن يُطلق سراحه فيملأ البيت صراخاً، مهدّداً إيّاها بسكّين إذا رفضت أن تُسلّمه بعض راتبها. مرّات يقول إنّها ليست أمّه، ينكر صلته بها، لكنّه لا ينكر صلته بي.

– هل يُضايقك أنت أيضاً؟

– لا.

حاول أن يتسلّط عليّ، يرقب مواعيد خروجي من البيت وعودتي إليه، يسألني أين أذهب ويزجرني إذا تأخّرت في المساء. استنكر سفوري لكنّني رددت على شتائمه بمثلها، رسمت له حدوداً لم يتخطّها، «أنا أخت لك في الدفتر العائلي فقط»، صرخت في وجهه مرّة.

– لماذا سُجن؟

– بسبب عمله.

– ماذا يعمل؟

– صيدليّ.

خالت أنّه زميل لأخيها غير الشقيق المسمّى جلّول، الذي يملك صيدلية قرب المسجد الكبير، كما قالت لي.

– بل صيدليّ على الرصيف.

أدركت أنّها لم تفهم قصدي، فأسهبت أشرح لها أنّه يقتني علب أدوية، موجّهة للمرضى العقليين، بوصفات طبيّة مزوّرة، يبيعها بالحبّة للمُدمنين. يتوصّل أحياناً إلى سجائر أجنبية من بعض المُغتربين، لا يبيعها لزبائنه العاديين، بل يخصّصها لأشخاص مرموقين.

حين علم حميد، بعدما استدعاني إلى المخفر، أنّ لُطفي الملقّب «فارمسيان» هو شقيقي، اختصر أسئلته لي. طلب منّي توصيف آخر لقاء لي بالقتيلة، حين صادفتها في مدخل الفندق، فتبادلنا نظرتين باردتين، ثمّ أدارت بصرها عنّي وبصقت على الأرض. «لم تقل لك شيئاً؟»، «لا»، بصمت على محضر استماع وسمح لي بالانصراف.

بدت لي نورة امرأة سويّة، فقد ارتضيت مصارحتها بما أعرف لأنّها غريبة عنّي، ليست من بيتي ولا من وسطي المهني، كما راودني أنّها لا تنوي شرّاً لي. لكن لماذا لا تحمل خاتماً على بنصرها؟ هل غارت منها أخرى وخطّت حرزاً يصرف الخاطبين عن طريقها؟ أم هي تمقت الرجال مثلما صرت أمقتهم؟ فأنا لا أصادف سوى عُزّاب مُنهكين من العادة السرّية، يصفّرون لي أو يلقون لي كلمات وقحة في الطريق أو يُحاكون صوت ضراط بأفواههم خلف ظهري. «زبل»، أردّ عليهم في سرّي وأمضي. العازف فرحات كان الوحيد الذي أحببته، رغم رائحة عرقه القويّة. فرحات عديم اللقب، الذي تربّى في ميتم قبل أن يتبنّاه إسكافي لم يُرزق بأولاد، هجرني بعدما اكتشف أنّني لست بكراً. لأنّه ابن فاجرة يظنّ أنّ الأخريات مثل أمّه! مع أنّه ينفي التهمة عن والدته، يقول إنّ ملاكاً زارها في منامها فصار جنيناً في بطنها، لكن فوزي صارحني، مشفقاً على انفطار قلبي، أنّ زكيّة هي من حرّضته على تركي، «ديما يطبّق وش تقوله».

– متى تعرّفت إلى المرحومة؟

– منذ مجيئها إلى الفندق.

عندما شاهدتها، أوّل مرّة، تلبس سالوبت زرقاء، بوجه دمث، بعد نهاية دوامها في المطعم، ارتحت لها. تقاسمنا أسرارنا الصغيرة، واشتكت لي ما كابدته من قسوة والدها معها، طيفه الذي اندسّ في كوابيسها، وكلماته تتردّد في رأسها بأنّها فتاة فاشلة، بينما أنا أخفّف عنها، أتكفّل بنقل رسائل بشير إليها في لحظات تباعدهما، أتجسّس على ما جاء فيها وقلبي يشتعل غيرة منها. تمنّيت رجلاً مثله، شغوفاً بمن يحبّ، وفيّاً للمرأة ومتفهّماً لها في تقلّباتها. لكنّ قربي منها لم يمنعها من معاملتي مرّات بخشونة، كما لو أّنها وليّة أمري، كانت تظنّ أنّها على حقّ في كلّ شيء. تشتعل غضباً إذا خالفها أحد في رأي أو تقوّل عليها. وعندما صادفتها تقف جنب ميمون، في حديقة الفندق، تمسح شفتها العليا بلسانها وتُطلق ضحكات مكبوتة، خلت أنّها أضحت من محظيّاته. ساعدتها في بداياتها في الغناء، ثمّ سرقت منّي مكانتي كنجمة أولى في المرقص، بل عابت أدائي، فشبّهتها تارة بالزرزومية وتارة أخرى بالأفعى تنفث سُمّها على من يُنازعها مرتبة أو شرفاً، مقتنعة بأنّ بشير سيندم على إيثاره لها.

– كيف تلقّيت خبر موتها؟

– ما زلت حزينة.

عندما سمعت بالنبأ، عاجلني دمع. لكنّني لم أخبر المحامية نورة عرقوب بالحقيقة كاملة، أنّني لم أغفر للفقيدة أن فرّقت بيني وبين فرحات، فعندما أبلغتني أمّي، التي تُعنى بتنظيف غرفتها، أنّها رأت فستاناً أبيض معلّقاً في دولابها، ظننت أنّ موعد زفافها من بشير اقترب، فخططت رسالة باسمه، على عجل، حاكيت فيها أسلوبه، أودعتها تحت باب غرفتها، على أمل أن أحرّك خصومة جديدة بينهما. لم أتخيّل أن يغضب فيقتلها. أعلمتني فتيحة في ما بعد أنّها

عثرت على الفستان ذاته في مقطورة القمامة، الرابضة خلف الفندق، لم يكتشف أحد فعلتي لكنّ الشعور بالذنب لم يُفارقني. تبع فرحات خطواتي، في اليوم الذي أعقب مصرع زازا، وأنا أخرج من حيّي في القصبة أو «القصر»، الذي شاع ذكره بغلاظة أهله، راجياً مُصالحتي بصوت ذليل. «من غدوة تولي لمقامك في الأوتيل»، «بصح ما نوليش ليك»، وانصرفت مبتعدة عنه، راغبة في الابتعاد عن المرقص أيضاً، فمنذ أن وصلت إليه تعلّمت الكذب، أكذب على روّاده بابتذال الابتسام والظهور بمظهر الفتاة اللبقة المنطلقة إلى الحياة. أتقمّص دوراً غير دوري كلّما هممت بالغناء، مع أنّني أشفق على الرجال الذين يأتون هناك، يلحسون صدري بأعينهم، ينثرون أوراقاً نقديّة على رأسي، يصيرون مثل أطفال وهم يملؤون عقولهم بالشرب لعلّهم ينسون حرمانهم أو فشلهم مع عشيقاتهم أو زوجاتهم.

سحبت قفّازيّ من شدّة الحرّ، فظهر الالتهاب الذي زحف من أصابعي إلى معصمي، الذي داومت على إخفائه من أسبوعين، متأفّفة من أنّني لم أبرأ منه، واحتدّ غضبي من نفسي أنّني سبب في ما حصل لزكيّة.

«كانت تغار منّي»، قلت. عددت وأنا أحكّ حاجبي الأيمن الذي علته شامة فضائلي التي أتفوّق بها عليها، فأنا ابنة المدينة. أبي وأجدادي دُفنوا هنا، بينما هي غريبة عنها. أتفوّق عليها في طبقاتي الصوتية، فالضحيّة علقت في الميزو – سوبرانو، فيما أنا أقفز من سوبرانو إلى ميزو سوبرانو، كما تعلّمت في الكشّافة ومن الاستماع إلى أشهر المطربات. صوت الميّتة كان أجشَّ، يطلع من حنجرتها فقط، على خلاف صوتي الذي ينتقل من رخيم إلى أجشّ، طالعاً من أعماق أحشائي. أحفظ أغاني وردة الجزائرية وأحلم بلقائها مثلما أحلم بالغناء في الإذاعة أو التلفزيون، بينما هي لم تكن تعرف إلّا القليل من

الفنّانين. لم يخطئ والدها أن نعتها بالفاشلة، بينما والدي لم يهتمّ بحالي إطلاقاً. لم يكن يعرف إن كنت ناجحة أم فاشلة. وظلّت نورة ترصد حركاتي، ولا سيما حركات أصابعي.

– لا يغار سوى من مات قلبه.

– لا قلب لها.

– ماذا تقصدين؟

أعجبت المرحومة مرزاقة سوالم، التي نفت المحامية معرفتها بها، بصوتي ونوت التوسّط لي قصد الغناء في ملهى يتقاطر عليه كبار المسؤولين، في وسط المدينة، على أن أتقاسم معها الأرباح. لكنّ زازا احتجّت وضغطت فنابت عنّي، علماً منها بأنّ ذلك المكان يغدق عليها خيراً وفيراً.

– أين يقع؟

– وحدهما مرزاقة وزكيّة كانتا تعرفانه.

داعبت سلسلة فضيّة تدلّت من عنقي، وأردفت:

– منذ أن صارت تُغنّي هناك، نشبت خلافات بينها وبين مرزاقة.

– ألم تشكُها إلى ميمون بلعسل؟

– ما أعرفه أنّ زكيّة قتلت مرزاقة ولم تنتحر بالقفز من شرفة غرفتها كما يُشاع.

جريدة الشعب، 19 سبتمبر 1988

أخبار الجنوب

العثور على جثّة فتاة

عثرت مصالح الأمن، قبل عشرة أيّام، على جثّة فتاة في الرابعة والعشرين من عمرها، ملقاة في مرج، على طرف المدينة، ولم

تصدر الجهات المعنيّة بياناً لحدّ الساعة، مع ذلك أفادنا مصدر مطلّع، رفض الكشف عن هويّته، أنّ الضحيّة تُدعى (ز.ز)، كانت تعمل في فندق الصحراء، وتنحدر أصولها من بلدة نزرامة، قُتلت من جرّاء ضربة بآلة حادّة على قفاها. بينما باشرت المصالح المختصّة تحرّيات مع العاملين في الفندق ذاته، لا نستبعد أن تكون الضحيّة قتلت غدراً في ذلك المرج حيث ينشط مشعوذون عُرفت عنهم سلوكيات خشنة، يتهافت عليهم رجال ونساء من مختلف الأعمار. والجدير بالذكر أنّ هذه الجثّة الخامسة التي عثر عليها أمن المدينة، منذ مطلع العام، بعد عثوره على جثّة ستيني انتحر في بيته، جثّة رضيع في مكبّ نفايات، جثّة عشريني دهسته سيّارة وفرّ سائقها، ثمّ جثّة طفلة غرقت في إحدى برك الوادي.

تيجاني خرمام

بشير

هتف سجّان باسمي، فصوّب من كانوا حولي أنظارهم إليّ.

تقدّمت بقامتي المتوسّطة متثاقلاً، أحسّ أنّ وزني قلّ بينما عاد شعري للنّمو. صفعت خديّ كي يعود الدم إليهما، وفركت عينيّ، اللتين لم أغمضهما إلّا لماماً في الأيّام الماضية. لا أنام سوى بضع ساعات أو أقلّ، أستفيق منها مفزوعاً، أرشح بالعرق، من كوابيس أو من هرج مساجين أو مُداهمات الحرّاس. أمنيّتي أن أبتلع حبوباً لأغطّ في نوم أهل الكهف. فمنذ أن دخلت السجن شعرت بأنّني دخلت قبري. ما إن خطوت خارجاً حتّى بلغني صوت محشوش النيف ساخراً: «ناس عندهم أهل وناس مقطوعين من شجرة». لم أعر كلامه اهتماماً فقد قطع غصن العشق الذي وصلني بزكيّة وكانت كلّ أهلي، كما لم أهتمّ بسؤاله عن اسمه لكنّني علمت أنّه متّهم بإضرام نار في بيت جارته المطلّقة، ظنّاً منه أنّها تُمارس البغاء، مُخلّفاً جروحاً بالغة لرضيعها. مشيت في الرواق الطويل، خلف السجّان ذي الشفتين الغليظتين، كشفتَي البوهالي، الذي ختنني في السادسة من عمري بمقصّ يشبه مقصّ جزّ الصوف. وبدل أن يستدير يميناً، إلى الغرفة التي قابلت فيها ابنة خالتي، استمرّ بشكل مستقيم ثمّ استدار يساراً. ولجت

بهواً يفضي إلى عازل زجاجي. أبصرت مساجين أخرجوا من الزنزانتين الأخريين، يقفون في صفّ أفقي ويديرون ظهورهم. على طرف الصف زاوية خالية، عثرت فيها على جهاز أنترفون، وما إن رفعت رأسي حتى قابلتني أمّي خلف العازل وهي تضغط السماعة على أذنها. «مّا»، صرخت. لكنّها لم تسمعني. لم أتمالك نفسي راغباً في القفز إليها. أن أعانقها. أبهجني أنّها غفرت استياءها منّي وسحبت السمّاعة متلهّفاً، أسألها عن حالها وعن والدي وإخوتي وهي تطمئنني عليهم.

وصلني صوتها خافتاً، وقد نالت رخصة زيارتي من المحكمة التي رافقتها إليها ابنة خالتي.

– أنا بريء من التهمة.

– قدّر الله وما شاء فعل.

ردّت بنبرة مهزومة، فهذه المرّة الأولى التي تزور فيها السجن، وحرج يعتريها، ليست تعرف كم ستتكرّر زياراتها لي. أقاربي الآخرون لا يصدّقون أنّني مجرّد مُشتبه فيه عدا والدة نورة، فكلّ شخص يُعتقل، يُحكم عليه في أذهان العامّة بأنّه مُجرم.

سألتني عن أحوالي وكيف أقضي أيّامي، فلم أخبرها عن الاكتظاظ في مهجع يسع سبعة أشخاص وأقتسمه مع ستّة عشر رجلاً، بعدما كانوا اثني عشر عندما وصلت إليه، يختلط فيه أصحاب جنح بأصحاب جنايات، عن انقطاع الماء، الذي لا يزور الحنفية سوى نصف ساعة كلّ يومين، عن الحرّ الذي يجعلني أكره جسمي، عن خصومات تنشب بين مساجين، تنتهي بدماء تسيل أو عظام مكسورة، «الداب راكب مولاه»، والأكل لا يتعدّى عجائن مالحة كما لو أنّها طُبخت بدموع زكيّة زغواني. لم أخبرها عن الشخير الذي يضجّ به المكان وتمادي بعضهم في الضراط. عن فارمسيان وسعيه إلى فرض زعامته علينا وفي منامه يهرف ويهذي، عن رحّال، الذي يخفّف من

عزلتي، يتبادل معي إناء بلاستيك للتبوّل تفادياً لزحمة الحمّام، بينما عود سواك يتدلّى من شفتيه مثل سيجارة، يقضي يومه في الصوم والإمامة بالتيمّم على الأرضيّة من دون وضوء: «الحرّاس منعوا عنّا التيمومة خشية أن تصير سلاحاً»، وقد شرعت، من باب التلطّف، في مُرافقته في الصلاة. عن المصباح الذي لا يُطفأ. لم أخبرها عن ذلك السجين الذي طعن أخته ولا يتوقّف عن ضرب جبهته على الحائط حتى يدميها فيُغمى عليه، أو عن الحرّاس الذين يهجمون في كلّ حين بداعي التفتيش، عن فسحة المشي ثلث ساعة في الفناء، عن استسلامي للبكاء، عن خوف ينهال عليّ، عن رهبتي من أن تتخلّى ابنة خالتي عن قضيّتي، ولا أجد محامياً آخر يقف معي. طمرت كلّ ذلك واختصرت لها الإجابة وأنا أحكّ عنقي: «في صبر وثبات».

ضغطت راحة يدي على العازل الزجاجي. وددت ملامسة خدّها، لتقرّ نفسي، مستحضراً كيف كانت ترنّم في أذني صغيراً وهي تفلّي شعري: «بشير يا بشير... زين الطلّة... جاب الخير»، أو تحكي لي قصص الغول ذي رأس الثور، بدن العجوز ورجلَي العنزة. سهوت عن بقيّة المساجين إلى جنبي وتجاهلت السجّانين الذي اصطفّوا في الخلف. أردت قول أشياء كثيرة لها، لكنّني لم أعرف من أين أبدأ.

اعتزمت أن أطلب منها إبلاغ نورة بمعاودة زيارتي، لكنّ صفّارة دوّت مثل صفّارات سيّارات الإطفاء. تقدّم منّي سجّان وانتزع من يدي السمّاعة، إيذاناً بنهاية الزيارة التي لم تدم أكثر من دقائق معدودة قضيناها في صمت أكثر من الكلام. «المرّة الجاية تكمّل كلامك»، زعق في وجهي. مع ذلك ظللت أرفع صوتي، الذي اختلط بأصوات السجناء الآخرين، فلم تفهم أمّي ما قصدته، وقد تسمّرت على الطرف الآخر تنظر إليّ أُساق مثل شاة من حيث جئت، ومُرافقي يكلّمني: «نفتّش القفّة ونجيبهالك». لم أكن أفكّر في القفّة التي

جلبتها، ولا رغبة لي في شيء سوى أن تأتي ابنة خالتي، لأوافيها بما ورد في بالي من تفاصيل تخصّ القتيلة.

وجدت محشوش النيف يشغل فراشي وسألني بعينين شبه ناعستين:

– كاش حلويات؟

– ما زال ما جات القفّة.

بينما راح يلغو في شرود عمّا ينوي فعله إذا أفرج عنه؛ رغبته في تعلّم الطبخ وافتتاح مطعم صغير، قرب محطّة الحافلات، كما لو أنّني سألته عن مستقبله، دخل سجّان يحمل قفّة إليّ. التقطت منها ملابس وشوكولاتة تغنيني عن الأكلات الأخرى كلّها، ووزّعت الباقي، من حلويات وخبز، على محشوش النيف ومساجين بجنبه، اشرأبّوا إليّ مثل خراف تقطع أرضاً بوراً.

الآن وقد أدركت من أودى بحياة زكيّة، لماذا تماطلت المُحامية في زيارتي من جديد؟

20 سبتمبر

نشرت البلدية أسماء أصحاب القبور، الذين سمعت عنهم أمّي في الحمّام العامّ، بعد إجراء خبرة علميّة، تبيّن أنّهم من الشهداء، من دون أن يرد من بينهم اسم أبي، «ستُصاب بخيبة أخرى»، قدّرت. جلست على السرير في خلفيّة محلّي، أمسك القيثارة من رقبتها مثل صيّاد يمسك بماسورة بندقيّة، مُنصتاً إلى نوتاتي، محرّكاً لساني في جوفي في عملية تسخين، قبل أن ينطلق صوتي: « لسه الحبّ صافي... لسه الجوّ دافي...»، ثمّ استمعت إلى نفسي في جهاز التسجيل، مطمئنّاً أنّ أدائي في تحسّن، وقد عزمت أن أنبري كلّ يوم ساعة في التدرّب على إعادة الأغنية، حين دخل كهل بسحنة سمراء تحرثها تجاعيد، مع شفتين متيبّستين وشعر زحف عليه شيب، جلد رقبته مجعّد مثل ثوب لم يُكوَ، عجّل مصافحتي والتعريف بنفسه.

– داوود، والد نبيل.

لم أجد شبهاً بينه وبين ابنه، مُخمّناً أنّ صديقي ورث جينات أمّه.

– أتمنّى أنّ نبيل ينعم بعطلته.

قلت مبتذلاً الابتسام، مُحاولاً أن أظهر في صورة فتى مُهذّب.

– إنّه يُناوش عزرائيل.

قالها بعينين شاردتين، مثيراً استغرابي، قبل أن يشرح لي الحالة التي يغطّ فيها ابنه، بعد سقوطه من علوّ شاهق في ورشة البناء، «سقط على رأسه وطار دمه في كلّ الاتّجاهات».

– جاء يبني بيته ونخشى أن يبني قبره.

حدّثني نبيل عن ورشة بناء بيت يستوسع فيه أهله وليس لشخصه، هل خاف أن أحسده؟

– كلّ مُصيبة من دون الموت رحمة.

– أشار إليّ بالمجيء إليك.

يظنّ أنّ لي معارف ويمكن أن أوفّر له عناية طبيّة لائقة؟ دار في ذهني.

أعاد إليّ داوود رواية «الشيخ»، حيث دوّن ابنه على الصفحة الأولى منها، بعدما استفاق من غيبوبته وقد شُلّ لسانه، حاجته إلى مال، كي يتأتّى له شراء أدوية غير موجودة في المستشفى، فكلّ ما أحضره معه من عُملة صعبة صرفه على البنّاء ومساعديه، وعلى عدّة البناء.

– سبقته تلك المُصيبة قبل أن يُغادر.

توهّمت أن ألتمس عوناً من صديقي في التخطيط للهجرة، فبتّ أؤدّي دوراً معكوساً. يتحتّم عليّ أن أقف إلى جانبه، لكنّني لم أكن أملك سوى دنانير يسيرة، في صندوق المال. طلبت من الكهل، الذي يعمل طبيب أسنان جوّالاً مستعيناً بآلات تقليدية، أن يرجع وقت الغروب، ويمّمت سوق ترابإندو، مقتنعاً بأن لا شيء أقدّمه لنبيل، سوى بيع الساعة التي أهداها لي.

ناهز الوقت الثانية ظهراً والناس في ذهاب وإياب في السوق، مثل دجاج في خُمّ، أصوات الباعة وصرخاتهم تتمازج في ما بينها.

أجلت النظر قبل أن أستقرّ بمحاذاة محلّ أكلات خفيفة، لا لافتة تعلوه ولا اسم له، تنفذ منه رائحة بطاطا مقليّة، وزبائن في الداخل يأكلون وقوفاً. نزعت الساعة من يدي وعرضتها على المارّة، لم تنقض دقيقتان حتّى توقّف أمامي شابّ، بوجه تظهر عليه بثور مثل من أدمن العادة السرية، تتسرّب من فمه رائحة شمّة.

– كم ثمنها؟

– اقترح!

في ترابانِدو لا يوجد سعر ثابت للسّلع، بل تخضع للمساومات، فعرض عليّ ثلاث أوراق نقديّة.

– لن تفي بثمن سوارها.

رماني بنظرة استياء ولمّح إليّ بمقايضتها بمجفّف شعر، فرفضت. ثمّ استوى أربعة أشخاص آخرين، واحداً تلو آخر، يقترح كلّ واحد منهم سعراً وبدأ الرقم بالتصاعد، بينما أنا أبشّرهم بأنّها سويسرية الصنع، فمن عادة الناس تفضيل كلّ ما يأتي من أوروبا، إلى أن وصل خمسيني، يظهر على محيّاه آثار جُدريّ قديم. عرض عليّ ما يُناهز ثمن قيثارة مستعملة، فقد أراد تلك الساعة هديّة لابنه العازم على الزواج، «دوام الهنا». رددت عليه وقرّرت أن أتنازل عنها لمن يدفع أكثر بقليل، وتمّ ذلك مع امرأة، تتدثّر بملحفة بيضاء، لا يظهر من جسمها كلّه سوى عينيها البنيّتين. دفعت لي ما أُريد وحدّثتني بصوت مبحوح عن تجارتها في المصوغات.

– قد تجلب لي سعراً أفضل مع مُشترٍ آخر، قالت لي.

هممت عائداً إلى وردة الرمال، أواري سندويش بطاطا تحت إبطي، مُستأنساً بما تدفّق إلى جيبي من مال، مُستفسراً في خلدي: لِمَ لا أنقل محلّي إلى هذا السوق؟ فالإقبال عليه سيزيد، لكن سيصعب

عليّ مُواعدة نورة، فأهل هذه المدينة يترصّدون نساء غيرهم أكثر ممّا يترصّدون نساءهم، ومن بعيد لاح لي شبح نبيل مستلقياً على سرير المستشفى.

نورة

قصّت عليّ حسينة حكاية مرزاقة سوالم، التي اشتغلت في التعليم وفي التطوّع مع اتّحاد النساء في توعية المقبلات على الإنجاب، قبل أن تهوي قبل أزيد من عامين من شرفة غرفتها في الفندق، الذي أقامت فيه بعد طلاقها. وقد دوّنت الشرطة في محضرها تعرّض الضحيّة لجروح في رأسها، مع كسور في عظم الجمجمة وفي العضد الأيسر.

أخبرتني أنها «كانت نائبةً في البلدية».أبي أيضاً كان نائباً في البلدية، لكنّه غادر منصبه عقب فضيحة، من المحتمل أنّه عرفها أفضل منّي. التقطت عن منضدة مكتبها جريدة أستجلب بها الهواء، فلمحت أسفل صفحاتها الأولى صورة مارغريت تاتشر عابسة، قبل أن أسألها:

– لماذا انتحرت؟

– علمه عند ربّي.

لم أشأ أن أطيل زيارتي لها، مستغربة شعرها الذي كان مسرّحاً من الأمام ومهملاً من الخلف. نهداها كانا يشبهان كيسين يملأهما هواء، كما لحظت عقبولة على شفتها السفلى وعلمت أنّ الحمّى اشتدّت عليها ليلة كاملة ثمّ برأت منها، «لا بدّ أن قلقها زاد مع

اقتراب موعد خطوبتها»، وعليّ أن أفكّر في هديّة تليق بها. ملت إلى فرضية الشيخة ذهبيّة: هل دفعت زازا ثمن انتقام من موت مرزاقة؟ ثمّ إنّ المُغنّية لم يُنتهك عرضها ساعة موتها، وهذا يرجّح أنّ الجاني امرأة وليس رجلاً. من المحتمل أنّ الشيخة ذهبية تضمر شيئاً ما! تهت ولم أعثر على خيط يعينني في دفاعي عن بشير، ففتيحة التي تعوّدت تنظيف غرفة الضحيّة لم تنفعني بشيء، وظنّي أنّ ميمون بلعسل أوصى موظّفيه بالتكتّم.

عدت إلى مكتبي ورنّ الهاتف. تنهّدت بعمق، بعدما أنبأتني أمّي بخبر بعث رجفة في ساقيّ: «البوليس شدّوا رجل خالتك».

«بشير في السجن والآن والـده»، عجزت عن التكهّن بسبب اعتقاله، قبل أن تردف أمّي، التي أطالت في صمتها المختلط بنشيج: «دبّري رأسك».

اتّصلت بحسينة، التي كنت قد تركتها غارقة في صمتها، من كثرة القضايا التي تتكفّل بها، موقنة أن لا خافية تفرّ من سمعها.

– هل يُمكنك الاتّصال بحميد وسؤاله عن ذريعته إلى اعتقاله؟

ترجّيتها بنبرة غريق يتوسّل يداً إلهيّة، فهي تعرف كلّ مسؤولي المدينة ويعرفونها، فأشارت عليّ أن أنتظرها لحظات مرّت كما لو أنّها ساعات، ثمّ رنّ الهاتف من جديد، فرددت بانفعال من دون أن أتبيّن المتّصل:

– طمئني بالي.

– لم يردّ عليّ.

رغبت في تحرير شتيمة، يسمعها الإنس والجن، أو أنطح الحائط برأسي. كسرت أصيص صبّار، أوراقه ملساء مسنّنة، اقتنيته منذ شهرين للزّينة. دست عليه وطوّحت بكلّ الأوراق المنظومة على مكتبي أرضاً. «في هذي البلاد، الحوت يأكل الحوت وقليل الجهد

يموت»، لم يعد أمامي سوى أن أذهب بقدميّ إلى المخفر، ومقابلة ذلك المفتش الذي طالما رغبت في تفاديه.

مشيت إلى وسط المدينة ورأيت كالعادة عناقيد من العاطلين من العمل، يتجمّعون تحت سور فيلّا الرومي؛ لا حديقة ولا ساحة عامّة يذهبون إليها. يُتاجرون في العملات الأجنبية ويحصون المارّات كما يُحصي راعٍ رؤوس الغنم، ثمّ يجرّدونهنّ من ثيّابهنّ في مخيّلاتهم. حمدت الله أنّي عثرت على تاكسي، فأن ينال أحدهم رخصة سيّارة أجرة ليس أمراً هيّناً، بل هي حكر على أصحاب النفوذ، وتوجّهت رأساً إلى مقصدي. دفعت للسّائق مقابلاً من دون أن أنتظر الفكّة، ففرح بما أغدقت عليه مرسلاً لي أدعية خير تتبعني. صادفت على المدخل شرطياً، مرح الملامح، أنعم النظر في بطاقة هويّتي ودوّن على ورقة منفصلة سبب مجيئي. اتّصل بمكتب حميد لكن لا مُجيب، وقد ناهزت الساعة العاشرة صباحاً. «إمّا تنتظرين أو تعودين في وقت لاحق»، قال الشرطي.

انسحبت إلى حجرة الانتظار الضيّقة، بحيطانها العارية، المطليّة بأخضر فاتح كشأن حيطان المستشفيات. يسكنها صمت لم تلوّثه سوى حركة الأرجل في الرواق، بمعيّة أربعة أشخاص آخرين. لحظت تضايقاً يتصاعد إلى وجوههم، مثل ماء يغلي، متحجّرين من دون حراك. جاؤوا امتثالاً لاستدعاءات وصلتهم، والقلق شريك بينهم.

طال انتظاري ثلث ساعة، فعدت إلى الشرطي القابع في الاستقبال، وهو يتصفّح مجلّة رياضية. سألته إن عاد المفتّش إلى مكتبه، فأعاد الاتّصال به متكاسلاً، ثمّ سمح لي بالصعود إلى الطابق الأول.

بدا لي مكتب حميد موحشاً. علّق على أحد جدرانه صورة أطفال مُبتسمين يرفعون الراية الوطنيّة، ولا ديكور آخر يزيّن المكان

ويبعث راحة في النفس. ثمّة أوراق على طاولته وملفّات لم تُصفّف، ونافذة مفتوحة تنفذ منها جلبة الشارع.

– المحامية نورة عرقوب. جئت بشأن مخلوف لبْطم!

أشعل سيجارة واقترح عليّ أخرى فامتنعت. بادرني بالابتسام لكنّني حرصت على عدم تفريج شفتيّ. انهمك في تصفّح أوراقه وهو يردّد اسم المعنيّ واستمرّ كذلك بضع ثوانٍ، ثمّ رفع رأسه، مثل تلميذ بلغ حلّ مُعادلة رياضيّة:

– آه. لقد جاؤوا به اليوم.

– وتركوا زوجته غارقة في دموعها.

أسرف في التبسّم كما لو أنّه يتهكّم عليّ.

– المهمّ أنّه في أمان.

– هل يمكن أن أعرف لماذا أوقفتموه؟

تعامل مع سؤالي ببرود وقدّم لي قنّينة ماء سحبها من أسفل طاولته الخشبية.

– لا. شكراً، قلت له.

ثمّ عرض عليّ أن نجلس على الأريكة، فاستجبت ووضعت حقيبة يدي بين ذراعيّ كمن يهدهد رضيعاً، أُداري غضبي، وراح يحدّثني، وهو يُباعد بين ساقيه، بلهجة عاصميّة ونغمة صوت غليظة ككلّ من أسرف في غمر حنجرته بنيكوتين:

– سمعه طبيب يصف سكّان المرج بـ«أولاد حرام»، يوم اكتشاف جثّة فتاة هناك.

– هل هذه حجّة كافية؟

– لعلّه يعرف ما لا نعرف.

– هل تشتبهون فيه؟

– يهمّنا الاستماع إليه.

وضع ساقاً على ساق وطمأنني بأنّ زوج خالتي سيُطلق سراحه، بمجرّد بصمه على محضر استماع. حدّثتني نفسي، في تلك اللحظة، أن أستأذن منه للاتّصال من هاتفه بأمّي، لكنّني قدّرت أنّ ذلك الطلب لا يجوز في حضرة رجل سمعت ما صمّ أذنيّ عن مكره ودهائه.

أطفأ سيجارته وطفق يسحب خاتم الزواج من بنصره ويُعيده إلى مكانه، كمن يودّ التخلّص منه. ثمّ دخل في مونولوغ يشتكي من الطقس: «الحرّ والجراد، هل ينوي الله معاقبتنا؟»، فالسماء لم تبصق ماءها من ستّة أشهر، وأنا أنظر إليه في صمت، قبل أن يقفز إلى شأن آخر.

– كيف حال المُحاماة؟

– بخير.

مع علمي أنّه يُدرك كلّ المشقّات التي نعيشها، مع تكلّس الإدارة ووساوس الموكّلين، الذين يودّون تسويات سريعة لقضاياهم بأقلّ التكاليف، ناس هذه المدينة يروقهم محامٍ رجلٌ لا امرأة، يجب أن اجتثّ ثدييّ كي يثقوا بي تمام الثقة. في تلك اللحظة رنّ هاتفه، وسمعته يُخاطب محدّثته: «إجراء روتيني ويعود إلى بيته».

عاد إلى مكانه يفرك يديه.

– اتّصلت المُحامية حسينة عيداش تطمئنّ عليه.

ندمت على التماسي مساعدتها، مقتنعة بأنّ مكياجي لم يخفِ حرجي وأنّه وعى أنّني أنا من طلبت منها أن تُهاتفه، متحسّرة على أنّني خرجت ذلك الصباح من دون أن ألبس مِشدّاً كي لا يتدلّى بطني، ولم أتفحّص كامل وجهي حذر البثور كما عادتي.

– هي صديقتك على ما أعتقد؟

– أكثر من صديقة.

أبصرت حاجبيه الكثيفين ولم يبدُ لي وجهه وسيماً كما أبتغي. شعره الرمادي يزيده وقاراً وشاربه مثل مملكة نمل، يُوحي أنّه أكبر من سنّه بسنوات، بينما أنا أفضّل أصحاب الشارب الحليق.

تقمّص دور الخدوم وأظهر ما يقدر عليه من صفات الجنتلمان.

– نحن في خدمتك متى احتجت إلينا.

لا أحتاج منه إلى أيّ خدمة، بل أمقته في أعماق قلبي.

أحسّ أنّ الصمت يطول بيننا، فحاول تفتيته:

– أين تقيمين؟

– في حيّ أوّل نوفمبر.

أسهب يحدّثني عن الدوريات التي تطوف ذلك الحيّ، وأحياءً محاذية له، في كنس مروّجي ممنوعات وتوقيف شباب يتفاخرون بحمل أسلحة بيضاء، وقد ألهته تحرّياته بشأن زغواني عن مواصلتها، ثمّ حدّثني عن مشعوذ يُسمّى سيدي زرزور أوصلوه للسّجن.

– تخيّلي أنّه يُتقن الفرنسية، الإسبانية والألمانية. راكم ثروة من عمله.

انهال سيدي زرزور ضرباً بمدقّ مهراس، نحاسيّ صلب، على رأس امرأة دخلت بيته، بعدما أوثق يديها ورجليها، جرّدها من ثيابها وخطّ ثدييها بطلاسم، إلى أن ماتت. ظنّت الشرطة أنّها جاءت تطلب منه تعويذات، قبل أن يتّضح أنّها شقيقته، ساءت علاقتهما بحجّة ميراث.

سمعت بأمر ذلك المشعوذ، الذي حلّ ببيت متاخم لبيتنا عشيّة إعلان حداد، عقب وفاة الماريشال تيتو. لم أهتمّ لسجنه، لكنّني كثيراً ما استأت من تطاول الشرطة، وخطر لي أنّ الفرصة مواتية لأورد امتعاضي إلى حميد.

– تسجنون أحياناً أشخاصاً بالخطأ.

التمس سخطاً في كلامي، وتعمّدت شبك أصابعي بعضها ببعض، لأوحي إليه بمتانة قولي. كان بإمكانه الردّ عليّ بذلك القول الجاهز: «الخطأ يقرّبنا إلى الحقيقة»، لكنّه فضّل ألّا يسمح لي بأن أشكّك في عمله:

– هل لديك أسماء؟

لم أذكر اسماً بعينه، لكنّني واصلت مخاطبته بصرامة واعتراض، إلى أن جرفني لساني إلى ما لم أتوقّعه:

– بشير لبْطم؟ ألم يُسجن ظلماً؟

ركّز نظره في عينيّ.

– نملك دليلاً ضدّه؟

– ما هو؟

– رسالة إلى الضحيّة يتوعّدها فيها.

– غير كافٍ.

لم يتخلّ عن الابتسامة المُخاتلة التي استقبلني بها وأنبأني بأنّ الكحول قد لعبت بعقل بشير قبل المصيبة، فخمّنت أنّهم حلّلوا بوله يوم سجنه، محافظة على صمتي وأنا أحكّ خدّي مُتجنّبة فرقعة أصابعي، رغم إلحاح تلك الحركة عليّ، كي لا أشعره باضطرابي.

– نحوز دليلاً آخر.

– ما هو؟

– هاتفت الضحيّة بيت أهله قبل ساعات من موتها.

أعلمني أنّه طالع كشف الأرقام التي شكّلها المتّصلون من المخدع المُجاور للفندق وورد فيه رقم بيت لبْطم، وأنّ ابن خالتي كتب لها في رسالته: «إذا حاولت الاتّصال بي مرّة أخرى فتحمّلي العواقب»، لكنّني لم أبد تحمّساً لما قاله. شعر بأنّه في موقع دفاع، فأضاف:

– خطف منها براءتها، ثمّ شكّ في وفائها له فقتلها.

وقد أكدّ الطبيب الشرعي الذي عاين جثّتها أنّها كانت فاقدة لغشاء العذرية.

ساورني شكّ في أنّ قضية بشير تزداد تعقيداً، فزممت شفتيّ غير مصدّقة كلامه، وعزّز قائلاً:

– أعطيك رقم هاتف للتحدّث مع أمّها والتأكّد منها.

فهمت أنّه استوحى ادّعاءه أنّ المشتبه فيه هتك سرّها من كلامه مع أمّ الميّتة. لم يُجارِني لساني في سؤاله عن مرزاقة سوالم، مُستعجلة الاتّصال بوالدة زكيّة، مستحضرة كلام حسينة: «غالبية الجنايات التي سمعت عنها أو تأسّست في الدفاع عن المتّهمين فيها، لم تكن سوى تصفية حسابات عائليّة أو عشائريّة».

21 سبتمبر

عزمت على أن أنشر نـداءً في الجريدة بحثاً عن قبر أبي لكنّ أمّي اعترضت: «نطلب له شفاعة ربّي والملايكة»، وعـاد خميسي، من بطولة المُلاكمة، مكتفياً بشهادة مشاركة، متّهماً التحكيم بالتحيّز: «اللي يحبّ ينجح في هذي البلاد لازم يعيش في الشمال».

رأي يُقاسمه فيه شباب الجنوب؛ يستولي عليهم شعور بأنّهم ليسوا أكثر من أظافر يلزم تقليمها، أنّ نصيبهم من النجاح أقلّ من نصيب نظرائهم في المدن الساحلية، من دون أن يُخفي رضاه بوصوله إلى الـدور الثاني في الـوزن الخفيف، قبل أن ينهزم ضـدّ منافس من العاصمة.

– أعرف كيف أصير ملاكماً محترفاً.

– في الشوارع؟ سخرت منه.

رغم ذلك لا أشكّ في قدرته. شاهدته في أكثر من نزال يتغلّب على خصومه. يعرف متى يندفع في الحلبة ومتى يبتعد، يحمي وجهه بخفّة حركاته ويسدّد لكمات مباشرة بذراعيه الطويلتين، متّبعاً مقولة محمد علي: «في الحلبة، طرْ مثل فراشة والسعْ مثل نحلة».

– بل في بطولة دوليّة.

– كمُتفرّج؟

استفزّ ردّي والدتي، التي تربّعت في جلستها بالمطبخ، تسمع دردشتنا القادمة من رواق البيت... «ابني وأعرفه، راح يولي بطل»، قالت.

تُدافع عنه أكثر ممّا تدافع عنّي، كلّما اشتدّ حنقها عليّ تشبعني كلمات نابية. تردّد أنشودتها بأنّها تعبت في تربيتي وأنّني أنكر فضلها عليّ. «أنت أفضل أمّ»، أقول لها فيتحوّل غضبها إلى ابتسامة صامتة. أتخيّل أحياناً لو أتيح لي تربية شقيقي الأصغر، لجعلت منه عازفاً أو مُغنّياً، لكنّها استفردت به، تمنّته طبيباً فصار عتّالاً في الأيّام العاديّة، ملاكماً في أوقات الفراغ.

أوصدت وردة الرمال، على غير العادة، بعد عصر ذلك اليوم، وقرّرت أن أشتري تورتة وأحتفي بخميسي، تحفيزاً له.

«كاماراد إبراهيم هلّ هلاله»، ابتدأني بولنوار الحلواني، بوجهه العريض. شاربه حليق وحاجباه الكثيفان يذكّرانني ببريجنيف. كان يتفرّغ لتنظيف محلّه، الذي يسوده هواء منعش من المراوح الأربع المثبّتة على زواياه، بعدما أنهى يومه، بصحبة مُعاونه الشاب، الذي وُلد أصمّ أبكم لا يتكلم سوى لغة الإشارة، ويُنعت بجان ترافولتا نظير تشبّهه بذلك الممثّل في تسريحة الشعر التي ظهر بها في فيلم «حُمّى ليلة السبت». يُهدي لي بولنوار أحياناً قطع حلوى لم تُبع، ويصرّ على أن أجلب له أفلاماً عن صنع الحلويات، بينما أنا أردّ عليه مُتلطّفاً: «يجب أن ينجزوا فيلماً عنك».

– أريد تورتة بالفستق.

– هل تنوي التقدّم لفتاة!

ضحكت ورويت له نيّتي تكريم شقيقي.

– لن أتخلّى عن عزوبيّتي.

أحسد بولنوار على ما ناله من غنائم، رغم أنّه لم يُشارك في حرب التحرير. يشغل محلّاً سبقه إليه يهودي علّمه صنع الحلويات ثمّ هاجر بعد الاستقلال، بعدما اعتدى مجهول على زوجته وابنيه بسكّين، ورسم صليباً معقوفاً على حائط بيته، كما تكسّب مزرعة خارج المدينة، من دون أن يدفع ديناراً مقابلاً لها. يقول بعض إنّه يغرس فيها، بمساعدة خمّاسين تبغاً، وآخرون يقولون إنّه يجني منها حشيشاً. كلّما تذكّرت ما ينعم فيه، زاد سخطي على أبي، فقد عاتبت أمّي مرّة: «الشطار استولوا على محالّ وبيوت وأراضٍ وأبّيْ اكتفى بعمله في تجارة الصوف». «والدك كان رجلاً نظيفاً واستُشهد قبل الاستقلال»، أجابتني وقد احمرّ وجهها غضباً مثل حبّة طماطم اكتمل نضجها، «عاش نظيفاً وأورثنا وساخة»، أجبتها. فأمطرت على رأسي وابلاً من الشتائم.

زيّن بولنوار علبة التورتة بشريط أزرق، ممتنعاً عن قبض ثمنها، ثمّ سألني:

– شاهدتك المرّة الماضية تركب سيّارة شرطة.

استأت من ملاحظته وقد ظننت أنّ الأمر طُوي، فكذبت عليه.

– تشابه في الأسماء. كانوا يبحثون عن شخص آخر.

صمت قليلاً، ثمّ واصل:

– هل بلغتك الشائعات؟

– لا!

– سوف يشنّ التجّار إضراباً.

– متى؟

– الشهر المقبل.

– لماذا؟

– ندرة الأغذية الأساسيّة.

ليست سوى شائعات، وفي كلّ الحالات لا أنوي إغلاق محلّي، إذا توقّفت عن العمل فلن أجد مالاً لأدفع ما بقي من أقساط رشوة الإعفاء من الخدمة الوطنيّة، ثمّ مددت ساقاً إلى الخارج، حين استوقفني:

– يقولون إنّهم سيغيّرون عطلة نهاية الأسبوع من الجمعة للأحد؟

– كانت كذلك في الماضي؟

– لكنّنا مسلمون.

«المُسلم لا يتاجر في تبغ أو حشيش»، استملحت أن ألجم لسانه، لكنّني اكتفيت بتلويح بيدي: «ربّي يجيب الخير».

بينما كنت أقطع وسط المدينة، شاهدت مُراهقين يركضون من شارع 5 جويلية، أو شارع جورج كليمنصو كما كان يُسمّى، صوب مركز البريد، يقذفون حجارة على أعوان شرطة، تبيّن لي أنّهم من طلبة الثانوية. خرجوا في مسيرة تُناشد تعميم العربية في المدارس وإلغاء الفرنسيّة، سرعان ما تحوّلت إلى مشادّات. أنا أيضاً درست بالفرنسيّة، لكنّني لم أخرج وزملائي للاحتجاج في الشارع، منتفعاً من نصيحتي أستاذتي آنذاك، المسمّاة مرزاقة سوالم، التي حبّبت إليّ تعلّم اللغات، وعجّلت في تغيير مساري مبتعداً عنهم، مع شجن يحوم في رأسي: لماذا لم يمهل القدر أبي حياة بعد الاستقلال كي يحيا في الخيرات مثل بولنوار؟

كمال

استفقت ذلك الصباح وقد رأيت المرحومة أمّي تسير جنبي على رصيف مُزدحم، ترتدي فستاناً رُسمت عليه أزهار. كانت تنظر إليّ ضاحكة، ثمّ ركضت فجأة، غير مُكترثة بصراخي المكتوم: «ستوب... ستوب!»، ولا بالمركبات التي تعبر الطريق. ما هي إلّا لحظات حتّى دهستها سيّارة، لم أتبيّن نوعها، ثمّ قامت وواصلت الركض من دون أن تُفارق شفتيها ضحكة مُجلجلة، كما لو أنّها تريد أن تصدمها سيّارة أخرى.

فتّشت في ذهني عن تفسير لتلك الرؤيا، بلا جدوى، مستشعراً التواءً في رقبتي وطعم جعة في لساني، تخلّصت منه بشرب شاي مرّ مع نصف علبة بسكويت، وقرّرت أن أستفسر الحاجّ. فقد عرفته تقيّاً يدري بما تُخفيه الأحلام، يُواظب على الصلاة في المسجد الكبير ولا يكلّ من مُكالمات مع الإمام، في لُزوم عودة الناس إلى باب الخالق وإقامة صلاة استقساء استجلاباً للمطر.

شغّلت جهاز الكاسيت الذي اشتريته حديثاً من سوق ترابандو، وقد وافت الساعة الثامنة والنصف، فأطربني صوت أمّ كلثوم. ذكّرني ببشير الذي شاركني أمسيات الإصغاء إلى أغانيها، واغتمامي من سجنه لم يهجر قلبي.

«يا حبيبي كلّ شيء بقضاء... ما بأيدينا خُلقنا تعساء
ربّما تجمعنا أقدارنا... ذات يوم بعدما عزّ اللقاء»

أقنعني صوت داخلي بأنّ نورة على علاقة بمحامٍ مثلها أو رجل في منصب عالٍ، وأنّ عليّ محوها من مخيّلتي. عاودني ضيق التنفس، الذي رجّحت مأتاه من الغبار الذي يملأ الجوّ بعد كلّ هبّة ريح، مُؤجّلاً مراجعة الطبيب مغبّة أن يطول انتظاري قبل أن أظفر بموعد. لقد أبلغت ربّ عملي عن فرضيّة تأخّري في المجيء، وكلّفت النادل خليل بشغل مكاني في غيابي. يجب أن أقصد مخفر الشرطة لأدلي بإفادتي في شأن زازا.

وقفت أمام المرآة التي انكسرت زاويتها العلويّة، عازماً على تليين كلامي مع حميد أو العُقربان كما أسمّيه، فهو لا يستلطفني منذ أن امتنعت عن أن أسلّمه مفتاح غرفة يختلي فيها مع إحدى خليلاته، من دون استشارة ميمون، فغضب منّي بعدما انهمرت من فمه رائحة خمر: «أنا سيّد الفندق»، «لا يُشرّفني العمل تحت إمرة سيّد مثلك»، رددت عليه حينذاك.

تأكّدت من أنّ شعري مسرّح إلى الخلف كما أبتغي، أطفأت جهاز الكاسيت وخرجت. طرقت باب جاري زيّان، صاحب الوجه المربّع الذي يذكّرني بوجوه شخصيّات كرتونية، والذي أستأجر منه سكني وألاعب أطفاله كلّما التقيت بهم، أشتري لهم هدايا وحلوى مما زادهم تعلّقاً بي، أستوضح منه موعد مجيء بنّاء يُعلي حائط بيتي.

– على بالك الإسمنت غير متوافّر!

لم أُفاجأ أن يندر الإسمنت مثل ماء زُلال، فبنايات الأثرياء الجدد ومُغتربين عائدين تنبت من التراب هنا وهناك، تستنفد سلع البناء كلّها في هذه المدينة، التي باتت تكتظّ بالحديد والجراد.

– يلزمك تصبر.

حيّيته وقصدت وجهتي، مُشفقاً في طريقي على حال المكتبة البلديّة، التي سقطت نقطتان من لافتتها فصار اسمها «المكبة». رأيت بابها موارباً. لم يعد يزورها سوى مراهقين، يشغلون زواياها نصف المعتمة، يختلسون قبلات أو لمسات، متظاهرين بمطالعة كتب. وعلى مدخل المخفر قدّمت لعون الاستقبال الاستدعاء الذي وصلني، فطلب منّي الانتظار إلى أن أتمّ مكالمة، ثمّ أمرني بالصعود إلى الطابق الأوّل حيث وجدت حميد يعرك ذقنه الحليق.

أعربت له، وهو يضع ساقاً على ساق ويشبك ذراعيه، عن ضرورة أن ألتحق بعملي قبل منتصف النهار، فقال إنّ حاجته بي لن تطول، قبل أن يشرع في سؤاله، مصوّباً نظراته إلى عينيّ، يستعجلني الردّ.

– لم أرك في جنازة زكيّة زغواني!

– انشغلت بتقديم شكوى.

قضيت يومها وقتاً متعباً من شدّة الانتظار، لأتمّ مُعاملة لا تتطلّب، في الغالب، أكثر من نصف ساعة.

في الليلة التي ماتت فيها زازا، داومت حتى السابعة صباحاً، بعد تأخّر سيّاح قادمين من العاصمة، ثمّ واصلت عملي، عقب استراحة قصيرة في الفندق، إلى ما بعد الظهر. وحين قفلت عائداً إلى بيتي، انتبهت إلى أنّ أحداً ما قد تسلّل إلى الداخل، منتهزاً قصر الحائط الخارجي، وحطّم أجهزة كهربائية. كان ذلك جمعة يوم إجازة، فاعتذر شرطي مُناوب عن توثيق شكواي، بداعي غياب المكلّف بالمُعاينة، ودعاني للعودة في اليوم التالي، حيث تكرّر انتظاري لإتمام الإجراءات.

فتّش العُقربان في درجه عن نسخة من الشكوى وأردف:

– تصلنا شكاوى كلّ يوم وأغفل عن متابعتها كلّها.

اطمأنّ إلى أنّها مُطابقة لما أدليت به.

– من تظنّه فعل ذلك؟

– أشكّ في جار لي.

صارحته بما وقع في اليوم الذي سبق تلك الحادثة، عندما دعوت بشير إلى زيارتي.

– بشير لبْطم؟

قوّس حاجبيه بعد أن علم بصداقتنا. رمى عقب سيجارته في المنفضة الرخامية من دون أن يُطفئها، قبل أن أواصل سرد ما حصل آنذاك: بعدما أتّم صديقي كأسه الثالثة، انطلق في صراخ مرير، مُشتاقاً إلى حبيبته، ممّا أغضب جاري درّاجي، الذي يتقارب معي في سنّ واحدة، يُشبهني في الطول وفي الملامح إلى درجة أنّ واحداً من الجيران شكّ في أنّنا خرجنا من بطن واحد، هجم على باب داري وطلب منّي بلكنة غليظة، احترام حقّ الجيرة. امتعض بشير مقتنعاً بأنّه لم يطرق الباب ليشتكي، بل ليهدّدنا: «إن لم يُعجبك سلوكنا فغيّر سكنك»، ثمّ انطلقا في تبادل شتائم.

ناشدت صديقي أن يكفّ لكنّه أسرف، وتحوّلت المُلاسنة إلى مُشاجرة بالأيدي. غاب درّاجي لحظات وعاد ممسكاً بسكّين بوسعادي، نزل به بخبرة جزّار على كتف بشير اليسرى، الذي خرّ يعوي. حاولت تجفيف دمه بخرقة ومعجون أسنان، لكنّ النزف لم ينقطع، فنقلته إلى المستشفى بعدما جاوزت الساعة الرابعة عصراً، ولم أره بعد ذلك. عدت إلى مستقرّي وألقى درّاجي اللائمة عليّ: «أنت صعلوك ولا تجلب سوى صعاليك إلى الحارة». «حين تهدأ سوف نتكلّم»، أجبته وقصدت محلّ وردة الرمال لإعادة أفلام مؤجّرة ثمّ حللت بالفندق، لأعلم في اليوم التالي ما حلّ بزكيّة وأكتشف أنّ شخصاً ما تسلّل إلى بيتي.

استحضر حميد آنذاك صرخة بشير حين الاستماع إليه، «لم أعتد على ذلك السكّير، بل هو المُعتدي»، كما قال لي.

– عندما عُدت، اكتشفت أجهزة كهربائية محطّمة، كذلك هشّم أحدهم زجاج سيّارتي التي ركنتها جنب البيت.

نبّهني حميد إلى أنّ سيّارتينا من نوع «فيات»، لكن بلونين مختلفين.

– هل هناك عصابة مختصّة في مُهاجمة هذه السيّارات؟ همس بالكلام.

ثمّ دوّن الاسم الكامل للجار الذي أشتبه فيه: «درّاجي عوينة».

قبل أن يتنحنح وينتقل إلى سؤالي عن علاقة بشير بزكيّة.

– أعرف أنّه أحبّها.

– ماذا أيضاً؟

– لم أحشر أنفي بينهما.

تقيّدت بأن أًجيب عن الأسئلة من دون أن أورّط نفسي في إفاضة تُحتّم عليّ الوقوف شاهداً في المحكمة، لذلك لم أخض في حكاية فستان الزفاف، الذي تسلّمته من عامل توصيل، باسم الضحيّة، ودفعت ثمنه من صندوق مال الفندق، بتوصية من الحاج. أعلم أنّ مشروع زواجها ببشير قد تعثّر، فبمن نوت الارتباط إذن؟ لا بدّ أنّ ميمون يعلم لكن ليس من اللباقة أن أسأله كي لا يظنّ أنّني أتدخّل في ما لا يعنيني. كنت سبباً في استقرارها في هذه المدينة لكنّها لم تثق بي يوماً. أسرفت في تأمّري عليها، كما دأبي مع بقيّة الموظّفين، وماتت تبطن كرهاً لي، وقد كتمت قصّة الفستان الأبيض عن لبْطم أيضاً.

تململ مفتّش الشرطة في كرسيّه منهياً الجلسة. شكرني ويمّمت باب الخروج، حين أوقفني:

– هل تعتقد أنّ صديقك قتلها؟

– أعتقد أنّنا خسرنا امرأة يصعب تعويضها.

عدت إلى الفندق وقابلت الحاج في مكتبه.

– سرّحك ذلك الأبله؟

– طباعه لا تتغيّر.

– لن يستدعيك مرّة ثانية؟

– أتمنّى ذلك.

رويت له الرؤيا التي شاهدتها من دون أن أذكر اسم أمّي، مكتفياً بالقول: «امرأة عزيزة على قلبي»، فأجابني أنّ الأحلام تُطهّر القلوب وأنّ الله يُرسل من نحبّهم إلى المنامات كي يذكّرونا بزوال الشهوات.

ثمّ بادر بسؤالي إن كنت استعدت سيّارتي من مستودع التصليح.

– ليس بعد.

– استخدم سيّارتي إذا احتجت إليها.

عرض عليّ خدمته، تمهيداً ليطلب منّي مساعدة ليست هيّنة.

– لقد تخاصمت مع زوجتي.

قالها بصوت خفيض وهو يجلس بساقين متقاطعتين وممدودتين إلى الأمام. أراد منّي أن أزورها في بيت صهره لأقنعها بالعودة إليه، فقد جعل منّي وسيطاً بينهما كلّما تخاصما. لا يريد أن يتدخّل واحد من أبناء عمومته فتسري الحكاية بين الألسن.

– سأرى ماذا يُمكنني أن أفعل.

ثمّ أردفت:

– هناك شيء أريد أن أقوله لك.

ظنّ أنّني أبتغي مالاً كالعادة.

– أن أدفع لك علاوة هذا الشهر؟

لا أفوّت فرصة من دون قنص علاوة على عملي الإضافي وربّ عملي يستجيب لي، كما يغضّ الطرف عن تأجيري الغرفة 302 بضعف ثمنها لعشّاق يقضون فيها يوماً أو نصف يوم، عكس ما يلزمه القانون، الذي يمنع غير المتزوّجين من الاختلاء في غرف الفنادق.

– ليس قصدي.

– ماذا إذن؟

– أحدهم ينبش ملفّ مرزاقة.

22 سبتمبر

عثرت على أشرطة كاسيت لمغنّيات ومغنّين بأسماء طريفة: الشيخة فلفلة والشابّة طويلة الرقبة، شيخ النعام والشابّ الهندي، لكنّني لم أعثر على شريط باسم زكيّة أو باسمها المُستعار، في محلّ نجوم الفنّ، المُحاذي لمطعم النخيل. كلّ مغنٍّ مآله النسيان إن لم يورّثنا تسجيلات، فالأثر الوحيد الذي خلّفته لم يكن سوى حفلتها المصوّرة، مرجّحاً أنّ صوتها، مع ما شابه من عيوب طفيفة، كان أفضل من أصوات مغنّيات يملأن البلد صخباً. تمنّيت لو أنّني تعرّفت إليها في حياتها، لأُعيد معها «سالمة يا سلامة»، فقد تفشّت موضة الثنائيّات، يتخاطف المستمعون شائعات عنهم أكثر من اهتمامهم بموسيقاهم. هل تعلّمت الموسيقى في صغرها مثلي؟ مع أنّني لا أتذكّر متى بدأتها، فلا أحد يتذكّر متى بدأ الأكل أو المشي. منذ صغري وأنا أسمع الغناء والعزف من حولي. لقّنني مُعلّم في دار الثقافة مبادئ القيثارة وبعض المعزوفات السهلة، ثمّ تعلّمت الباقي من الاستماع إلى فنّانين معروفين، ومن مُحاكاة طالب مولع بالبيتلز في الجامعة، كان يقتسم معي لفافات حشيش أو أقراص فاليوم مهدّئة للأعصاب. ومن كثرة اختلائي به، حول آلتَينا الموسيقيّتين، ظنّ زملاؤنا أنّنا في

علاقة حميمة. نحن نختلط بالآخرين كي نقتبس منهم أسلوب حياة لنا لا أكثر. وعاودتني كلمات أمّي عن المجنيّ عليها: «أنعم عليها ربّي بالجمال والحُسّاد»، حين دخل كمال وأغرق نظره في جاكيتات الأفلام، تُداعب أنفه رائحة عطر مخلوطة ببقايا سجائر.

لا يخفي إعجابه بسعة علمي بأقوال الأدباء والعلماء، التي أقتبسها من تصفّح كتب. وجد في مُحادثاته معي حكمة، فجعل منّي مرشداً له يلتمس نصحي كلّما غالبه شكّ. دأبنا على نقاشات في مُقارنة اللغتين الفرنسية والإنكليزية، ساعدته على فهم الفروقات والتشابهات بين شكسبير وجان راسين. ولع مثلي، منذ الصغر، بتعلّم اللغات. قبل أن يتمّ العشرين من عمره، أتقن الفرنسيّة وما تيسّر من الإنكليزيّة. هذه اللغة التي استمال بها محبوباته، كما أخبرني، كما شغفنا بالثرثرة في شؤون الأفلام، متوائمَين في الرأي على أنّ السينما خُلقت لتصويب زلّات البشر، لكنّني لم أستلطف إطلاقاً سلوكه؛ يستأجر أشرطة ويتغاضى عن دفع ما يترتّب عليه من ديون.

– هل من جديد؟

– فيلما وسترن وآخر هندي.

– أقصد أفلاماً خاصّة.

الجميع ينعت أفلام الكبار بالأفلام الخاصّة، ويصرّ عليها كمال لأنّ مُشاهدتها تُريح عقله وتُزيح عنه تعبه، كما حدّثني.

– أجّرت أحدثها لأحد الزبائن.

– أنا زبونك الوفيّ.

وددت أن أجيبه: «أنت قوّاد وفيّ»، لكنّني غيّرت كلماتي:

– لم تدفع دينك بعد.

ماطل في دفع ما عليه، متحجّجاً بتراكم أعباء على ظهره، ولم أستطع معه صبراً.

– سوف أدفع لك في الشهر المقبل.

أخبرني أنّ مجهولاً هشّم زجاج سيّارته، وسيكلّفه تصليحه مالاً كثيراً. «ليت رأسك تهشّم»، كدت أنطق، لكنّه سبقني:

– سأعود إليك حين يُعيد زبونك الأفلام.

لم أشأ أن أراه مُغادراً من دون أن أُبرئ فضولي.

– سمعت أنّ فتاة تعمل في الفندق قد قُتلت!

– الموت قدرنا جميعاً.

استدار إلى الباب خارجاً، يدلّك شعره إلى الخلف ويجرّ حذاءه الموكاسين الإيطالي الصنع، فهو يعتني بهندامه مثل عارضي الأزياء بل أفضل منهم، قبل أن أستوقفه:

– من قتلها؟

ردّ عليّ مستهزئاً:

– عزرائيل.

انتظرت حتى غاب عن ناظريّ ووصفته بالديّوث. تعرّفت إليه حين قصدت الفندق، طلباً للعمل عازفاً، يوم مات زعيم اسمه أنور خوجة، وقد حفظت اسمه لأنّه يُطابق اسم أمّي العائلي. قدّمت كاسيتاً سجّلت فيه مقطوعات، فاستدعاني الحاج ميمون بلعسل إلى مكتبه. نوّه بأدائي ثمّ تلكّأ عندما علم باسمي، ووعدني بإبلاغي إذا توافر منصب شغل لكنّه لم يفعل.

سمعت جلبة تأتي من ناصية الشارع، وكانت الساعة تشير إلى السابعة مساءً. هرعت فزعاً وشاهدت جمعاً يلتفّ حول محلّ الزلابية، الذي أعاف الأكل منه، فصاحبه لا يغيّر زيت القلي سوى مرّة في الأسبوع وقد أصيب بعض مُرتاديه بتسمّمات. تأكّدت ألّا أحد يدنو من وردة الرمال واتّجهت نحو الزاوية التي تجمّع فيها الناس لأتبيّن الطارئ. أمسكت رأسي بين يديّ مذعوراً عندما أبصرت قارورة غاز

بوتان مشتعلة، وشابّ قصير القامة يلقي دلو ماء على النار من دون أن تخمد. زاد الصياح ونادى أحدهم: «عيطوا للحماية المدنيّة»، أحسست أنّ انفجاراً سيقع فتراجعت، حين تقدّم كهل، يعتمر طاقية بيضاء بجبهة محفورة بتجاعيد، غمر رأس القارورة بفوطة مبلّلة، فخبت. قبّل بائع الزلابية يده وتأكّدت من ملمحه أنّه جار حلّ من زمن وجيز ولم أتعرّف إليه بعد.

زفرت وعدت إلى محلّي متمتماً: من يرَ كمال فليُبشر بالنحس.

حميد

وصلت إلى مكتبي، شاعراً بوخز أسفل ظهري من قلّة النوم، بعد تخاصمي مع زينب. «تقضي يومك في العمل وليلك في السهر، بينما أنا حامل، أعتني وحدي بطفلين. متى تتعلّم أن تصير أباً؟»، كلّ مرّة يتعكّر فيها صفوها، ينتفخ صدرها وتفرغ غضبها عليّ، فألوذ بالصمت إشفاقاً على الجنين الذي ينام في بطنها. نسيت أن أبتاع قناني مياه معدنية، في اليوم الفائت، فلامتني: «لن تصبر امرأة أخرى على البقاء معك». حرمتني من النوم بجانبها، فاضطُررتُ للاستلقاء على أريكة الصالون إلى الصباح. تستحق زوجتي دكتوراه في التنكيد.

وجدت في انتظاري ملفّاً يعلوه عنوان: «تقرير تقنيّ مصوّر».

«... على إثر مكالمة هاتفية، تنقّلنا إلى حيّ المُجاهد، لمعاينة الضحيّة المدعوّ فارس سطّوف... الذي لقي حتفه إثر صعقة كهربائية...»

لم أتمّ قراءة التقرير إلى نهايته. قلبت الصفحة لأطّلع على المُرفقات، مدركاً أنّني لم يسبق أن شاهدت وجه الضحيّة، الذي أُخذت له صور وهو ممدّد تحت عمود كهربائي. أنا أيضاً هشّموا زجاج سيّارتي. المُخبرون لم ينفعوني في شيء ولم أجد وقتاً لأحقّق

في الأمر، مهموم البال بقضيّة زازا. غيّرت قفل باب شقّتي، وصرفت درّاجي عوينة، الذي اتّهمه كمال بالتعدّي على مُمتلكاته وإهانته وبالعنف الجسدي على بشير، طالباً منه العودة عندما يُستدعى المرّة المقبلة وقد أخبرته بالتهم الموجّهة إليه. لم أعد أمنّي نفسي سوى بأن أتخلّص من حكاية زغواني، التي تُجبرني على الحذر في خروجاتي وعلى تشديد أمن عائلتي، قبل أن أطلّ من النافذة، المفتوحة على مصراعيها، وأبصر حركة السيّارات والمارّة. كم تبدو الحياة هادئة حين ننظر إليها من أعلى! ثمّ عدت إلى ملفّ فارس سطّوف، أعيد التحديق في أنفه الأفطس وجثّته البدينة. ما كدت أنهي أولى سجائري حتّى هاتفني شرطي الاستقبال لإبلاغي بوصول فرحات العديم اللقب.

انتصب أمامي العازف يرفع راحة يده اليسرى في الهواء أداءً للتّحيّة. كان بارز الصدر، بقامته المديدة كحارس مرمى. بشرته حنطيّة وشعره أجعد، عيناه صغيرتان غائرتان، بينما ساعده الأيمن ملفوف في الجبس. رمقته بملمح عابس، مُحرّكاً رأسي إلى الأمام، ثمّ يمنة ويسرة بحركة سريعة، ففهم ما وددت قوله. حدّثني، بصوت متذلّل، عن حادث سير بدرّاجته النارية وقد جبّر الطبيب ساعده أسبوعين.

«اصطدمت بسيّارة بالقرب من المرج»، قال. خمّنت أنّه كان سكرانَ حينها، لأنها المرّة الأولى التي يتعرّض فيها لحادثة مماثلة، بدرّاجته النارية من نوع «بيجو 103» زرقاء اللون، في طريق عودته من شركة المطّاط والبلاستيك، حيث صرف سهرته في ضحك ولعب الورق مع أصدقاء له من عسس المكان. لكنّني احترت كيف أقرّ بيسر بموقع الحادثة. يودّ إقناعي بأنّه واثق من براءته؟

– هذه إذن علّة طلبك إجازة في المرقص!

– بدل أن يسرّحني الحاج تلبية لمشيئة المرحومة.

ترحّمت عليها في سرّي، وقد تسرّب دخان سيجارتي من منخريّ، مصوّباً نظري إلى أسنانه المصفرّة، ثمّ طلبت منه أن يدلي بما لديه عن خلفيّة الشقاق بينه وبين الميّتة، التي عابت أداءه في أيّامها الأخيرة.

لقد قضى فرحات سنوات في العزف مع فرقة هواة، يحيون أعراساً ومناسبات عائلية، يتلقّى نظيرها دنانير وكثيراً من المدائح، متمنّياً أن يُنشئ استديو تسجيل، يُرفقه بمحلّ لبيع الأشرطة المسموعة. لاحقاً قدّمه كمال، الذي يُجاوره في الحيّ، إلى ميمون، الذي لم يتماطل في توظيفه، بعدما اطمأنّ لشهادات بعض معارفه عنه وعن والده بالتبنّي، فتحوّل مع الوقت إلى ذراع زازا الأيمن، لا تفرّط فيه، بل حصل أن ألغت سهرة لها حين أصيب بإسهال، وفجأة انقلبت عليه. رحلت من دون أن تكشف سرّ الخلاف بينهما.

– لم يكن بيني وبينها أيّ مشكل، بل بسبب كمال.

ثم طوى أصابع يده اليسرى، وقد اسودّت أظافره غير المُقلّمة، ولمعت عيناي، فمنذ البداية لم أتوانَ في تعقّب أيّ أثر يجرّ موظّف الاستقبال إلى خانة الشبهة. رغم ما أورده في إفادته فإنّني أودّ تأديبه، ليتعلّم تقبيل يدي. على خلاف كلّ عمّال الفندق الآخرين، تعسّر عليّ ترويضه، وأرى في ذلك حطّاً من قدري.

– ماذا تقصد؟ سألته.

– كانت تصفه بالوغد والحقير ونعوت شائنة أخرى.

تعاطف فرحات مع صديقه من دون أن يتعمّق في بواعث البُغض بينهما. ناشدها أن تكفّ عن شتمه: «له دين عليّ»، فلم تكرّر ذكره. ظنّ أنّ خلافهما قد فتر إلى أن طلب كمال بلعطّار لقاءه في مقهى راحة البال، المُحاذي لسوق ترابا ندو، الذي يعرض أجود أنواع

الشاي على مثقّفين وشعراء وعاطلين. بعضهم يشرب ويفرّ من دون دفع الحساب، لمُحادثته في أمر وصفه بالمهمّ.

بينما فرحات يسرد شهادته، ظننت أنّني أقترب من الخيوط الخفيّة في القضيّة.

– ماذا قال لك حين قابلته؟

– أنّ زكيّة تبتزّه ويريد منّي نهيها عن ذلك.

هل احتاجت إلى مال؟ وتذكّرت المبلغ المُعتبر الذي عثرت عليه في حقيبة يدها يوم مقتلها، هل سلبته من كمال؟

– لماذا ابتزّته؟

تساءلت وأنا أشرّع عينيّ على اتّساعهما وأمدّ شفتيّ مثل صيّادٍ يدنو من طريدة.

– قال إنّها نوت هجر الغناء وتشييد حياة أخرى لها.

لم يقنعني كلامه، مع أنّني لا أنكر أنّها حقدت على موظّف الاستقبال بتعلّة تكبّره مستفيداً من قربه من ميمون، كما حقدت على الشيخة ذهبيّة، لأنّها تفوّقت عليها في الغناء.

– ماذا فعلت لتُساعده؟

– أنبّتها مرّة أخرى فلم تحتمل فظاظة كلامي معها.

لم يغفر لها تطاولها على صديقه، فعابت عزفه أمام مالك الفندق.

– عرفتها طيّبة ثمّ استحالت حقودة.

تلوت في جوفي كلام عبد الرحمن المجذوب: «يا قلب نكويك بالنار وإذا بريت نزيدك/ يا قلب خلّفت لي العار وتريد من لا يريدك». لقد انقلبت طباعها في آخر حياتها مثلما انقلب إبليس على خالقه. حككت قفاي وطفت في المكتب بنظرات حائرة أغمغم كمن يكلّم جنيّاً. لا ريب في أنّ فرحات أدرك أنّ أمراً جللاً يدور في رأسي، قد

تسقط تبعاته على رأس كمال، لكن لم يكن لديه حلّ آخر ليفرّ من الشبهات، عدا الإقرار بكلّ ما يعرف، فقد جاء إلى المخفر مُدركاً أنّني على علم بقطيعته مع زكيّة قبل موتها، وهو مقتنع بأنّ ميمون يحنق عليه رضوخاً لرغبتها، ولن يعود إلى عمله مرّة أخرى.

عدت إلى مقعدي، بعدما تمالكت هدوئي ورمقت محدّثي بنظرة جانبية:

– يبدو أنّك تعرف أشياء لا أعرفها.

لم يستوعب معنى تلك الجملة. ضايقته مثل حصى في حذاء، همّ يستوضح منّي، منكّس الرأس، بصوت مثخن تودّداً، لكنّني رفعت يدي في الهواء، مسدّداً نظرة صارمة نحوه، مشيراً إليه بنهاية الاستماع إليه. وقبل أن يُغادر، خاطبته «سوف نُعيد استدعاءك حين نحتاج إليك».

أتممت تدوين الأسئلة التي أنوي طرحها على الحاج ثمّ على كمال، كلّ واحد منهما على انفراد، لأصل إلى الإجابات التي أنشدها. جالت في ذهني شكوك حول فرحات أيضاً، غير مدرك أنّ خصومي كانوا يعدّون لي، في تلك الأثناء، مكيدة ستغيّر حياتي.

23 سبتمبر

سمعت في الراديو، الذي دأبت عليه تخفيفاً للعزلة، ما جاء في خطاب الرئيس: «التعبئة العامّة لمواجهة الأزمة الاقتصاديّة... ترشيد الاستيراد... إصلاح المنظومة التربويّة... تشجيع الطاقات الشابة...».

أنا أيضاً شابّ وطاقتي مهدورة، قلت لنفسي. وخرجت من البيت، بشعر مسرّح بالفازلين. صادفت سيّارة شرطة أمام جبّانة النصارى، وقد تحلّق أناس بالقرب منها. لمحت مُراهقاً، جلدت الشمس بشرته، سبق له أن تردّد على محلّي، بغرض تأجير أفلام بروس لي، يُسمّى ملّاح، لم يكلّ من مراسلة المسرح الوطني قصد الظفر بدور أو نصف دور بلا جدوى، وكان يمدّ عنقه كأنّه محنّط إلى عنصرَي أمن يشهران جهازهما اللاسلكي، وسألته:

– هل استفاق الموتى؟

– مجهولون نبشوا قبراً.

كلّ يوم أمرّ بجانب ذلك المكان، الذي دُفن فيها فرنسيّون وُلدوا وماتوا هنا، ولم يخطر في بالي أن أدخل إليه. ليس في نظري سوى أرض مهجورة، لا يزورها إلّا مراهقون يُواعدون أطفالاً مقابل مالٍ، أو مسطولون يتسلّون بتهشيم الشواهد الرخاميّة، عكس حال مقبرة

لالّة عمّورة، التي تُنسب إلى وليّة صالحة وهبت أرضها للموتى، فتعجّ بالزوّار والمتعبّدين وبحكايات العثور على طلاسم بين القبور.

– هل جنّوا؟

أدار ملّاح رأسه إليّ. طرح مخاطه وهو يسدّ أنفه بإبهامه وسبابته ثمّ مسحهما على فنيلته البرتقالية الحائل لونها من كثرة الاستخدام:

– نشلوا طقم أسنان من ذهب من العظام.

– لم تكفهم سرقة الأحياء، فسرقوا الأموات!

نأيت بنفسي، غير مكترث بما يدور هناك، قبل أن أمتطي الحافلة، بجوار دوّار الإبريق، ووجدت مقعداً خالياً عكس أيّام الأسبوع الأخرى حيث الواقفون أكثر من الجالسين. لم أنزل منها سوى في محطّتها الأخيرة قرب المستشفى، الذي بُني قبل أربع سنوات. فقبل ذلك واظب الناس على التداوي في مصحّة أشرف عليها آباء بيض. واصلت مشياً، متجاوزاً حيّ المنظر الجميل، حيث بنت شركة سوفياتية عمارات رمادية اللون، ذات شقق تشبه علب كبريت، يشغلها ممرّضون وموظّفون مع قليل من الأطبّاء، إلى أن بلغت حيّ 20 أوت، الذي ينتهي بمسجد، ثمّ مرج تناثرت فيه أشجار ونباتات بريّة، مع أكوام قمامة هنا وهناك، ويحدّه طريق سيّارات، يفضي إلى شركة المطّاط والبلاستيك. استأثر بي فضول لمعرفة المكان الذي عُثر فيه على جثّة مُغنّية الفندق، لكنّني لم أحدّد ذلك الموضع ولا أمّي أفادتني حين سألتها قبل خروجي. رأيت صبية يتصايحون ويلعبون فوق كومة رمل، بينما مساكن من قصدير تتبعثر خلفهم. هل يُعقل أن يكون أحد ساكنة المرج متورّطاً أيضاً في القضيّة؟ لم أشف فضولي، فقرّرت أن أعود من حيث أتيت.

اجتزت مرّة أخرى حيّ 20 أوت، متفحّصاً بيتاً يحمل رقم 3/18، فهو عنوان المُشتبه فيه بشير لبْطم. بيت تعلوه عجلة مطاطية درءاً للعين، مع ثلاث نوافذ تطلّ على الخارج، مسيّجة بأطر حديدية مُزخرفة، وقد كُتب على حائطه: «ممنوع رمي الأوساخ هنا». هندسته توحي أنّ أهله من الميسورين. يلتصق بصفّ من البيوت بذات العلوّ المتوسّط. رحت أحثّ خطاي إلى حافلة جاورت المستشفى، أوصلتني إلى مركز البريد، ثمّ سرت إلى وردة الرمال وقد انتصف النهار.

وجدت مشهداً محيّراً؛ أحدهم حاول كسر قُفل باب المحلّ الحديدي: «يا لطيف!». قلّبت القُفل بين راحتَي يدي وأبصرت آثار ضربات بآلة حادّة، لم تفلح في تحطيمه. لم يسبق أن سمعت عن محاولات سرقة وقعت في شارع «الأوراس» الذي استأجرت محلي فيه، أو شارع «أناتول فرانس» كما يسمّيه كبار السنّ الذين عايشوا الاستعمار. ماذا أراد المُعتدي من محلّ فقير؟ رغم أنّ القُفل استمات في مكانه تسارعت نبضات قلبي. فهمت أنّني مستهدف وعليّ أن أتصرّف.

رمقت خربشة على الحائط، بطلاء أبيض: «إبراهيم ولد البيّاع». امتقع وجهي وصعد الدم إلى رأسي من الإساءة إلى أبي ووصفه بالبيّاع أي «الخائن». نظرت من حولي والمحالّ المُتاخمة مغلقة، ثمّ دخلت، متفقّداً الفترينة وصندوق المال، أشرطة الأفلام وجهاز تشغيل الفيديو، كذلك أغراضي الأخرى في الخلفيّة، متأكّداً من أن لا ضرر لحق بها، فالأمر لم يتعدّ محاولة سرقة فاشلة. برقت في ذهني صورة بوستّة: «سيندم على اليوم الذي عرفني فيه». ظللت ربع ساعة أذرع مكاني، مثل ذبابة حول خراء، قبل أن أتوجّه إلى قفّال، يُقيم في حيّ مُجاور، من شدّة سمنته يصفه الناس بالبرميل. أخرجته من بيته في يوم راحته، قصد تدعيم الباب بقفل ثانٍ.

– كثروا السراق.

خاطبني بتأتأة وهو يلوك علكة.

– أنت أيضاً تعرّضت لسرقة؟ سألته.

– سرقوا صيدلية حذا الجامع الكبير، الأسبوع اللي فات.

استعجلته للقيام بما طلبته منه، نفعني بطلاء أخضر وكلّفني أجرة عالية.

– المال يذهب ويجيء.

محوت ما كُتب على الحائط وأصابعي ترتجف، ثمّ شغّلت كاسيت لتلاوة القرآن واتّكأت على منضدة المدخل، مُحدّقاً في أسفلت الشارع، فقد آمنت بالمثل: «كُلْ ما يُعجبك والبس ما يُعجب الناس». أمارس ملذّاتي في الخفاء وأحرص على مظهر التقيّ أمام الآخرين، وقد اكتظّ بالي قلقاً. هذه قضيّة رجل لرجل، يجب أن أؤدّب بوستّة بنفسي. لكنّني لم أطمئنّ لقراري، فهو لا يُبادر إلى شيء وحده. يكون دائماً مرفقاً بمعشر أصحابه، ومن المُرجّح أن يحرّضهم عليّ، فتتفاقم الحكاية.

استقرّ رأيي على تحرير شكوى ضدّه، «لكن شقيقته محامية سوف تُبرّئه!». تصوّرت أنّني بلغت حلّاً بأن أُساوم نورة على نيل شهادة مكتوبة من أبيها تُساعد أمّي في تحصيل بطاقة أرملة شهيد، أو توريط شقيقها في ما لا تُحمد عقباه، مستلّاً سيجارة، من ماركة «الهقار» المحليّة، من جيب قميصي العلويّ، منتظراً نهاية صلاة الجمعة ووصول الزبائن.

فضيل

منذ أن هشّمت زجاج سيّارة مفتش الشرطة، بمعيّة رفاقي، لم تعد دوريّات المراقبة إلى الحيّ. لم أهتدِ إلى حيلة أخرى في الانتقام من عناصر الأمن، الذين كانوا يأتون على حين غفلة، في منتصف النهار أو في ساعة المغرب، يأمروننا بوقف لعب الدومينو أو الورق والاصطفاف بينما وجوهنا تُقابل حائطاً. يفتّشون جيوبنا، يعتقلون من يجدون معه قطعة حشيش أو سكّيناً أو شفرة، وحميد ينظر إلينا منتعشاً بمشهدنا ونحن نطأطئ رؤوسنا في مذلّة. لطالما توسّلنا إليهم أنّنا لسنا سوى الحلقة الأضعف في سوق الممنوعات، لأنّه لا شغل لنا نسترزق منه، لكنّهم جعلوا منّا شغلهم الشاغل.

قذفت حجرين، الواحد منهما بحجم باذنجانة، على زجاج سيّارته، الأولى حقداً والثانية انتقاماً لصديقي لُطفي بشيش أو «فارمسيان»، الذي اعتُقل بتُهمة الاعتداء الجسدي، مع أنّه لم يُدافع سوى عن نفسه أمام نجل مدير شركة المطّاط والبلاستيك، الذي اقتنى منه علبة سيجار كوبي، مُمتنعاً عن دفع ثمنها، فتحوّل شجارهما إلى نزف في فخذ غريمه، على أثر طعنة بشظيّة زجاج. قضيت ليلتي تلك مختبئاً تحت نخلة في الوادي، الذي تصبّ فيه مياه جبال بعيدة،

مختلطة بمجاري الصرف الصحي، على إيقاع نقيق ضفادع وهوشة قطط تقتسم أكياس نفايات، ظنّاً منّي أن صديقي اكتُشف أمره في ترويج محظورات، وقد يشي بي، قبل أن أعلم في الصباح التالي علّة توقيفه وأعود إلى البيت، مدّعياً أنّني بتّ عند صديق ردّاً على سؤال أمّي، وأنّني «كنت متعباً ونمت باكراً»، إسكاتاً لإلحاح إبراهيم درّاس.

فارمسيان في الحبس وأخته تسرح. «ربّـي يـفـرّج»، لطالما أرّقتني حالها، وألزمت نفسي حفظ سمعتها في غيابه. يعلم أنّها تُغنّي في مرقص، بما يُناقض الدين، لكنّه لم يقدر على ردعها. يقول إنّ من يُصاحبها خارج زواج أو يجرؤ على المساس بما بين فخذيها فإنّه يمسّ بكرامته. هي لا تعرفني لكنّني أعرف سرّ أسرارها ولون سروالها الداخلي. كلّفت شابّاً بأن يدرأ عنها المتطفّلين أو من يودّون إغراءها، أدفع له بقشيشاً مُقابل أن يمدّ ساعديه في طرد من تسوّل له نفسه الظنّ أنّها مقطوعة من شجرة، «الله يهديها».

أشعر بأنّني مدين لفارماسيان، فقد تعرّفت إليه في سوق ترابندو، تقاسمت معه النكات والصعلكة في الأمسيات الحارّة. كنت أغتسل معه في برك الوادي، التي لا ينقضي عام من دون أن تخطف روح طفل أو اثنين. ندخّن ونشرب تحت شجر نخيل بلا تمر. الجميع ينحني للُطفي بتسعين درجة بمن فيهم أنا. ذات مرّة وبينما نحن جالسان، نتداول عقب لفافة، شاهد جرواً بربرياً مشرّداً، بلون بنيّ فاتح، فنادى عليه، ثمّ صفّر له، لكنّه لم يستجب، فقام على الفور، طعنه فعوى الجرو. احتضر دقائق ومات، ثمّ قطع ذيله. حفرت له قبراً والدم يكاد يتجمّد في عروقي.

– لماذا قتلته؟

– رأسه خشين.

لا يرى لطفي غضاضة في معاركة الكبير أو الصغير. ذات مرّة كاد يخنق رجلاً بطول مترين في السوق، بجنزير درّاجة هوائية، بعلّة أنّه اصطدم بكتفه من دون أن يعتذر منه، بينما ظلّ الناس يتفرّجون من دون أن يجرؤ أحدهم على التدخل. علّمني تجارة الحشيش، واندهشت من شراهته للأكل كما لو أنّ معدته بالوعة. شاركته السطو على بيوت، آخرها بيت عجوز، تسلّلنا إليه ساعة الظهيرة، بينما كانت صاحبته تغطّ في قيلولة. ظنّنا أنّها تخبّئ في خزانتها مالاً وذهباً، لكنّنا لم نعثر على شيء ذي بال، فانتقم منها فارمسيان بأن جرّدها من ثيابها وأوثق يديها ورجليها. اقتلع أظفر إبهامها بكُلاّب، وتركناها مغمىً عليها. وقد أقرضني قصد استئجار مرأب، أحوّله في الليل إلى قاعة عرض، بعد أن أقبض من كلّ واحد من المتفرّجين ثمناً مجزياً، أصرفه في شراء ملابس جديدة وبزور لطائر الحسّون الذي أعتني به، مع تكديس بعض منه على أمل أن يُتاح لي شراء تأشيرة إلى الخارج أو أمتطي باخرة سلع نظير مقابل أدفعه لأحد العاملين في الميناء، «الله يفتح لي باب الخير». خلقني ربّي لأهاجر، وكلّما أنّبتني أمّي: «فرنسا فيها غير نساء عاريات ورجال يشربون الخمر»، ينشط لساني في ذمّ والـدي، الـذي فارقها ويُعرض عن معاملتي كفتى ناضج: «يشربون الخمر بصحّ لا يتخلّون عن أولادهم».

اقتعدت حجراً، على ناصية الحيّ، الذي تتقابل فيه بيوت تلوّنت واجهاتها باخضرار نباتاتها وشجيراتها، ورحت أقصّ أظافري بشفرة حلاقة عدا أظفر الإصبع السادسة، فإنّني أعتني به لحاجتي إليه، وأهزّ رأسي تحيّة للعابرين. فكلّ السكّان يعرفونني. بعضهم يحيّونني باسمي أو كنيتي الأولى بوستّة أو الكنية الأخرى «الفأر»، بسبب قواطعي التي تبرز للأمام. خاصمت في البدء كلّ من تلفظّ بكنيتَيّ، لكنّني تعوّدت عليهما مع الوقت، وعاد إلى بالي الاستدعاء الذي وصلني من الشرطة.

لا شكّ في أن إبراهيم درّاس اشتكى بي، فقد حاولت تأديبه بأن جرّبت كسر قفل باب محلّه، من دون نيّة منّي لسرقته، وخربشت كلمات على الحائط إغاظة له، فقد سمعت أنّ والده تعاون مع الاستعمار، لكنّ الأمر انقلب عليّ، «تخلّطت وتجلّطت». أعرف أنّ وصول استدعاء يترتّب عنه قدر غير محبّب. حميد يعرفني ويعرف أقراني، لن يتردّد في إيداعي السجن. ترجّيت أختي نورة أن تتصرّف من دون أن يعلم والداي: «ديري فيّ خير». استدررت عطفها، بينما هي مشغولة تكلّم القطّة، التي بالت على الزربية، تُشير إلى مكان قضاء حاجتها، مثلما يكلّم عاقلٌ رضيعاً. شاهدتها تقفل مكالمة بيد مُتشنّجة ثمّ تخرج على عجل، بعدما وعدتني ألّا تعود إلى البيت إلّا وقد حلّت المشكلة. كنت صديقاً لإبراهيم، وفي ذلك الخميس الذي اعتُقل فيه فارمسيان، عبّأنا رأسينا بالجعة. ضحكنا مثل بهاليل، ولم تطل الحال حتى انقطع حبل الوصل بيننا. أودّ أن أنفذ من ورطة الاستدعاء الذي وصلني ثمّ أصفّي حسابي معه وجهاً لوجه... «سوف نرى من الفحل ومن الجبان يا ولد البيّاع».

اتّهمني بحرق سيّارة صاحب محطّة البنزين، وأنا بريء من القصّة. خاصمت مالكها سي ميلود لأنّه امتنع أن يبيعني قارورة غاز بوتان، بعدما وقفت في طابور ساعة كاملة، تحت شمس أغرقتني في حمّام عرق، بحجّة أنّ القوارير التي بقيت حُجزت لزبائن آخرين، مما أغضبني، فتظاهرت بشراء صفيحة مازوت. امتطيت درّاجتي النارية وسعيت إلى الفرار من دون دفع ثمنها، لكنّني وجدت نفسي لقمة بين لكمات عاملين اثنين، نجوت منهما بأنف يقطر دماً. تدخّل صديقي العيفة، بعدما انتشى من استنشاق عبوة غراء مصنوع من موادّ مخدّرة، بأن أجّج ناراً في السيّارة ليلاً، من دون أن أطلب منه

ذلك. «حاب تروح للحبس؟»، صحت به. «يستأهل أكثر»، دافع عن فعلته وقد فاحت رائحة جيفة من فمه.

رأيت بوكريشة الشكّاء، الذي أدرك عقده الخامس، يرشّ ماءً أمام دكّانه، بظهره المنحني وقامته المتوسّطة. «الماء مقطوع من خمسة أيّام والّا عندك بئر!»، خاطبته ساخراً. «هذا ماء زمزم»، أهداه له قريب له عاد من العمرة. يؤمن بأنّ ذلك الماء يجلب الزبائن ويدرأ الحسد، لكنّه لا يدرأ عنه اللصوص، وأنا واحد منهم. أتذكّر حين كنت أملأ فمي حلوى في غفلة منه، أو أستلّ رغيف خبز زيادة عن الأرغفة التي أدفع ثمنها، أو سيجارة أو قطعة صابون، «اللهم اعفُ عنّي». قفزت جرادة أمامي فأسقطتها براحة يدي، مُستحضراً ما حكته لي أمّي عن أنّها أكلت جراداً في صغرها: «كنّا نقليه مع الملح، ونمضغه». أفضّل تحمّل الجوع على أن أقرمش تلك الحشرة. مجرّد مظهرها يبعث في قلبي اشمئزازاً، مع أنّني استرقت السمع إلى الإمام في خطبة له يتحدّث عن الجراد بالحُسنى. ذكر أنّ هناك آلاف الأنواع منه، البنيّ والأحمر والأصفر، وقد ورد ذكره في القرآن. هل سيُعذّبني الله لأنّني أسحقها حيثما وجدتها؟

ساورني أن أسير إلى سوق ترابندو، أشفي فضولي في السلع التي تُعرض، أو أقابل أصدقاء لي، عندما شاهدت كمال من بعيد، فناديت عليه «كمال الفنّان»؛ أشبّهه بممثلي أفلام الستينيات. أعتقد أنّه جاء لاقتناء لفافة تغمر عقله نشوة، ثمّ تذكّرت أنّه أقلع عن تدخين الحشيش. ربّما جاء يطلب مُساعدتي في تدبير قطع غيار لسيّارته، أؤمّنها له من تجار الشنطة. توثّقت علاقتنا منذ عامين. يعهد إليّ أغراضاً يختلسها من فندق الصحراء، من أوانٍ ووسائد أو بطّانيات، فأبيعها في سوق ترابندو، ونقتسم الأرباح بمنطق ثلاثين بالمئة لي مقابل سبعين بالمئة له.

– ما زلت تحرس الحيّ؟ ضاحكني.

– من غيري يفعل ذلك؟

استغلّ استراحة من الفندق، بنية زيارة سيدي زرزور، الذي شاعت شهرته أكثر من رابح ماجر. يتهاطل عليه مُريدون من مدن البلاد أجمع، بل من المهجر أيضاً: نسوة يردن استمالة خطّاب أو أصابهنّ عقم يردن الشفاء منه، رجال يبتغون نسوة أو يرجون خلاصاً من أرواح تسكنهم كما يقولون، طلبة ينشدون النجاح في امتحان أو تجّار يرغبون في ربح أو مراهقات يتباكين ليساعدهنّ في الإجهاض بما يُخالف شرع الله، وفلّاحون يأملون عام حصاد أو حوامل يرغبن في إنجاب ذكور. لا أحد يعرف من أين جاء زرزور لكنّ الجميع يتّفقون على أنّه صاحب بركات، فقد خطّ تميمة لابنة أخت كمال وتزوّجت. وجاء موظّف الاستقبال هذه المرّة يرغب في مثلها من أجل أن ينعم بالرفاه في مستقبله، لكنّه وجد بابه موصداً بقفل حديدي، فخال أنّ المشعوذ قد غيّر عنوانه، وغاب عنّه أنّه بات يُقيم في السجن.

– علاش؟

– قتل امرأة.

– الله يعفو عنه.

ثمّ سألني عن حال بشير.

– خجلت من أن أذهب إلى بيتهم وأسأل والده.

سردت عليه ما سمعته من أمّي، عن الحالة المزرية التي يمور فيها والداه.

– ربي يفرّج.

ثمّ دار حديثنا بين مشاغل الحياة إلى أن أخبرني عن افتقاره لأفلام خاصّة، تسلّي همومه، كما تعوّد اقتناءها من وردة الرمال، الذي تشاركنا في التزّود منه بالأشرطة.

– زرت بريهوم ولم أجد عنده جديداً.

اندهشت ممّا سمعته وهو يمدّ ذقنه إليّ:

– ما زلت تمشي عنده؟

رويت له حين نادمت إبراهيم درّاس، قبل اعتقال ابن خالتي بيوم واحد، وسمعته يكيل الشتائم لكمال، بحجّة أنّه لم يدفع ديناً عليه، وقد تهدّد بأن يحطم سيّارته وينتهك بيته.

– هو الذي تسلّل إلى منزلي؟

رفع كمال رأسه إلى سماء بأزرق فاتح يعكّر النظر إليها أسلاك كهرباء متقاطعة في ما بينها، يقرص جلدة عنقه ويرغي: «هكذا تُجازيني يا ولد البيّاع!».

25 سبتمبر

انتبهت إلى أنّ المُناضلين في حرب التحرير كانوا ينشطون بأسماء مستعارة، لكنّني لم أعرف كنية أبي التي تجهلها أمّي أيضاً. وعبرت شاحنة البلدية تهدر مثل مروحيّة، تقذف دخاناً مبيداً للحشرات، ضايقتني رائحته القويّة التي تشبه رائحة زيت محترق. هل قضوا على الجراد لينشغلوا بالصراصير والبقّ؟ شتمت السائق في سرّي ومن معه: «اللهم سلّط عليهم طيراً أبابيل»، فقد طافت شائعات عن وقوع اختلاسات في ميزانية البلدية وبتّ لا أفوّت فرصة للعن العاملين فيها.

أشعلت سيجارة، واقفاً أمام باب محلّي، أراقب حركة المارّة، فلمحت طفلة نحيفة البدن بوجه خالطته سُمرة، ترتدي ثوباً أخضر مغبرّاً، صندلاً مطاطياً، وتحمل كيس خيش على كتفها، خافضة رأسها كما لو أنّها تعدّ بلاطات الرصيف المنقّطة ببصاق. هذه ثالث متسوّلة ألتقيها اليوم، فقد كثر المتسوّلون. ينام الناس ويستيقظون ليجدوا في الصباح التالي كتيبة متسوّلين جدد، يشغلون الساحات العامّة أو يتجمّعون أمام المساجد. في بعض الأحيان عائلات بأكملها تمدّ أيديها للمُحسنين، بصوت عجيج. تكاد هذه المدينة تصير عاصمة المتسوّلين، لا يختفون منها إلّا حين زيارة واحد من المسؤولين

القادمين من العاصمة. ما إن وصلت تلك الطفلة أمامي، حتّى مررت يدي على رأسها المعصوب بخرقة مبلّلة بالخلّ حذر الشمس، فارتبكت من تصرّفي وخالت أنّني أضمر لها أمراً شائناً.

استغربت توجّسها فسعيت إلى طمأنتها بأن ناولتها قطعاً نقديّة سحبتها من جيب بنطلوني.

– دسّهم عندك، خاطبتني ومدّت خطاها عندما استوقفتها:

– وش عندك في الخيشة؟

– خبز يابس.

– علاش؟

– للشياه.

اعتذرت لها لأنّني خلطت بينها وبين أولئك الذين يُرسلهم أولياؤهم لصيد صدقات الخيّرين.

– شدّي الدراهم.

اقترحت عليها أن تشتري بوظة، فالحرّ لا يزال مخيّماً والناس لم يتوقفوا عن الإقبال على المثلّجات، أو حلوى الصوف أو حلوى القطن أو لحية جدّي، كلّ واحد يُسمّيها كما يشاء، وقد زاد سعرها عقب شائعة ندرة السكر. قبلت عرضي وغيّرت موقفها منّي، ثمّ طلبت منّي بصوت خنّ:

– تعرف ديار عندهم خبز يابس؟

– الناس هنا يرموه في لكناسة.

صمّمت على أن تأتي مستقبلاً في الصباح الباكر، تجمع حاجتها من سِلال المهملات، قبل وصول شاحنة النفايات، من دون حاجة لطرق الأبواب.

سألتها عن اسمها.

– لويزة حديري، أجابت.

استملحت براءة وجهها وذكّرني اسمها بعمّتي، التي تبرّعت كشأن أخريات بحليّها عقب الاستقلال، في مساعدة الدولة على النهوض على قدميها، أملاً منها بأن تنعم بمقابل حين يستقرّ وضع البلاد، لكنّها لم تنل شيئاً لا هي ولا أبناؤها، فندمت على فعلتها. كثيراً ما عطفت عليّ في صغري حينما كنت أزورها. تغمر جيوبي بالمكسّرات وأسمعها تردّد أغاني تراثيّة، لكنّها على غرار غيرها من أقاربي، تتمنّع عن المجيء إلى بيتنا، بحجّة أنّنا نقيم في حيّ يعجّ بالمنحرفين.

– وين تسكنين؟

أنبأتني بعنوانها في المرج وأشاحت بوجهها ساهية، تنظر إلى درّاجة نارية زرقاء اللون من نوع «بيجو 103»، تقطع الشارع، فتحيّنت الفرصة:

– بشير لبْطم، تعرفيه؟

– راه في الحبس.

– علاش؟

قلت متظاهراً بالاستغراب كما لو أنّه صديق لي.

– قتل امرأة.

ثمّ أخفت فمها براحة يدها، كما لو أنّها نطقت إثماً. شدّدت قبضتها على القطع النقدية وتابعت السير، كي لا أسألها أكثر. قلت لنفسي وأنا أحكّ قفاي: «تظنّني مغفّلاً يا بوستّة وأصدّق أنّ ابن خالتك سافر! سوف ألحقك به في السجن».

ميمون

أضحيت لا أطيق رؤية حميد، ولا مُخبريه الذين يطوفون بالمكان. يترصّدون مواعيد دخولي وخروجي، كما لا تفوتهم مراقبة تحرّكات السيّاح، الذين تضاءل عددهم، ولن يزداد سوى مع اقتراب رأس السنة. «يظنّ أنّني أخاف منه»، زفرت وأنا أشدّ جلدة عنقي بين الإبهام والسبّابة كمن يُريد انتزاعها مثلما انتزع موت زكيّة راحة بالي. لا أستبعد أنّه يتجسّس على مكالماتي الهاتفية أيضاً. وثقت به حين حلّ بالمدينة قبل ثماني سنوات، منكسر الخاطر، مُستبعداً من عمله السابق في إحدى ضواحي العاصمة. وطّدت صداقتي به وعهدت إليه حماية مخزني للأغذية، أوصيت مُحافظ الشرطة به خيراً، وكافأته على تعاونه بأن فتحت له ولعائلته أبواب الفندق، لكن منذ مقتل زازا «طال جناحاه».

استمع إلى كلّ المُوظّفين ووثّق بصماتهم، من غير أن يطلعني على خطّته في التحرّي، ومن دون أن أتعافى من صدمة سلوكه الخشن معي عندما عدت من سطيف. أوقفني شرطي، دقّق النظر في وثائقي وألزمني بعدم التحرّك إلى أن يتّصل بمسؤوله المباشر. عاملني كما لو أنّني مطلوب للعدالة، ثمّ أمرني بنبرة صارمة بانتظار حميد في مكتبي.

حدث كلّ ذلك أمام ناظري مهدي. شاهدت فخذَي ابني ترتجفان مثل غصنين طريّين. ظننت أنّ زوجتي الياقوت اختلقت تهمة ضدّي بعدما بادرتها بنيّتي الزواج ثانيةً، كأن تفضح أكوام الأوراق النقدية التي أكدّسها في خزانتنا، نظير عدم ثقتي بالبنوك. ظننت أنّ تلك اللعينة نصبت لي فخّاً. وحين علمت بالتفاصيل تالياً ندبت حظّي أن راهنت على مفتّش شرطة أرعن. كيف تجرّأ على الشك فيّ؟ أو يشكّ في واحد من العاملين في فندقي، الذين انتقيتهم كما ينتقي سلطان مستشاريه، بعد فحص سيرهم وحسن سلوكهم. يستحيل أن يقترف أحدهم فعلاً شنيعاً، شاعراً بغصّة في قلبي. لن تبرد ناري إلّا إذا أعدته صاغراً مثلما عرفته أوّل مرّة.

عزمت على هجر أمّ أبنائي، التي تقدّمت بها السنّ، في لحظة ضعف وزيف، ثمّ أوفدت لها كمال يترجّاها أن تعود إلى البيت. حدث ذلك بعدما وثقت بزازا، التي تكرّرت سهراتها في ملهى وسط المدينة، الذي تتلاقى فيه كبار الشخصيات، بعدما أفلحت مرزاقة في إيصالها إليه. خُيّل لي أنّ زواجي العُرفي بها، من دون عقد مدنيّ، سوف يضمنها إلى جانبي، فلا يخطفها رجل آخر منّي، يتيح لي أن أوفدها في التوسّط لي عند أصحاب القرار لأشاركهم تسيير البلديّة، التي لم أفلح في الترشّح إليها. المغفرة لها على كلّ حال. لم يُفارق بالي قلقي من اختفاء الفستان الأبيض من غرفتها، الذي نوت ارتداءه ليلة اقتراننا. كلّفني ثمنه راتباً من رواتب عمّالي. كانت الوحيدة التي وظّفتها من دون أن أتقصّى ماضيها، من غير أن أعلم أنّها فرّت من بيت أهلها وأمن بلدتها كان يبحث عنها. ساقتني إليها نضارة وجهها واستلذذت كلامي معها. كنت كلّما أحببت مُداعبتها، أشرت إلى الندبة التي تسكن أسفل فكّها: «زادتك جمالاً». ظننت أنّها تضمر لي محبّة وأوحت لي أنّ فارق السنّ بيننا لا يُضايقها.

– أنا في سنّ أبيك.

– أتمنّى أن تنسيني فيه.

– لا تُحبينه؟

– بل هو الذي لم يُحبّني.

لم أنسَ اكتئابها يوم علمت بوفاته، فأضربت عن الغناء أسبوعين كاملين. كنت حينذاك ما زلت أظنّ أنّها من والدين تطلّقا وتخلّيا عنها.

كاشفت الياقوت عن نيّتي الزواج بامرأة أخرى، من دون أن أفشي لها اسمها ومهنتها، فاشتعل لسانها بكلام غير محبّب. «أنت حقير وعميل ولم تُطلق رصاصة واحدة أيّام حرب التحرير»، ردّت عليّ.

كلّ هذا العمر الذي قضيناه معاً لم نستطع أن نحبّ بعضنا بعضاً. لم أقاسمها أسراري ولم أأتمنها على شؤوني. تزوّجت بها في العام الثاني من الحرب، فعندما اكتشف الفرنسيّون بئر بترول في حاسي مسعود اكتشفت بئر أنوثتها، من دون أن تتمّ الخامسة عشرة من عمرها، رضوخاً لرغبة أمّي في كنّة من عشيرتنا. اقتسمت، في البدء، مع زوجتي، غرفة بسقف مشقّق يتسرّب منه ماء كلّما صبّ مطر، نأكل خبز شعير إذا جعنا. لاحقاً تعرّفت إلى ابن عمّها سي محفوظ أو «بابيون» كما يُطلق عليه، لحرصه على ارتداء ربطة عنق الفراشة، ولم تكن شفتاه تكفّان عن مصّ سجائر باستوس، وألحقني بجيش التحرير، غداة صرخة شارل ديغول في العاصمة: «لقد فهمتكم!». الصرخة التي فهمنا منها أنّ الاستعمار سوف يطول. قدّمني بابيون إلى بلقاسم بلعطّار، الذي عمل بستانياً في فندق الصحراء، زمن الاستعمار، ينقل الرسائل والأخبار بين المُناضلين ويتحرّى نشاطات الخصوم، بينما تكفّلت بجمع تبرّعات بالفرنك من أصحاب المال. ثمّ ارتحلنا إلى

هذا البيت الواسع عقب الاستقلال، الذي سكنه قبلنا معمّرون. صرنا نأكل خضراً وفواكه وكرواسون. أنجبت منها بنتين تزوّجتا وكلّ واحدة منهما تسكن بيت قرينها، ونجلاً أكبر يعمل مدّرساً، يقيم مع زوجته وابنه. أمّا أصغرهم مهدي، فقد أتمّ التاسعة عشرة وفاتحني برغبته في خوض التجارة.

«أكمل دراستك، ثمّ أساعدك»، عرضت عليه. ساءت نتائجه في الثانوية وهو يكرّر مُحاولاته لإقناعي بمساعدته في افتتاح محلّ بيع أشرطة موسيقيّة. يعدني بأن ينجح في مشروعه، ولن يثقل كاهلي بعدها. زاد طوله وتخطّى المتر والثمانين سنتمتراً، وأنا على اقتناع بأنّه كلّما زاد طول الرجل زادت بلاهته. أقوم بتجريبه، من آن إلى آخر، لأعرف قدرته على الصبر من عدمها. رافقني في سفري إلى سطيف. تلك المدينة المنبسطة على هضاب ويكسوها ثلج كلّ شتاء، مثل صوف مغسول، وأبلى البلاء الحسن بشطارته وسرعة بديهته. أفصحت له، في طريق الذهاب، عن رغبتي في زواج ثانٍ، فردّ عليّ بتؤدة: «أنت أدرى بمصلحتك».

خلت أنّه سيجنح بفطرته إلى أمّه، لكنّه ركن إلى جانبي، إلى الأقوى. هذا أهمّ درس تعلّمته وعلّمته لأبنائي. تنبّهت إلى ذلك في صيف 1965. حينذاك تعاهدت مع بلقاسم، الذي عاضدني في شراء الفندق، مستفيداً ممّا كدّسته من تبرّعات المحسنين والأثرياء لحرب التحرير، على الوقوف في وجه رئيس البلد الجديد، قبل أن توقفنا الشرطة وأراجع موقفي في المُعتقل. سرت في فلك الأقوى فأُطلق سراحي. استرددت الفندق أو «صحرائي» كما تحلو لي تسميته، ولن أنعم بنوم إلّا إذا تسلّقت الدرجات لأصير من القابضين على حبل القرار من خلف ستار.

لم أتوقّع أنّ إقامتي في سطيف ستطول أكثر من يومين. صارحت الياقوت بما في نفسي، وتواريت متيحاً مهلة لزكيّة لتحضّر نفسها للزّفاف، وقد قبضت منّي مبلغاً معتبراً قصد شراء ما تحتاج إليه من حليّ وزينة. لم يكفّ موظّف الاستقبال عن الاتّصال بي في غيابي، وإبلاغي بالصاعد والنازل، وتأخّر المهرّب الذي قصدته، في تسليمي كميّة الأدوية التي تخلّفت عن موعدها، على إثر دوريّة حرس مفاجئة على الحدود مع تونس. لم ألتق به سوى في اليوم الثالث من وصولي. أرسلت الشحنة الأولى في اليوم التالي مع ابني، موهماً إيّاه أنّني أنوي فعل خير لا أكثر، فسلّمها بدوره إلى كمال، فأحالها على المخزن الذي أخفي أمره عن عائلتي، ثمّ نقلنا معاً الشحنة الثانية في اليوم الذي تلاه. وفي مدخل المدينة كان الأمن يترقّب عودتي، فتأخّرت في إيصالها إلى مخبئها مع الهزيع الأوّل من الليل، على عجل، حامداً ربّي أنّ الشرطة لم تفتّش حمولتي حين توقيفي ومصدوماً بخبر مقتل زازا. أزعجني أنّ كمال لم يُسارع في إخباري بالنبأ، لكنّه كان يومها مشغولاً فوق اللزوم. دائماً ما تستّرت عن عيوبه مستحسناً إخلاصه في عمله. وجّهته لمعهد الفندقة، تخرّج ووظّفته. علّمته كيف يعقد ربطة العنق وفضّلته على زملائه الآخرين، مع أنّني لم أنس مهزلته يوم سكر وتحرّش بسائحة إيطاليّة... «لن أعيدها مرّة أخرى»، قال لي بصوت ذليل حين وبّخته.

حسمت أمري بأن أعجّل في كتابة شكوى ضدّ حميد، «كلّ من طلع ينزل، وكلّ من سمن يهزل»، زامّاً شفتي إلى أنفي. نفى تسريب خبر ما وقع لزكيّة إلى مُراسل جريدة «الشعب»، لكنّني لم أصدّق كلامه، فقد أوقعني في حرج مع مدير ديوان السياحة، الذي اتّصل بي من العاصمة مستفسراً، فلم أجد سوى إيهامه بأنّها ماتت في تصفية

حسابات عائليّة. «ردّ بالك تخسر زبائنك»، حذّرني، فنجاح فندق أو فشله لا يتوقّف على طبيعة خدماته بل على سمعته.

من قتل زكيّة نوى الإساءة إليّ. لا أحد ينوي على أمر كهذا أكثر من سي ميلود، لأنّني امتنعت أن أبيع له الفندق، لكن «من يضمن أنّ ذلك المفتّش لا يد له في موتها؟»، تنفّست بعمق مردّداً اسم ربّي، متنشّقاً رائحة التبغ التي ملأت مكتبي. سبق أن صارحتني المرحومة بامتعاضها من إلحاح حميد في الانفراد بها. ابتلعت قرصاً أوصاني به اختصاصي القلب وساورني بأنّها جرحت عزّته بالنفس، من إعراضها عنه: «لا بدّ أنّه كان شريكاً في مصرعها».

26 سبتمبر

لم يستعصِ عليّ أن أفهم باعث مجيء نورة، بخدّين يخلوان من مكياج وشفتين متورّمتين قليلاً كما لو أنّ بعوضة لدغتهما.

«هل جننت؟» قالت لي. تكهّنت أن تستعين بقاموسها الذي تتلفّظ به حين تغضب، كأن تقول لي: «قـوّاد» أو «سأقطع قضيبك وأحشوه في أنفك». فالكلام البذيء يزيد من شغفي بها. وقد بدا لي وجهها أكثر نحافة بلا مساحيق، مُلتزماً زاويتي خلف منضدة الاستقبال، منتظراً أن تفرغ ما لديها وتكفّ يدها اليمنى عن الرقص في الهواء، على غير عادتها.

– تشكو أخي للشّرطة!

لم تحتمل صمتي وهي تتشمّم عطري، فشرعت أتكلّم بهدوء.

– لم تسأليني ماذا فعل!

لم تصدّق اتّهامي بوستّة بمُحاولة اقتحام المحلّ، وشكّت في أنّني أضمر له شرّاً.

– هل علِم بعلاقتنا؟

سألت بملمح مُسالم مصفرّ، كما لو أنّها طفلة مُعتلّة، فآمنتها من خوف:

– وحده الله يعلم.

أصرّت على أنّني أتجنّى على شقيقها، الذي يصغرني بستّ سنوات، وفوجئَت حين حكيت لها أنّه كان من زبائني، يسترزق من مرأب لعرض الأفلام، مكتفية بالقول: «هو حرّ في ما يفعل». عقدت الدهشة لسانها عندما أخبرتها أنّه متورّط في حرق سيّارة سي ميلود، صاحب محطّة البنزين، ذلك الكهل الذي يصرّ على ارتداء قبّعة بورسالينو، مع نظّارة طبيّة ويجول دائماً بجريدة في يده، وقد انتقل في سنين يسيرة من تدخين لفائف عرعار إلى السيجار الكوبي. صفعت أعلى صدرها براحة يدها واحمرّ وجهها، فاستغللت الوضع وسارعت في تكرار مقترحي عليها.

– تقنعين والدك بأن يشهد لصالح أبي، بأنّه استُشهد في حرب التحرير، وأسحب الشكوى.

لم أكن أعلم أن الشرطة ستخلي سبيل شقيقها، بمجرّد مثوله للاستدعاء، بحجّة أنّني أعوز شاهداً، وأرادت أن أسحب الشكوى بنفسي، خوفاً من أن يعلم والدها، الذي تتمدّد ذراعاه في الإدارات برمّتها، فيستغلّ الحادثة في توبيخ والدتها، ووصمها بسوء تربية ابنها، كما قالت.

– لا تريد أن تفهم أنّ والدي انفصل عن أمّي؟

لم يسبق أن أبلغني شقيقها عن انفصال والديه، أم هو خجل من ذلك؟ فمن المعيب في أعراف الناس هنا أن يُجاهر شخص بأنّ والديه في خلاف أو تطلّقا، لأنّ الأذهان ستحسم أنّ الأمّ اجترحت فعلاً مخلّاً.

– فلنترك إذن الشرطة تقوم بعملها.

– الدنيا دوّارة.

ردّت عليّ ووقفت على الباب، تنوي الخروج وهي تكزّ على أسنانها، ثمّ هزئت بي:

– لم يُخطئ من وصفك بعيرة.

شاهدتها من خلف الفترينة تتميّز من السخط عليّ: «سأعلّمك من أكون»، وبصقت على العتبة، فتشدّقت: «لست سوى من عائلة مجرمين» من دون أن تسمعني. أدركت أنّه فراق بيننا، حزنت وشعرت بانقباض. لم أستجدها مثلما استجدى جاك بريل حبيبته في أغنية: «لا تتركيني»، فقدري أن تهجرني كلّ امرأة يهفو إليها قلبي. الحبّ هو أيضاً أن نُفارق من نحبّ. لم يتسنّ لي سؤالها عن موعد محاكمة ابن خالتها، فقد ابتغيت حضور مرافعتها لأوغل في فهم ما غاب عنّي في مقتل مُغنّية الفندق، ثمّ أقفلت المحلّ وقصدت بيت نبيل، في حيّ المجاهد، كي أطمئنّ على حاله. والده لم يعد لزيارتي كما وعد. قبض منّي مالاً آخر مرّة واختفى. بلغت وجهتي وصادفت خلقاً يقف قبالة الباب، وصوت تلاوة قرآن ينطلق من مكبّر صوت معلّق على نافذة. مات صديقي من دون أن يتمّ قراءة رواية «الشيخ»، ومن دون أن يعلّمني كيف أفرّ من هذه البلاد.

يوم يبدأ بقطع علاقة مع امرأة، ثمّ بحضور جنازة، هو يوم لا يُحسب من العمر. خمدت جمرة تفكيري في الهجرة وتقفّي سيرة نبيل الذي سمت روحه إلى الأعلى. لم تفده أموال الساعة التي بعتها، فساعته كانت أسرع. حضرت الدفن وبالي يغلي: هل سيحزن أحدٌ ما عليّ إذا متّ يوماً؟

بشير

الثلاثاء

منذ أن أحببت زكيّة دخلت السجن مرّتين.

قبل زهاء ستّة أعـوام، غبت عن الثكنة يوماً بلا إذن. أجّرت غرفة في مبغى، من طابقين، يعطف على العشّاق ويصون حكاياتهم، يلزم زوّاره باستظهار شهادة طبيّة تفيد بخلوّهم من أمراض معدية؛ وقضيت وقتي معها. أطاعت وعودي لها بخطوبة وزواج، فأتت مرتدية ملحفة تخفي كامل جسمها، مع ثوب ملوّن أسفلها، تفوح من رقبتها رائحة عطر لم أشمّ أزكى منها قبلاً. لم ترجع إلى بيت أهلها سوى ساعة الغروب. نسيت بين أحضاني إخوتها وأباها، متمنّعة عن إتاحة وردتها لي: «صبراً إلى ليلة الدخلة». استغرقنا في مُلامسات وقبلات مبلّلة بلُعاب، وكانت كلّما كشفت عن تفّاحتيها عضضتهما عضّاً خفيفاً، غير عابئين بالتأوّهات الصاعدة من غرفة مُجاورة. لم تتناهَ إلى سمعي الاشتباكات التي عمّت نزرامة، وأخفقت الشرطة في وقفها، عقب مباراة في كرة القدم بين فريقين من حيّين شعبيين، عندما هجم أنصار الفريق الخاسر على أنصار الفريق المُنافس، فتطايرت دماء

ومات أحد الشبّان رفساً، ما حدا بالضابط إلى جمع الجنود كلّهم، في باحة الثكنة، يُوصيهم بالتهيّؤ للتّدخل. قسّمهم إلى مجموعات وانتبه إلى غيابي. حين عدت، حلقوا شعري على الزيرو وألقوا بي في مقطورة شاحنة بلا أكل ولا شرب لخمسة أيّام، أنام وأصحو في عتمة، أسمع نميم جرذان وحركة صراصير تُقاسمني المكان وأداوي عزلتي باستعادة ذكرياتي مع حبيبتي. لكنّ الوضع لم يفتأ أن هدأ بعد تدخّل عقلاء البلدة، فأصلحوا بين المتخاصمين ودفعوا مال الدية، فعفا عنّي الضابط بعد أن وبّخني في مكتبه.

هذه المرّة الثانية التي أُسجن فيها، لكن في مهجع مُزدحم، وقد يُحيلني إلى آخر، إذا أصرّوا على التهمة المسلّطة عليّ.

الأربعاء

أنا ورحّال نتشارك في خصم واحد: ميمون بلعسل.

لقد أجّج، قبل ثماني سنوات، ناراً في مخزنه للأغذية، من دون أن تكتشف الشرطة أمره: «ادّعى نقصاً في التموين ورفع سعر الدقيق الليّن، مع أنّ الدولة تدعم سعره». فقد كان رحّال يتردّد على ذلك المخزن في اقتناء دقيق لمحلّ والده الحلواني. وددت أن أخبره بما أعرفه عن ميمون أو الحاج. لكنّ بصري وقع على خبر صغير ورد في الجريدة التي تصل دائماً متأخّرة، جعلني أتوقّف عن الكلام: **«العثور على جثّة فتاة»**. لمّح المراسل الصحافي إلى أنّ زكيّة زغواني أو (ز.ز) كما سمّاها، راحت ضحيّة أحد المشعوذين الذين يقيمون في المرج. لكنّها لم تراود مشعوذين! لا ريب في أنّ مصدره لم يكن سوى الشيخة ذهبيّة. الله يغفر لها وله.

الخميس

ترك رحّال دراسة العلوم الفلاحيّة في الجامعة، ووصل إلى السجن بتهمة قيادة سيّارة من دون وثائق، تبيّن أنّها كانت مسروقة: «المهمّ أنّني اشتريتها بمال حلال». لو أنّني أملك خيال الكتّاب لدوّنت سيرته، رغم أنّه كاد يصمّ أذني بكلامه المتطاير في السياسة: «أليس استفزازاً أن يزور بلدنا ذلك الشيوعي فيديل كاسترو ليلة المولد النبويّ، ثمّ جاء رفيقه الجنرال جياب ليلة عيد الأضحى؟»، وهو يوجّه سبّابته إلى وجهي كما لو أنّني أنا من دعاهما. أجبته بأنّ الشيوعيين يبتغون العدالة، فقد عملت في شركة عمومية ومن حقّي أن أدافع عن الشيوعية. لم يطق معي صبراً وانحرف حديثه إلى شكواه من تجبّر النساء في الإدارات.

السبت

الساعة الآن الخامسة عصراً، كان يجب أن أكون مع زكيّة. ننفث دخاناً ونتناول مشروبات ساخنة أو باردة كما تعوّدنا في مقهى السعادة، ذي الثلاث نجوم، المُزيّنة حيطانه بصور غابات وأنهار من أوروبا، لصاحبه سي ميلود. يُضاهي فيه ثمن فنجان قهوة ضعف ثمنه في المقاهي العادية، ويفرض الدفع قبل الاستهلاك. يرتاده أصحاب ربطات عنق وشوارب كثّة، توحي ملامحهم بأنّهم في عجلة من أمرهم، فلا مكان آخر لنا للجلوس سواه، تجنّباً للحرج من أن يرمقنا واحد من العاملين في الفندق وينقل الخبر إلى ميمون. لقد خيّرها بين هجري أو هجر عملها. كانت لا تأتي سوى بخمار يخفي شعرها ونظّارة شمسيّة كي لا يتعرّف إليها أحد، فمنذ أن غامرت مرّة بالخروج على هيئتها وصادفت واحداً من روّاد المرقص في طريقها صارت تخفي شعرها وملامحها.

كان يحبّ الرقص على صوتها وعندما قابلها في الشارع حاول التحرّش بها. أمسك بيدها فاستدارت إليه بصفعة ونعتته بالأجرب. انتظرت منه أن يتلفّظ بكلمة فتضيف صفعة ثانية على خدّه الآخر. لكنّه تركها في حالها وقد برقت عيناها غضباً. كنّا نغطس في أحاديث عن يومياتنا، في مقهى السعادة. ألمح القرطين اللذين أهديتهما لها وأمسك بيدها، بينما النادل الذي لا تطرف له عين يُراقبنا كما لو أنّه يودّ نهرنا. كنت أنسى كلّ ما يجري من حولي حين أسمع صوتها. هل رأى الحبّ سكارى مثلنا؟

الأحد

قانون السجن لا يسمح سوى بزيارات الأقارب من الدرجة الأولى، لذلك لن أرى كمال، فقد كان أكثر شخص جمعتني به ذكريات حميمة بعد زكيّة. تيتّم صغيراً وربّته أخته الكبرى وريدة، التي تحتلّ مقام أمّه. رغم أنّها لم تتجاوز الأربعين من عمرها سوى بقليل، لكن من يراها يظنّها أكثر من ذلك بكثير. قضت عمرها في الاعتناء به وبأخواتها وبأبنائها الثلاثة، ما عجّل شيخوختها. كلّما رأيت سيدي زرزور، بوجهه العريض مثل كركدن، تذكّرت صديقي، الذي حدّثني عن حكمته في شفاء المرضى والذين مسّهم جنّ. جميع المحابيس يتحاشون زرزور مخافة تعويذاته. يُقال إنّ بمقدوره أن يدعو على أفحل الرجال فيُفقده قدراته؛ أن ينوّمه بالكلام أو يخطّ طلسماً فيُفقده بصره. كان كمال زبونه، فهل وجد مشعوذاً آخر يُلبّي رغباته؟ اشتقت إليه، وإلى سماع أحاديثه، فكتبت له رسالة أودعتها الإدارة آملاً أن تصل إليه.

الأربعاء

كلّما اختليت إلى مخدّتي طفت صورة زكيّة في بالي. صورتها من دون أحلام جنسيّة كما كانت تراودني من قبل. عجزت عن تخيّل نفسي أداعب امرأة ماتت. أحتاج مِمحاة لأزيلها من مخيّلتي. مات بدنها أمّا أنا فقد مات قلبي. صور زملائي في شركة المطّاط والبلاستيك بدأت تمحى من ذاكرتي، وصورة حبيبتي تزداد رسوخاً.

الجمعة

أتممت الثانية والثلاثين من عمري.

تولّت ولادتي قابلة عوراء اسمها وحشية، كما حكت لي أمّي، في بيت جدّي القديم، الذي لم يكن أكثر من غرفتين شُيّدتا بجبس وحجارة وجريد نخيل، قبل أن يظفر ببيته الآخر فيّ حي غامبيتا أو أوّل نوفمبر بعد خروج الفرنسيين. عندما أطلقت صرختي الأوّلى، والساعة تقارب التاسعة والنصف صباحاً، شعرت أمّي يأنّ الموت يدنو منها. ثمّ اطمأنت إلى أنّ وزني ثلاثة كيلوغرامات وطولي خمسون سنتمتراً، فبلّلت حلقها بماء وعسل. دهنت جسمي بزيت الزيتون وعلّقت تميمة على رقبتي ثمّ تخاصمت مع أبي على اسم لي. ودّت أن تطلق عليّ اسم أبيها، وقطع أبي كلامها بأن ألبسني اسم أبيه. أنا من برج الميزان، كان يجب أن أكون شخصاً ناجحاً ومتّزناً لكنّني لست كذلك. رأيت نفسي في المنام، أمس، أناول أمّي رضيعاً محموماً، ثمّ أغادر البيت مُهرولاً. لست أعرف كيف صرت أباً، لكنّني أعرف أنّني لو كُنت حرّاً لاشتريت كعكة وأشعلت شمعاً. احتفلت بعيد ميلادي الحادي والثلاثين، مع زكيّة، ونفثت في أذني كلمة «أحبّك» كما لم أسمعها من قبل. لا أنسى تلك اللحظة مثلما لا أنسى ثلاث لحظات

أخرى جمعتني بها، حين واعدتها للمرّة الأولى فقالت لي: «أريدك نصيري لا فقط حبيبي»، وعندما حلّت بهذه المدينة وخاطبتني بعينين نصف مغمضتين: «قربك منّي يشعرني بجدوى وجودي»، وبعدما صالحتني إثر خصام: «قد أنسى أمّي لكنّني لن أنساك»، أمّا أنا فصرت لا أرجو سوى نسيانها.

موتها زاد من شهوتي في العيش.

3

نهاية الصحراء

نورة

ظفرت بالمقعد الأمامي، في السيّارة الجماعية المتّجهة إلى نزرامة، وكان خلفي خمسة ركّاب. جلست حانية الرأس صوب زجاج النافذة، إلى يمين سائق حاجباه كثيفان متّصلان، وقد تعطّر بماء كولونيا لم يخفِ رائحة التبغ المتسرّبة من فمه. أسرف في تصويب نظراته إلى فخذيّ ويديّ، فأنا لا أحمل خاتماً في بنصري، وجرى في عرف الناس أنّ من تجاوزت الثلاثين ولم يقترن اسمها باسم بعل قد «فاتها القطار». أمّي تؤنّبني بأنّ إصراري على الدراسة في الجامعة أبعد عنّي خُطّاباً: «المرأة رأس مالها رجلها مش دبلومها»، وكثيراً ما سمعت متحرّشين يهمسون بكلمات لم تسرّني كوصفي بالممحونة أو الشارفة أو «آكلة أولادها في كرشها». «المرأة لها زوجها أو قبرها»، تقول خالتي فطّوم، لكنّني أؤمن بـ«قعاد السلامة ولا زواج الندامة».

تذكّرت أنّني لم أسافر إلى أيّ بقعة، منذ أن رافقت أمّي إلى بيت عمّتي حيزية في العاصمة، الشتاء الفائت، بعدما انفصل عنها أبي، وقد عجزنا عن إقناعه بمراجعة قراره، فعملي يستنزف جلّ وقتي. نصحتني حسينة بأن أروّح عن نفسي و«إلّا فسوف يشيخ طيزك».

المهمّ ألّا يشيخ قلبي، قلت وأقول دائماً. سحبت مجلّة من حقيبتي، بعدما مللت من تأمّل الطريق الذي يقطع خلاءً منبسطاً تشوبه أعشاب بريّة وسكنات متناثرة، متحمّلة اهتزازات السيّارة في سيرها، وتصفّحت مقالةً عن رفض نساء فرنسيّات متزوّجات بجزائريين الامتثال لقرار الحكومة بأن يتدرّج أبناؤهنّ في مدارس محليّة لا مدراس البعثة الفرنسية. «من يودّ تنشئة أجنبية لأبنائه فليرحل معهم إلى الخارج»، جزمت في قرارتي، مقتنعة بأنّ هؤلاء الفرنسيّات لا ثقة لهنّ ببلدنا ولا بثقافته أو دينه بل يردن فرض قوانينهنّ علينا.

انطلقت في رحلتي ولست أعلم تبعاتها. هل سأعثر على جديد في قضيّة بشير أم لا؟ فقد اتّصلت على الرقم الذي أعطاني إيّاه حميد، فردّت عليّ خالة القتيلة وطلبت منّي إعادة الاتّصال في غضون ساعة، فأجابتني حليمة، مُختصرة كلامها: «بابنا مفتوح لكلّ ضيف».

كلمات مفتّش الشرطة ما تزال ترنّ في أذنيّ: «خطف منها براءتها، ثمّ شكّ في وفائها له فقتلها». هل سعى إلى فعلته بعد أن عصفت الغيرة بعقله؟

وصلت إلى مقصدي، بينما الساعة تتجاوز العاشرة صباحاً بقليل، وقد شرعت السماء في نفث حرّها مثل موقد. أخرجت ورقة مطويّة، من حقيبة يدي، كتبت عليها العنوان الذي أملته عليّ والدة زكيّة: «شارع 19 جوان، رقم الباب 6/145، أو ما يُطلق عليه شارع الضوء». علمت في ما بعد أنّه الشارع الوحيد الذي نُصبت فيه إنارة عموميّة، بينما الشوارع المُجاورة له تغوص في الظلام ليلاً. سألت سيّدة عابسة الوجه مثل وجه أمّي، كانت تجرّ خلفها ثلاثة أطفال مُتقاربين في العمر من أذرعهم، عن سبيل الوصول إلى ذلك العنوان، فشرحت لي أنّ عليّ السير قرابة نصف ساعة إلى غاية مسجد بأربع صوامع، والانعطاف عبر أكثر من شارع فرعي. أحسست أنّ الأمر

يتعسّر عليّ، وقد أضيّع وقتي في البحث عن غايتي، شكرتها وأنا أدير رأسي متأمّلة بناية غير مكتملة وعمّالاً يحومون حولها. ذكّرتني بمدينتي التي زحف الإسمنت على بدنها، ثمّ أقنعت سائق سيّارة بيجو 404 رمادية اللون، ممّن يُطلق عليهم لقب «كلوندستان»، أو سائقي الأجرة الذين يعملون خارج القانون تملّصاً من الرسوم، أن يقودني إلى وجهتي، من دون أن أسلم من نظراته المفضوحة إلى فخذيّ البارزتين تحت الجينز، متحسّرة أنّ وزني يزيد كلّما صمّمت على خفضه. دفعت له ثمن التوصيلة، وهو يلغو: «غزال وعليه الكلام».

«كنت في انتظارك»، عرضت عليّ خالة زكيّة، وهي تطيل في الابتسام مع رائحة عنبر تعبق في صدرها، أن أجلس في الصالون، المزيّن بلوحة رُسم عليها حصانان، على حائطه رفّان تصطفّ فيهما أكواب زجاجيّة وأباريق فخّارية، وفي طرفه تلفزيون من صنع محليّ. أحضرت لي كوب عصير، وهي تسألني عن حالي، أهلي وعملي، بينما أنا أجيب كلّ مرّة: «كلّ شيء على ما يُرام».

أفصحت لي محدّثتي، التي ارتدت ثوباً أخضر فضفاضاً، يلائم الماكثات في البيوت، عن سخطها من ندرة القهوة وحليب الرضّع وخشيتها من أن يختفي السميد والسكّر في الأيّام المقبلة.

– منذ أسبوع لم يزر الماء حنفياتنا.

أظهرت تبرّماً، وهي التي تملك خطّ التليفون الوحيد في الحيّ بحكم وظيفة زوجها في مصلحة البريد والاتّصالات، فطمأنتها بأنّنا نواجه العطش مثلها، نؤجّر صهاريج الماء، التي زادت تكلفتها.

– لا نملك ثمن صهريج. نستعين بماء بئر قريبة ونضيف إليه الجافيل.

أوقفتُ شكواها، بسؤالها عن بيت أهل الضحيّة، لأبرّر زيارتي.

– يبعد عنّا ربع ساعة مشياً.

حسمت أن ألـوذ بالصمت إلـى أن تصل السـيّـدة التـي أودّ مقابلتها، محاولة تخيّل حياة زازا في مدينتها: هل كانت من البنات الشقيّات أم الظريفات؟ هل أحبّت مدينتها أم كرهتها مثلما أكره مدينتي؟ قبل أن تلج حليمة الصالون بوجه شاحب وشعر غير مسرّح، فهببت لتقبيل وجنتيها: «الله يصبّرك». لكنّها ردّت عليّ بفتور، وهي تجول ببصرها إلى السقف المطليّ بالأبيض، فقد مضت أيّام العزاء، ولم تعد تعنيها كلمات المواساة.

صارحتني بـأنّ دموعها تجفّ كلّ ليلة قبل أن تذهب إلى فراشها، لا تملّ من حضن صورة ابنتها وهي تقف قرب مسبح، بقميص صيفيّ أزرق فاتح وشورت أبيض ونظّارة شمسية، مع تقبيل عقدها الذهبي، الـذي تدسّه تحت وسادتها كما لو أنّـه طوطم يدفع عنها المرض والإملاق.

بحلقت في وجهها، فلاحظت أنّها تصغرني قامة وتتجاوزني بدانة، وقد حُفرت جبهتها بتجعيدين. حاولت أن أجد شبهاً بينها وبين صورة ابنتها، عدا الشفتين الرقيقتين فلا بدّ من أنّ زكيّة ورثت سمات والدها. دام الصمت هنيهة، قبل أن تشرع حليمة في الكلام، بعدما توارت شقيقتها.

– خطفوا منّي بنْتي.

تفرّست في وجهها بعينين يغمرهما تلهّف لما سوف تدلي به، ملتزمة حيطة ألّا أبالغ في الأسئلة وأتيح لها الفرصة لتبوح بما لديها.

فاتحتني بحكايات عن فقيدتها، ونقمة إخوتها عليها، بعدما علموا أنّها تغنّي في مرقص.

– قالوا عنها فاجرة.

قلت في سرّي «أنا أيضاً وصفني الناس بالفاجرة لأنّني أخالط رجالاً في عملي»، وقد آثرت حليمة ملاقاتي في بيت شقيقتها بدل بيتها تلافياً لإشعال فضول أبنائها.

– لو ما قتلها ولد الحرام هذاك، كانوا قتلوها خاوتها، تابَعَت شرحها.

لمّحت إلى أن تكون زازا ضحيّة تصفية حساب عائلي، لكنّها اعترضت، ثمّ نادت ابنة أختها المسمّاة نصيرة، لتعزّز كلامها بأنّ بشير واعد زكيّة، أيّام خدمته العسكرية، وقد حثّها على الهرب من بيت أهلها، ثمّ شكّ في وفائها له فقتلها.

– بنت أختي كانت تحكي معها ديما.

استحضرت نصيرة مُكالمة جمعتها بزكيّة، قالت لها فيها: «سأصير سيّدة الفندق»، وأنّها نوت الارتباط بشخص آخر، «لم تجد في بشير الشخص الملائم لها بعدما ماطل في خطبتها». طلبت منها شروحاً لكنّني لم أنلها.

التأمت نصيرة في صداقة وثيقة مع زكيّة أو «زربوط»، كما اعتادوا مُناداتها، فهي لا تصغرها سوى بشهرين. داومتا على الجلوس معاً، في الكُتّاب، مُتّكئتين على حائط، تحفظان صغار السور بترديدها بصوت عالٍ من دون فهم معانيها، مع صبيَة آخرين، يتمايلون إلى الخلف والأمام، في تكرار كلام الله. وفي البيت كانت زكيّة تتمرّن على التجويد وتليين صوتها بتناول عسل بالقرفة.

اشتركتا في المدرسة الابتدائية في طاولة واحدة. تتبادلان الثياب وتسرقان طباشير من مكتب المُدرّس، كما ترافقتا في جوقة موسيقيّة حين حلّ وزير التربية في نزرامة. ظهرت صورتهما في التلفزيون، ففرحت حليمة بابنتها، التي لم تلبث أن رسبت في دراستها فأعفت المعلّمين من كثرة حركاتها ومُشاكستها، بينما

نجحت نصيرة. لكنّ والدها منعها من إتمام المشوار إلى المدرسة المتوسّطة. تحالفت معه أمّها وحجّتهما أنّها قاربت سنّ البلوغ. لم تحتجّ واستسلمت لقرارهما، فقد حصل أمر مُماثل مع شقيقتها الكبرى، التي منعاها من الخروج وحدها إلى الشارع بعد بلوغها الحادية عشرة، قبل أن تنتقل إلى بيت زوجها في عمر السادسة عشرة. انقطعت علاقات نصيرة بزميلاتها، وصارت ابنة خالتها صديقتها الوحيدة، وقد سمحت لها حليمة، بعدما أقنعت آنذاك زوجها، بمشقّة ومثابرة، بالذهاب إلى مركز التكوين المهني، تتعلّم فيه صنع الحلويات.

داومت زكيّة على زيارة نصيرة. تزوّدها بأخبار وشائعات وطرائف النسوة القليلات في مركز التكوين. تحوّلت زياراتها لها مخدّراً يُنعش عقلها. وفي الصيف، كانتا تذهبان إلى أعراس العائلة، فتقضيان وقتهما في الرقص أو في المساعدة في توزيع الأكل أو التنظيف. استمرّتا في تلك السيرة إلى أن غادرت زكيّة نزرامة لتصير مغنّية في فندق الصحراء.

بدل أن أواجه شخصاً واحداً صرت في مواجهة اثنين. أمّ الضحيّة التي تجترّ كلمات حميد، وابنة شقيقتها التي لم أستلطفها برغم ما تحمله من نظرات بريئة. كان بدنها نحيفاً مثل جرادة، وبشرتها مائلة إلى السمرة، شعرها أسود مشدود إلى الخلف بدبّوس أحمر، وقاطعتاها الأماميتان منفرجتان ووجنتاها ناتئتان.

تجنّبت أن أنطق كلمة عن علاقتي العائلية بالمُشتبه فيه، اعتقاداً منّي أنّ ذلك سيستفزّهما. سكنني شعور بأنّ ابن خالتي كذب عليّ، لم يفشِ الحقيقة كاملة عن علاقته بالميّتة، وزاد اضطرابي. «المحامي يطرح الأسئلة التي يغفل عنها الآخرون»، تعلّمت تلك

القاعدة في الجامعة، عاجزة عن تطبيقها ذلك اليوم. أحسّت حليمة بحالي، فبادرتني: «الأعمار بيد الله والحساب يوم القيامة».

ثـمّ أراحـت ذقنها على راحـة يـدها، تمسح الأرض بعينيها، متذكّرة يوم ميلاد ابنتها، «لم أتعب في حملها»، عكس إخوتها، كما لم يشقّ عليها إرضاعها، «عاشت خفيفة ورحلت خفيفة»، وانتهيت إلى أنّني لن أروي ظمئي من لقائي مع أمّ زازا. خلص رأيي فيها إلى أنّ شخصيّتها مُتصلّبة ولن أستلّ منها معلومات تنفعني. سلّمتها رقم مكتبي إن أرادت إفادتي بشيء آخر في الأيّام المقبلة، ولم يعد أمامي سوى الانصراف وأنا أتمتم: ضِعت.

أصرّت عليّ أن أقضي الليلة هناك وأسافر في اليوم التالي لكنّني امتنعت، فطلبت منّي أن أبلغ سلامها إلى حميد متوهّمة أنّني صديقة له، وأن أخبره أنّها ستأتي مرّة ثانية لزيارة قبر المرحومة.

رافقـتـنـي نـصـيـرة إلـى طـرف الـشـارع، الـذي تلاحـمـت فيه منازل منخفضة العلوّ، من دون أن ننبس بكلمة، كما لو أنّنا في جنازة، وقبل أن تصل سيّارة كلوندستان أخرى، تُعيدني إلى محطة المسافرين، فاتحتني:

– يجب أن يُخبرك بشير بما جرى.

نظرت إليها في ارتباك.

– يعرف ما لا تعرفه خالتي حليمة.

27 سبتمبر

طالعت في الجريدة أنّ الدولة تعتني بعائلات الشهداء، فتساءلت في خلدي: لماذا لم أجد عوناً في العثور على قبر أبي؟ مقنعاً نفسي بتسجيل بروفة أخيرة من «سالمة يا سلامة» وتحويلها إلى الإذاعة، فأولئك الذين تُبثّ أغانيهم ليسوا أفضل منّي. صرت أتحكّم في تنويع طبقاتي الصوتية، مستعيناً بحنجرتي ومخارج الحروف من أنفي، إذا نجحت إعادتي لهذه الأغنية فسوف أجرّب إعادة أغانٍ أخرى. عددت أوراقاً نقديّة تراكمت في صندوق المال، بعدما زاد توافد الزبائن على المحلّ. بعضهم يأتي من القرية الاشتراكيّة المُجاورة، التي بُنيت كي لا يهجر الفلّاحون مزارعهم، فيستأجرون أشرطة تغطي حاجتهم أسبوعاً، ومنهم من يدفع لي بقشيشاً، كي أوفّر لهم المزيد من أفلام الكبار.

تذكّرت أنّني لم أكتس بملابس جديدة، من عام ويزيد. لم أقتن زوج أحذية منذ زمن أطول. خطر ببالي أن أجد في سوق ترابادنو سلعاً مستوردة أو مهرّبة تليق بي، حين دلف كمال يعوي: «أنا اللي حسبتك مثل أخي، تغدرني!»، وقبض على رقبتي بكلتا يديه، خضخض رأسي إلى الأمام وإلى الخلف، وهو يصيح مثل معتوه: «سأدفنك حيّاً». أحسست حالي دجاجة بين يديه. لم يتأتّ لي شيء

ألتقطه وأبعده به عنّي، فهو يتجاوزني طولاً وقوّة، وجهه كان محمرّاً وعيناه تتدفّق منهما حمم غضب. شعرت بأنّني أكاد أختنق، متمنّياً أن يتدخل أحد ما لإنقاذي منه، قبل أن أدفعه بضربة على خصيتيه بركبتي، ثمّ استويت متأهّباً للدّفاع عن نفسي. استعاد توازنه ولحظت أنّه يتنّفس بصعوبة بوجه يُشبه ملاكماً متهوّراً، نادماً على أنّني لا أحمل سكّيناً معي كي أوشّم صليباً على وجهه. لقد رغبت، في تلك الأثناء، في تفريغ كلّ كرهي له، فبصق عليّ: «ولد البيّاع». لم أطق سماع تلك الشتيمة، فالتقطت المكنسة بحركة سريعة، خمّنت أن أضربه بها على رأسه، لكنّني خفت أن يُغشى عليه في محلّي، فنزلت بها على كتفه، إلى أن ارتفع صراخه: «تنتهك حرمة بيتي وتهشّم زجاج سيّارتي ثمّ تعتدي عليّ يا قوّاد!». «أنت القوّاد ولد القوّاد»، وأخذنا نتشابك، فنزلت لكماته على وجهي وأعلى صدري مثل ضربات معول، ولست أدري كيف كانت يداي تتحرّكان لا شعورياً في الردّ عليه. شعرت بأنّني بتّ أملك طاقة رجلين، ألكمه تارة على وجهه وتارة أخرى على بطنه، بينما صخبنا، المشوب بكلام شائن، يرتفع في الأرجاء، ثمّ انزلقت ضربة طائشة بالمكنسة على زجاج الفترينة كسّرته، قبل أن يتدخّل رجل فصل بيننا، لم أتبيّن وجهه، سوى عندما ابتعد كمال خطوات، بأنف يرعف، وهو يبذأ بكلام فاحش.

تجمّع تجّار أمام باب وردة الرمال يشفون تطفّلهم، وما إن غاب غريمي، حتى سمعت موجة أصوات تصطخب: «الحمد لله على سلامتك... تفادى الحمقى... عُدْ إلى عملك وانس أمره». رمقت الزجاج الذي تساقط وقدّرت أنّني سأصرف مالاً معتبراً كي أعيده إلى صورته الأولى، فألغيت شراء ملابس جديدة، ملحّاً عليّ سؤال: كيف عرف كمال ما فعلته؟ هشّمت زجاج سيّارته بمطرقة بعدما عبّأت رأسي بالجعة، وتسلّلت إلى بيته، انتقاماً من عدم دفعه ثمن إيجار

أشرطة. وقد عزمت على أن أحضر معي في الغد قضيباً حديدياً أدافع به عن نفسي في حال الضرورة، وأن أغيّر، في المساء، طريق عودتي إلى البيت، حذر أن يترصّدني مثلما يترصّد قطّاع الطرق ضحاياهم في أفلام الوسترن.

التفتّ إلى الرجل الذي تدخّل كي يفصل بيننا، فعرفت أنّه الشخص عينه الذي أطفأ قارورة غاز البوتان، التي اشتعلت في محلّ الزلابية، وقد تدلّت سبحة من عنقه.

– اعذرني فأنا لا أعرف اسمك.

– الحاج خيضر عرقوب.

رجفت ركبتاي من سماع اسمه المُطابق لاسم نورة العائلي، لم أجرؤ على سؤاله إن كان يعرفها، كما لم تهدأ مخاوفي من أن يكرّر كمال هجمته عليّ، مُرجئاً تسجيل البروفة الأخيرة من الأغنية.

حميد

قفزت فوق ملابسي المُلقاة أرضاً، بعدما أيقظني رنين التليفون، فأبلغني المُحافظ بنبأ وفاة شرطي.

– تحرَّ ماذا حصل.

– سأفعل ذلك صباحاً.

– خير البرّ عاجله.

بلغني ضجيج من السمّاعة، كما لو أنّه يجلس في مقصِف أو حفل زفاف، وأطللت على زينب ممدّدة على جنبها الأيسر في شخير خافت. حسدتها على نومتها، بينما ساعة اليد التي أهديتها لها، في عيد ميلادها، والتي سبق أن زيّنت معصم زكيّة، محفوظة في درج، لم تلبسها سوى مرّة واحدة.

وجـدت عونين مُناوبين في انتظاري في المخفر. سلّمني أحدهما الملفّ المهني للشّرطي المُتوفّى: بن عليّة سماتي. «يا ستّار!»، إنّه عون الشرطة العلميّة الذي فحص جثّة زازا وقابلته في المستشفى بصحبة الطبيب الشرعي. ما هذه اللعنة التي تحوم فوق رأسي؟ توجّهت إلى سكن بن عليّة، في حيّ شعبي، بعدما تعذّر عليه

الالتحاق بعمارة الأمن التي امتلأت شققها، مرفقاً بواحد من العونين المُناوبين، فقابلتني أرملته حكيمة سماتي، بوجه بريء مثل وجه بهيجة حبيبتي الأولى، وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل.

– أنا ابنة عمّه.

لم تقوَ على حبس دموعها وزاد من كآبتها أن انعزلت في محنتها وحيدة، فهي وزوجها الميّت ينحدران من مدينة أخرى.

تمرّغ بن عليّة في ديون خلّفها إسرافه في الشرب والقمار. اقترض من كلّ شخص يعرفه، ولم يطق دفع ما عليه، فاستحال تيساً ثائراً. تضاعف قلقه وراح يختلق شجارات مع حكيمة، التي لم يُنجب منها، رغم تجريبهما طرق علاج تقليدية شتّى. أهانها ووصفها بالعاقر. ونوى تطليقها، قبل أن يُعيد مُصالحتها ممتثلاً لمحبّته لها. لم يحتمل ضنك الحال، فدهمه ألم في الكتف اليسرى والظهر. تعسّر عليه التنفّس وتعرّق كثيراً، ثمّ أُغمي عليه ولم يستفق بعدها.

– لا أملك ثمن إيجار البيت للشّهر المقبل.

احمرّ وجهها، وأخفت فمها بيدها، خافضة بصرها، تبكي كما لو أنّها تودّ أن يحضنها أحد ما ويُربّت شعرها البنيّ غير المسرّح.

– سوف أتدبّر حلّاً.

أرفقتها بتنهّد مطمئناً أنّ موته لا علاقة له بمقتل زازا.

كتبت تقريري، وضممت إليه ما جاء في تقرير عون الشرطة العلمية، الذي عاين جثّة بن عليّة، وقد عثر في أحد جيوبه على قائمة ديون: موادّ غذائية، أدوية وفواتير. دوّنت أسفل التقرير أنّ الدفن سيكون بعد الظهر، آملاً أن يحضر المحافظ نيابة عنّي. لطالما وعدني بتوظيف مفتّش ثانٍ يُريحني، لكنّه لم يفعل متعلّلاً بضعف الميزانية، منذ أن أقرّت الحكومة التقشّف، مكتفياً بمساعدة حافظ ينوب عنّي

في مرّات قليلة. عدت إلى سريري، فرأيت نفسي في المنام أرفع السمّاعة مستجيباً لمكالمة من زكيّة. لكن صوتها لم يكن أكثر من غمغمة، قبل أن أرجع إلى المخفر صباحاً بعينين منتفختين، دائخ البال، أجرجر قدميّ إلى مكتب المُحافظ، الذي يتفخّر فيه بصوره في حملات تطوّعيّة، في التشجير أو في تنظيم المرور، بينما مكتبي لا ديكورات تزيّنه. عملي يستنزف وقتي، ومن حسن حظّي أنّ زينب تعتني بتفاصيل البيت.

– هل كنت على علم بوضعه المادّي؟

– كلّا.

أخبرني مسؤولي المباشر عن نيّته الخروج، وهو ينظّف أذنه بسبّابته، قصد تدشين ملعب بلدي، ثمّ تشييع المرحوم، مع فصيلة التشريفات. خلّصني من تلك المهمّة، لكنّه نغّص يومي بأن كلّفني بأمر آخر.

– يجب استخراج جثّة السيّدة فرّاحي، لنتحقّق ممّا وقع لها.

بعد وفاة تلك المرأة، الأسبوع الماضي، وقد جاورت الخمسين من عمرها، عقب عمليّة جراحيّة، وبعد دفنها، تقدّم أرملها بطلب إعادة التحقيق في ظروف موتها، متّهماً الجرّاح بارتكاب خطأ أدّى إلى تعجيل أجلها.

وضع المُحافظ غليوناً بين شفتيه، تعوّد عليه منذ أن تعدّدت زياراته لبرلين الشرقية في دورات تكوينيّة، فلانت نبرته. مسّد شعره المدهون والممشّط إلى الوراء، وسألني:

– أين وصل التحقيق بشأن زكيّة زغواني؟

– التمس راعي الغنم، الذي عثر على جثّتها، مُقابلتي.

– متى؟

– سوف أحدّد له موعداً.

– خير البرّ عاجله.

أومأت إليه برأسي وذكّرتني طريقته في نفث الدخان ببطء بعميد الشرطة في ضاحيّة العاصمة، الذي أقنع مدير الأمن بتحويلي إلى هذه المدينة، بعدما تخيّل أنّني أنافسه في قلب فتاة عملت معنا بصفة متعاونة. «لا علاقة لي بها»، قلت، «لست مغفّلاً كي أثق بك»، أجابني. عاداني أيّاماً، يمرّ أمامي من دون أن يردّ على تحيّاتي، متجنّباً النظر إليّ. عندما صدر أمر بتحويلي، رمقني بخبث. وكم رغبت يومذاك في أن أبصق على وجهه، لولا خشيتي من إحالتي إلى مجلس الانضباط، مستأنساً بقول المجذوب: «اللي حبّك حبّو/ وفي محبّته كن صافي/ واللي كرهك لا تَسبّو/ وخليه يَلقى العوافي».

وصلت إلى المرج قبيل منتصف النهار وهجست في نفسي: كيف يحتمل بشرٌ العيش في بيوت من صفيح وطوب؟ الفقر ليس عيباً، لكنّه يعلّم الفقراء الكسل. رغم أنّ ذلك المكان يدخل في حيّز المدينة، تتلافى الشرطة الاحتكاك بسكّانه متفادية غضبهم، مثلما حصل يوم تقدّم إليهم موظّفو البلدية، يبلغونهم بنيّة السلطات هدم مساكنهم غير القانونيّة. تكاثفوا في وجوههم مهدّدين إلى أن تراجعوا عن قرارهم. ما إن توقّفت سيّارة العمل التي أقلّتني، مرفقاً بعونين اثنين، وأنزلت زجاج النافذة، حتّى أزكمت أنفي رائحة حرق بلاستيك، لا بدّ أنّ أحدهم أجّج محرقة للتخلّص من القمامة. جالت في بالي صورة زازا ممدّدة في حجرة حفظ الجثث وشعرت بحقد مُضاعف على بشير أو «البعير». لن يفضي التحقيق إلى مُشتبه فيه آخر وسيدفع عمره في السجن، فكلّ المسبوقين قضائياً، الذين قضوا محكوميتهم في الأيّام الفائتة أثبتوا، بعدما استجوبتهم، غيابهم عن مسرح الجريمة ليلة مقتلها، مع أنّ كلمات الطبيب الشرعي ترنّ في رأسي:

«لعلّها سقطت على قفاها وماتت». يظنّ أنّ القضيّة لا تعدو أكثر من حادثة عابرة، بحكم أنّنا لم نعثر على أداة قتلها. لكن لم يكن يوجد دم في موضع العثور عليها. لا بدّ أنّها جُرجرت من موضع إلى آخر، والأعوان الثلاثة الذين كلّفتهم بتمشيط المرج، بصحبة كلب مدرّب، بحثاً عن قرطها الثاني، عادوا بأيدٍ فارغة.

تعذّر عليّ معرفة بيت عاشور، فلمحت مراهقاً بشعر أسود مجعّد يبول واقفاً أسفل شجرة خروب. صحت به فاستدار مرتبكاً يزرّر بنطلونه الذي تبلّل، وأرشدني إلى وجهتي. قطعنا طريقاً ترابيّة، بين أشجار كاليبتوس، ووجدت عاشور يقف أمام مسكنه، معفّراً، بقميصه القرمزي الذي قابلني به المرّة السابقة، وقد أضاف له زرّاً ثالثاً، مستغرقاً في تقطيع حطب.

– قطع الأشجار ممنوع، قلت له.

لعلعت حبّات عرق على وجهه، الذي بدا لي مرتاحاً عكس حاله حين قابلته في المخفر فزعاً، مسحها بظهر يده اليسرى واستقام مثل جندي، متلعثماً:

– ما عندناش الغاز يا الرايس.

«الحكومة تنوي مدّ أنبوب غاز إلى إسبانيا بينما الشعب يطبخ طعامه على الحطب»، تمتمت ورأيت جرحاً على جبهته نجم عن سقوطه وهو يُطارد ماشيته، كما قال. عزمني على كوب شاي، فتجاوزنا الباب، المطليّ بالجير الذي علاه قرنا كبش درءاً للعين الحاسدة، وجاوره مِحلب وقِربة ماء، ثمّ استوى كلّ منّا على آجُرّة، بينما ظلّ الشرطيّان اللذان رافقاني في الخارج.

وصل عاشور إلى هذا المسكن، الواقع على الطرف الشرقي من المرج، مع زوجته وابنته، قبل ستّ سنوات، كما حكى لي. لم يكن سوى حوش مُحاط بالقصب والقرميد. ناموا في الأيّام الأولى تحت

السماء، ملتحفين بطانيّات، يقضون حاجاتهم في حفرة، قبل أن يبني غرفة من طوب، بمساعدة جيران، كلّما هبّت ريح توجّس خيفة أن يهوي سقفها، وشيّد أخرى، أصغر حجماً منها، جعل منها مطبخاً، في جوفها زاوية للاستحمام. ثمّ أنجب ابنه، فعكف على وضع سكّين قرب رأس الوليد في أيّامه الأولى، حذر «الأرواح الخبيثة»، يطوف بفراشه بالبخور، وانتظر أسبوعاً، كما جرت الأعراف، قبل أن يُطلق عليه اسماً وقد ذبح كبشاً ووعد بآخر يوم ختانه، متمنّياً أن يجد شغلاً أفضل من المُتاجرة بالغنم، أو من إجهاد العمل في ورشات البناء، التي يعود منها بيدين متشقّقتين، وأن يوفّر مالاً وينتقل مع عائلته إلى منزل بغرف كثيرة. لكنّ الأعوام مرّت، وصل نازحون آخرون أقاموا بيوتاً مُشابهة من دون أن تتغيّر حاله، فاقتنع بالمثل: «نعيش بالخبز والما والرأس في السما».

– تجارة الماشية بخير؟

– المطر خاصمنا وقيمتها طاحت.

لاحظت كآبة في ملمحه، مع خوف في كلماته من أن تصيب أمراضٌ بهائمه من طول الجفاف. بلغت أذنيّ نقنقة من مسكن قريب. كيف يتّقون العقارب التي تسرح مثل الأغنام ليلاً؟ أخمدت السؤال في سرّي، ثمّ وثبت إلى شأن آخر، وذبابتان تطوفان حولنا أبتا مفارقتنا.

– ناوي تكمّل حياتك هنا؟

– حتّى يرزقني ربّي بدار أخرى.

نادى على ابنته: «هاتي الشاي!». ما هي إلّا لحظات حتّى خرجت طفلة من الغرفة التي يتّخذونها مطبخاً، بشعر أشعث وقدمين حافيتين، تحمل صينية مع كوبي شاي تعلوهما رغوة، ومكعّب سكّر واحد. شملتها بنظرة مُشفقة ورقّ قلبي لها.

استلّ عاشور سكّيناً، من حبل يشدّ بنطلونه، وقسم المكعّب إلى جزأين، أغرق كلّ واحد منهما في كوب، من دون أن يسألني إن كنت أريد سكّراً أم لا. همّت ابنته بالانصراف عندما هرول رضيع من الغرفة ذاتها يتمسّح بها، وخيط يتدلّى من شحمة أذنه يُسمّى «عيّاشة»، يسود اعتقاد بأنّه يُطيل عمر الذكر. حملته بين ذراعيها وأعادته إلى الداخل.

– واش من جديد في القضيّة؟

عدّل عاشور جلسته وقد أفرغ الشاي دفعة واحدة في جوفه.

– قال لي المؤذّن إنّه شاف سيّارة بيجو 505، في الليل قبل ما نلقى الجثّة.

– لونها؟

– بيضا.

هل هي سيّارة الحاج ميمون بلعسل؟ عليّ أن أتأكّد من مطابقتها لآثار العجلات التي عثرنا عليها. هل قتلها وتظاهر بالسفر إلى سطيف؟

– شافت بنْتي موطو «بيجو 103» زرقا، قبل الجريمة.

ضربت جبهتي بكفّي، درّاجة فرحات الناريّة؟ طلبت منه أن يُنادي عليها وفعل. لم تتعرّف إلى نوعية الدراجة سوى بعدما قضت أيّاماً تجول مع والدها ورأت واحدة مُماثلة لها. «تمشي للمدرسة؟»، سألتها. «بطّلت هذا العام». «علاش؟». رفعت رأسها إلى أبيها في خجل، ولم يبطئ في التدخّل: «المدرسة بعيدة وبنتي قربت سنّ البلوغ»، لم أشأ أن أتدخّل في شؤونه فمن عادات البسطاء حجب البنات عن الشارع قبيل أن تنضج مفاتنهنّ.

– شكون اللي كان يسوق في الموطو؟

– رجل طويل. كان يتوقّف شوية ومن بعد يمشي.

– جاء أكثر من مرّة؟

هـزّت رأسـها بـالإيجاب، فشكرتها وعـدت إلـى أبيها لإكمال حديثي معه.

– وين راه المؤذّن؟

– يكون في داره.

ورسـم بسكّينه، على الـتراب، الطريق إلـى بيت الـمـؤذّن، ثمّ عببت ما بقي في كوب الشاي في بطني، وقد راودتني رأفة به قصد مساعدته في تحسين عيشه.

– نشا الله تفرج عليك.

شعّت عيناه وهـمّ واقفاً كي ينشّ ذبابة حطّت على منكبي ويقبّله، لكنّني تراجعت، رافضاً تملّقه. ودّعـتـه مـذكّراً إيّـاه بكلام المجذوب: «فاعل الخير هنّيه بالفرح والشكر ديما/ وفاعل الشر خلّيه فعله يرجع له غريمة»، منصرفاً إلى بيت المؤذّن.

– حين أبصرت تلك السيّارة، وأنا في طريقي إلى المسجد، أنام في مقصورته قبل رفع أذان الفجر، فكّرت أنّ واحـداً من الصعاليك حلّ بغرض تدخين حشيش أو لممارسة الفاحشة. دعوت في قلبي أن يهديه الله طريق الصواب، ولم أعتقد أنّ روحاً كانت تُزهق.

أقفلت عـائـداً إلـى المخفر مغتبطاً بما غنمته مـن إفـادات جديدة، لكنّني صادفت ما كدّر صفوي. طالعت تقريراً، بعد استخراج جثّة فرّاحي، ومعاينة نسبة عالية من المورفين في دمها.

– قضيّة أخرى يجب عليّ التحقيق فيها.

استلقيت على الكرسي، راغـبـاً فـي اسـتـراق غـفـوة، وشعرت بدبيب عقرب على ذراعي، متذكّراً الحلم الذي رأيت فيه نفسي أكلّم زازا، «قلبها توقّف لكن حكايتها تنبض». استحضرت وجوه الناس الحائرة وهم يرون سيّارة شرطة في المرج، مشفقاً على حال الأطفال

الذين وُلدوا وكبروا هناك، كما لو أنّهم إخوة غافروش. يسكنني شكّ في أنّ فرحات وميمون شاركا بشير لبْطم الجريمة، واختلقا خصومة بينهما كي لا أخمّن تورّطهما، لكن لماذا تباطأ ذلك المؤذّن في الإبلاغ بما يعرف؟ لماذا لم يتقدّم إلى المخفر؟

28 سبتمبر

ساورني أنّ قبر أبي جرفته السيول التي عمّت المدينة قبل عشر سنوات، مثلما جرفت قبوراً أخرى على ضفّة الوادي في مقبرة لالّة عمّورة، وأشفقت على تيجاني أن رأيته بساق يُسرى ملفوفة بجبيرة.

– هجم عليّ ملثّمان، يحملان قضيبين من حديد، مثل معتوهين فرّا من مصحّة.

رفضت الشرطة توثيق شكواه لافتقاره إلى شهود، واقتناعه بأنّ المعتديين من ساكنة المرج، بعدما نشر خبراً في الجريدة عن مقتل المُغنّية، لمّح فيه أنّ الجاني من ذلك المكان.

– ناس المرج لا يقرؤون.

– لكن تصلهم أخبار ما يُكتب.

لم أنكر فرضيّته، متحسّراً أن حثثته على نشر ذلك الخبر، لكنّني نبّهته إلى أنّ الشرطة سجنت المتّهم، وودّعته عائداً إلى محلّي. رمقت جاكيتات الأفلام المعروضة على الفترينة، وقد تهشّم زجاجها، حين دلف بولنوار.

– سمعت أنّك تشاجرت مع أحدهم!

– ولد حرام استأجر أشرطة من دون أن يدفع مقابلاً.

صوّر له مُساعده جان ترافولتا الأمر، بلغة الإشارة، على أنّني تعرّضت لاعتداء من وحش مسعور لا من بشر.

– ألا تنوي تصليح الزجاج المهشّم؟

– سيصل عامل بعد قليل.

حدّق فيّ الحلواني مبتسماً:

– أتكفّل بدفع أتعابه.

أشعرني بخجل من كرمه وأردت أن أعتذر منه، لكنّه أصرّ، ثمّ غادر مشاكساً: «لم تحضر لي فيلماً عن صنع الحلويات!». «سوف أنجز فيلماً عنك»، وقد انفرجت أساريري للمرّة الأولى، منذ أن اعتدى عليّ كمال.

فردت جريدة أمام عينيّ لحلّ الكلمات المتقاطعة، لكنّني توقّفت عند صفحة الإعلانات: رجل يعرض بيته للبيع مع صحن لاقط، آخر يبيع أثاثه، امرأة تبيع حليّها، الكلّ يبيع أثمن ما يملك، كما لو أنّنا في عام الشرّ. وقد قرّرت أن أسجّل البروفة الأخيرة من «سالمة يا سلامة» ذلك المساء، عندما يخلو الشارع من صخبه، منتظراً توافد الزبائن. وقد جهّزت كذبة: الفترينة المكسورة سببها صديقان لعبا الكرة في الداخل.

بينما أنا على تلك الحال، دخل السعدي، المُكنّى بـ«إبليس» بفعل شطارته في البيع والشراء. أوقف تعليمه في الطور الثانوي، وصاحبني في جمع الطوابع البريدية، التي هي هوايتي في الصغر. كان يجلس دائماً في الطاولة الأخيرة في القسم، مثيراً نرفزة الأساتذة بكثرة حركته. قالوا إنّ دبوراً يعشّش في دُبُره، قبل أن يصير تاجر ملابس مُستوردة. هو الذي أقرضني مالاً لأدفع مُسبّقاً إيجار المحلّ لعامين، ولم أكن أعلم حينها أنّه قد غادر السجن، بعد تدخّل والده، وأنّ محصّل الضرائب الذي أشبعه ضرباً، قد سحب شكواه.

«السعدي خويا»، رحّبت به وهببت أعانقه. كانت تلك المرّة الثانية التي يلج فيها وردة الرمال، بعد مرّة أولى حين افتتاحه، فقد تعوّدت أن أزوره في الأعياد، طلباً لودّه. «هل أحضر لك مشروباً بارداً؟»، سألته وعرضت عليه أن يجلس في مقعدي، لأطلب كأسي ليموناضة من مقهى قريب، لكنّه باغتني برائحة كريهة طلعت من فمه كادت تصيبني بغثيان، وبلهجة عاصمية، يصرّ عليها، رغم صعوبتها على لسانه، ليظهر مختلفاً عن بقيّة شباب المدينة:

– هل يمكن أن تردّ لي ديني هذه الأيّام؟

ذلك آخر شيء فكّرت فيه، فقد التزمت بأن أردّه له بالتقسيط. دفعت له شطراً بسيطاً منه، ووعدني بأن ينتظرني، لماذا يضغط عليّ الآن؟

– هل أنت مُستعجل؟

بصق قطعة شمّة كانت تختبئ أسفل شفته فالتصقت بأسفل الباب، وجاوبني:

– وصلتني سلعة جديدة وعليّ أن أدفع ثمنها.

لم أعرف إن كان ينظر إليّ أم إلى شيء آخر على جنبي، نظراً إلى حوَل في عينه. وقّعت معه تعهّداً عند موثّق، لكن لا مال لي لأردّ دينه في الحين. صحيح أنّ زبائني زاد عددهم لكن عليّ أن أعمل عاماً آخر، من دون أن أصرف ديناراً واحداً، لأجني المطلوب منّي. وجّه لي ضربة أشدّ إيلاماً من لكمات كمال.

ميمون

ملأت أنفي روائح سموم، أدسّها للفئران والصراصير، وتبع خطواتي الصيدلي جلّول، للاطّلاع على الأدوية ومُساومتي في مبلغ يرضي الطرفين، ممتدحاً نظافة المخزن وحسن ترتيب أغراضه. غنمته قبل زهاء عشرين عاماً. إنّه غنيمتي من زمن كنت فيه لا أضطجع في فراشي من دون أن تدهمني كوابيس.

غداة 19 جوان 1965، بعد إزاحة الأخ الرئيس أحمد بن بلّة من الحُكم، الذي زارنا في هذه المدينة ووعدنا بمدّ يد العون في كلّ ما نحتاج إليه، رقنت بمعونة صديقي بلقاسم بلعطّار منشورات تحثّ الناس على العصيان وعدم الاعتراف بخلفه. لكن طبّاخ الفندق وشى بنا، فاقتادنا الأمن مع حفنة مُعارضين آخرين، على متن شاحنة من نوع ستروين، إلى مُعتقل في بطن الجنوب الكبير. كبّلوا كلّ معتقلين اثنين معاً، ولم يسمحوا لنا بقضاء حاجاتنا الطبيعية، على طول طريق امتدّ يوماً ونصف اليوم، يشقّ كثباناً حارّة وصامتة. تحوّلت رائحة المقطورة إلى ما يُشبه رائحة كلب ميّت، وحين نزلت منها شعرت بخدر في رجليّ، متمايلاً في مشيتي مثل خروف أعرج، بينما خطواتي تغوص في الرمل. لم يكونوا يمدّوننا سوى بلتر واحد من الماء كلّ

يـوم، لا نعرف هل نشربه أم نغتسل بـه! أُصيب بعض المحبوسين بأمراض جلديّة وانحدر آخرون إلى الجنون، مثل الرقيب السابق في جيش التحرير سليمان، الذي صار لا يمشي سوى للخلف، وما إن يحلّ الظلام حتّى يشرع في العواء مثل ذئب جريح. قضيت ليالي أفكّر في زوجتي وفي أهلي الذين لم يعلموا بما حلّ بي. طالت لحيتي وسرح فيها قمل ولم أكن أملك ثياباً للتّغيير، ثمّ بلغنا نعي زوجة بلقاسم، الذي التمس من السجّانين السماح له بحضور جنازتها، لكنّهم أبوا، فحاول الهرب وانتهى أمره بالرصاص. دام حزني على صديقي أيّاماً، وأنـا أعيش تحت حرّ خمسين درجـة، في خيمة ضيّقة تركض فيها عقارب سامّة وفي مواجهة زوابع وبرد الليل الذي لا يرحم. عشت طليقاً في زمـن الاحـتلال، سجيناً في زمـن الاستقلال. أضربت عن الطعام بلا جدوى، فهزل جسمي وأصبت بمغص حادّ. لم أمت رغم أنّني كنت محاصراً بالموت، فتبت عمّا بـدر منّي. توسّلت العفو وامتثلت لفعل ما أؤمر. عدت إلى هذه المدينة، شاركت في تجمّع شعبيّ وخطبت في الناس: «من يخرج عن طاعة الرئيس الجديد فإنّه يشرّع عودة الاستعمار»، بكيت وأبكيتهم، وأنجيت «صحرائي»، كما أسمّي فندقي، من قائمة الأملاك التي نوت الدولة تأميمها. غيّرت صـورة الأخ الرئيس بـن بلّة، التي تـصدّرت بهو الاستقبال، بصورة خليفته. نحرت بقرة وتصدّقت بلحمها على الفقراء، راجياً من المولى أن يُبارك رزقـي، ثمّ علمت أنّ الطبّاخ الـذي وشى بنا أنا والمرحوم بلقاسم قد دشّن مطعماً في العاصمة. لم تطل به الحال قبل أن يلقى مصرعه إثـر حريق اندلع في مطعمه. تنازلت لي البلدية عن هذا المخزن، مقابل إيجار رمـزي، في يوم احتشد فيه الناس أمام قاعة «دنيا زاد» لمشاهدة فيلم «معركة الجزائر»، نظير إخلاصي للحزب، كما فعلت مع مناضلين آخرين، أكدّس فيه القناطير من دقيق صلب

وليّن وقهوة وسكّر وحبوب جافّة. أتحكّم مع مُنافسي سي ميلود، الذي يُماثلني في رصيديه السياسي والمهنيّ، في أسعارها. أخوض تجارتي بشطارة ورثتها عن أبي، الذي امتهن بيع وشراء الغنم، وعاد من الحرب العالمية الثانية، بميدالية وثلاث أصابع مبتورة. علّمني أبي أنّ المال يرفع قيمة الرجال أو يحطّ منهم.

فتحت باب الثلّاجة، وقد امتلأت عن آخرها، مُتيحاً للصّيدلي تفقّد ما تحتويه من حقن، أقراص، مراهم وأشربة مضادّة للسّعال أو للأمراض الموسميّة. قطّب جبينه ثمّ رمقني مبتسماً، بقامته التي تتجاوز المتر وسبعين سنتمتراً.

– هذا ما ينقصني تماماً.

– يمكن أن أوفّر لك كلّ الأدوية التي ندرت في السوق.

دلّك شاربه الخفيف، ثمّ أنفه الطويل الذي علته نظّارة طبيّة، وهو يقلّب الأدوية، فمنذ أسابيع يُعاني من شحّ في التمويل، يشعر بتأنيب ضمير وهو يردّ بالنفي على طلبات مرضى يشقون في الوصول إلى أدوية أساسية.

– من أين كلّ هذا الخير؟ سأل.

– من ربّ كريم.

لم أخض معه في التفاصيل، فمُحدّثي ليس سوى زبون. تتطابق ملامحه مع ملامح والده، الذي برع في السطو على بيوت خلّفها معمّرون، وبتّ أعرف أخته غير الشقيقة نورة، التي لم أرض لقاءها في المرّة الأولى من دون استشارة محامٍ كهل عملت معه، كما لم أحتمل تطفّلها ونبشها في قضيّة مرزاقة سوالم. لكنّني لم أذكر له كلّ ذلك، فلا يعنيني سوى أن يدفع لي، يشحن السلعة وينصرف.

استقرّ أمره أن يشتري الكمّية برمّتها، ويدفع لي هامش ربح يربو عن ثلاثين بالمئة من إجمالي ما دفعته للمهرّب في سطيف، ثمّ دوّن في ورقة ما يحتاج إليه من أدوية أخرى.

– سوف أبذل جهدي كي أوفّرها لك.

رأيت غبطة في مقلتَي المُشتري، الذي خاطبني بفضول، وهو يسلّمني المبلغ المتّفق عليه نقداً:

– سمعت شائعة عن إضراب ينوي عليه التجّار.

– الشائعات كلّ يوم.

سرت شائعة الإضراب مثل ريح شهيلي، فالناس لا يستلطفون يوماً يمرّ من دون مضغ كلام غير موثوق به. مرّة يقول أحدهم إنّه رأى كلباً يتكلّم، مرّة يقسم آخر أنّه شاهد نوراً يتسرّب من قبر، وثالث يجزم بأنّه عاين جرادة بطول ذراع، وعلى الطرف الآخر دائماً مُستمعون شغوفون، يُضيفون لتلك الثرثرة توابل ويوزّعونها على من يصدّقها.

– نشرة الأخبار لم تذكر شيئاً، واصل جلّول وهو يحكّ صدغه.

– ما زلت تُشاهد التلفزيون؟

رغم تاريخي الثوري، لم يسبق أن دُعيت إلى شاشته، مع أنّ رفاقاً لي، أقلّ قيمة منّي، لم يلتحقوا بالحرب سوى في ربع الساعة الأخير، نالوا تلك الحظوة، وما زلت حاقداً على إدارة التلفزيون إلى أن أنال حظّي كاملاً في الظهور.

اقتعدت كرسيّاً على مدخل المخزن، من دون أن تكفّ روائح السموم عن التحرّش بأنفي، أستمع إلى شكوى صاحبي، الذي تعرّضت صيدليته لسرقة، قبل نحو أسبوعين، من دون أن تحدّد الشرطة الفاعل، إلى أن اكتشف اللصّ بمساعدة أخيه غير الشقيق المسمّى فضيل.

– كان السارق مسبوقاً قضائياً بتهمة المتاجرة في الأدوية المحظورة.

– وظّف مخبراً لحراسة محلّك في غيابك.

أتممت عدّ الأوراق النقدية، وهممت بالوقوف حين لمحت قرطاً مزيّناً بكريّة لؤلؤ على الأرض، بين أكياس السكّر، التقطته من دون أن ينتبه إليّ الصيّدلي وخبّأته في جيب قميصي.

لم أتوقّف عن التحديق في ذلك القرط، في طريق عودتي إلى الفندق، وأسئلة تضغط على رأسي: من صاحبته؟ هل أعرفها؟ بالوصول إلى مكتبي، أعدت تأمّل ما عثرت عليه، مباعداً بين ساقيّ، منحنياً بظهري، هل هذا قرط زكيّة زغواني، الذي يبحث عنه حميد؟ لقد شاهدت مثله في شحمة أذنها، هل اشترته أم وصلها هديّة؟

صوّبت نظري إلى ختم الصائغ لزهاري على القرط، ثمّ خرجت، بعدما أتممت مراقبة الحسابات، من مصاريف ومداخيل، وبعد ابتلاعي دواء القلب، ملوّحاً لكمال المنهمك في شغله، يمضغ شيئاً في فمه، مُتّجهاً إلى محل الصائغ، المقابل لفيلّا الرومي، فوجدته كعادته مبتسماً بوجهه الطويل وشاربه الحليق: «في الخدمة الحاج، هل تحتاج إلى ذهب أم فضّة؟»، سألني.

لا أقصده دائماً، لكن عندما آتي أصرف أضعاف ما يصرفه زبون عادي، في اقتناء هدايا لعشيقات أو خليلات مسؤولين. اكتسبت خبرة أنّ الهدية لا تقلّ شأناً عن السلفة، كي أكسب شخصاً إلى جانبي، أغدق عليه بالعطايا، كذلك فعلت مع زوجة مُحافظ الشرطة أو مع مرزاقة، حين علمت بطلاقها. ألبستها ذهباً وفضّة، فشعرت بأنّني ألبستها ديناً، لطالما حلَمت أن ترفع طموحاتها السياسية لتصير ذراعاً لي. لكنّها خيّبت ظنّي والموت استعجلها، مثلما استعجل زازا التي

وهبتها عقداً من ذهب. رغم بذخي مع أخريات، لا يقتنص منّي أهلي مالاً سوى بمشقّة، مقتدياً بكلام أبي: «همّك يجيك من أهلك».

– بل جئت إليك لسبب آخر.

أطلعته على القرط من خلف قضبان حديدية، فهو يحصّن محلّه مثلما تحصّن السجون حذر اللصوص. سألته إن كان يتذكّر من ابتاعه. امتقع وجهه ولم أعلم إلّا لاحقاً أنّ الشرطة سألته عن قرط مُماثل له، فقد تفادى لحظتها أن يُشعرني بتضايقه، مُفضّلاً مُعاملتي مثلما عامل الشرطي الذي تقدّم إليه قبلي.

– توقّفت عن بيع اللؤلؤ.

حدجته بنظرة صامتة مُحبطة.

– لا بدّ أنّه من طلبيات قديمة.

وأخرج سجلّاً اصفرّت حواشي صفحاته، مدوّنة عليه الطلبيّات وأسماء أصحابها، وهم في الغالب من أزواج حديثي الارتباط أو من أهل «لاتْشي تْشي» كما يُقال عمّن يعيشون في رفاهٍ، فبقية الناس يفضّلون اقتناء مجوهرات مغشوشة، من باعة على الأرصفة أو من محالّ تعرض سلعاً مقلّدة. قلّب الصفحات، وهو يبلّل كلّ مرّة إبهامه بلسانه، واستمرّ كذلك أكثر من دقيقة، متصنّعاً عدم معرفته بصاحب القرط، وأنا أداعب باطن أذني وقد ظننت أنّني لن أهتدي إلى المطلوب، قبل أن يرفع رأسه ثمّ يتحقّق من وزن القرط، في حركة مسرحيّة، ويُجيب.

– هذه طلبيّة من شخص يُدعى بشير لبْطم.

«بشير؟»، كتمتها في صدري. حككت قفاي واشتعل رأسي غيظاً، فقد نبذته منذ أن علمت بعلاقته بزكيّة. زجرت كمال حين سمح له بالتسلّل إلى غرفتها ليلاً. راقبته أيّاماً متوعّداً ببتر خصيتيه

إن ارتقى مرّة أخرى إلى الطابق الثالث، فشعر بمذلّة مثل مذلّة آدم حين طُرد من الجنّة، وقد توهّمت أنّه قطع علاقته بها.

حيّيت لزهاري مغادراً، متجاهلاً إلحاحه عليّ: «لماذا تسأل عن صاحب القرط؟».

29 سبتمبر

سمعت أنّ زيارة المقابر من المحرّمات فاستشعرت عدم جدوى من بحثي عن قبر أبي. قلّبت أسماء معارفي في ذهني، فلم أجد من بينهم ميسور حالٍ ألجأ إليه. نورة اعتزلتني وتيجاني يُعارك يومه براتبٍ هزيل، بينما جيراني خربطت الحياة ومشاقّها أحلامهم. لست صاحب حظّ لألعب اليانصيب ولا أملك معدنا ثميناً أبيعه وأغنم من ثمنه، قبل أن يلوح في بالي عمّي لعموري، فقصدت بيته في الصباح، ملتمساً مُحادثته على انفراد.

يقيم عمّي في حيّ عشوائي، ينتصب على مدخله مسجد «الأمير عبد القادر»، الذي بات يُسمّى مسجد «كابول» منذ أن صار يؤمّ الناس فيه شابّ عاد قبل عام من أفغانستان بساقٍ خشبيّة. لا يعرف قاطنوه طبيباً مكتفين بمداواة مرضاهم بالأعشاب والدعاء. لا يُراودون المحكمة، بل يفضّون خصوماتهم بالقصاص. يقتسم بيته الذي لا يتعدّى ثلاث غرف ضيّقة مع زوجته وأبنائه الذكور الستّة، ويغسل رجليه كلّ ليلة قبل النوم مؤمناً بأنّ من يفعل ذلك لا يُباغته عزرائيل في الفراش. أُمنيّته أن يُرزق بطفلة، مع أنّه يتأفّف من مصادفة فتيات في الشارع. يكفي أن يرى إحداهنّ بلباس ضيّق حتّى

يقذفها بلعنة مسموعة، كما فعل قبالتي حين اقتربنا من المقهى، وشاهد يافعات في طريقهنّ إلى المدرسة.

– وش حاجتك؟

شعرت بحرج، فتلك المرّة الأولى التي أطلب فيها خدمة منه.

– حاب أستدين منك شويّة مال؟

قهقه بعدما ارتشف من فنجان قهوته ونشّ ذبابة طافت حوله.

– راك وصلت سنّ الزواج.

رددت عليه بابتسامة، شارحاً له حاجتي للمبلغ قصد ردّ دين، والحفاظ على المحلّ الذي أسترزق منه، فكرّر على سماعي النغمة القديمة بأن أعيد النظر إلى حالي، وأكفّ عمّا سمّاه تجارة الحرام. دعاني مرّة أخرى لمرافقته إلى شركة المطّاط والبلاستيك، فلم أطق أن أستمع إليه أكثر. شكرته واستأذنت منه بالانصراف، بعد أن دفعت ثمن فنجانَي القهوة وترجّيته ألا يُخبر أمّي بما دار بيننا، ففار غضباً واستغلّ مرور النادل بمكنسة ليدوس عقب سيجارته بقدمه، فقد سطا زبائن على منافض طاولات المقهى ولم يعد صاحبه إتاحة أخرى: «دماغك ناشف كي باباك».

غرقت في دوّامة من التوتّر المُتصاعد. فكّرت في الحلواني لكنّني تراجعت، فقد كان سخيّاً معي أكثر ممّا يلزم، ثمّ تذكّرت خيضر عرقوب، الذي أنقذني من هجمة كمال.

اشتريت تورتة من محلّ بولنوار، ولحسن حظّي لم أجد سوى مُعاونه هناك. اتّجهت إلى بيت عرقوب، المصبوغة حيطانه بلون الخردل. يحتلّه أثاث حديث، يوحي بأنّ صاحبه يحيا في نعيم. اتّكأت مع مُضيفي على أريكة من جلد بنيّ في الصالون، فقابلتني ستائر زيّنتها رسوم أزهار بنفسجيّة. تخيّلت إعجاب أمّي بها لو أنّها رأتها، ثمّ عرضت عليه قضيّتي. تبسّم خيضر وطمأنني: «اللي ثقيلة عليك،

خفيفة عليّ». سألني منذ متى أشغل المحلّ ومتوسّط الأرباح كلّ شهر وأنا أجيب، ثمّ اقترح عليّ:

– أدفع دينك وننقل تجارتك باسمي.

لم أجد حيلة أخرى في حلّ مأزقي، مُقتنعاً بمواصلة عملي أجيراً لا مالكاً لوردة الرمال.

بشير

نادى عليّ السجّان، فانتفضت من مكاني كمن سمع خبراً عظيماً: «اتبعني».

ظننت أنّ أمّي عادت إلى زيارتي، فاستعددت أن أطلب منها أن تنبئ نورة برغبتي في ملاقاتها، لكنّ السجّان انعطف يميناً، فشعّت عيناي. ما إن رأيت ابنة خالتي حتى دهمني إحساس مَن نجا مِن خطر وشيك. أردت معانقتها، لكنّها تراجعت خطوة إلى الوراء، مكتفية بمُصافحتي بيد مرتخية. هكذا تفعل عادة لتشعر الآخرين بأنّها ليست امرأة وقتها يفيض بالفراغ.

– انتظرت زيارتك.

لم يخف عنها حجم الخوف الذي يسكنني، «لكنّ ثقتي بخالقي لم تفتر»، كلّمتها. جلسنا إلى الطاولة وشرعت في طرح أسئلتها.

– مزّقت سرّها، وخلت أنّها خانتك فقتلتها؟

حدّقت فيها وأنا أفرك شحمة أذني. لم تخنّي أيّ فتاة ولا أذكر أنّني قطفت وردة إحداهنّ، فحبيباتي في سنوات المراهقة لم يرتفع سقف علاقتي بهنّ أكثر من قبلات وجلة، كما إنّ زكيّة استعصمت

وسوّرت سرّها برفض متين. عقدت يديّ، من دون أن أزيح نظري عن عينيها، ورددت عليها بصوت خفيض كمن يخاف أن تسمعه الحيطان.

– غالطة.

لم تقتنع بإجابتي، فأوحيت لها أن تسأل قريبة الميّتة المسمّاة نصيرة، التي كانت تسرّ إليها بما يدور بيننا. «تلك اللئيمة؟»، يبدو أنّني سمعتها تقول هكذا.

لقد جاءت هذه المرّة مصرّة على أن تضغط عليّ لأتقيّأ كلّ ما أعرفه.

– بل فعلت!

رشحت جبهتي بعرق وتعوّذت بالله، وهي مُلتزمة مكانها مستغربة ردّتي، لم تشهد عليّ، من قبل، ورعاً ولا قرباً من الدين، بل إنّني كنت أجهل جهة القِبلة. تكدّر وجهي وخالجني أنّها لحظت أنّ وزني قد قلّ بينما أخذت يداي في الارتجاف. خفضت رأسي هنيهة ثمّ رفعته، ورحت أعيد عليها، بخجل، بداية علاقتي بزكيّة، حين وعدتها بخطبة وزواج، لقاءاتي بها، مع اكتفائنا بالعناق والقُبل، ومُصارحتها لي بأنّها لم تعرف شعوراً مُماثلاً من حبّ ودفء قبلي.

– كانت في علاقة برجل آخر قبلك؟

– لهذا الغرض أردت ملاقاتك.

أخفت فمها براحة يدها وحاصرت دمعي في مقلتيّ، ضامّاً ما بين يديّ.

– خطيبها السابق يُدعى بنسالم، تعلّق بها ولم يُطق مُفارقتها.

رجّحت أنّه وراء مقتلها، مستبعداً شكوكي في ميمون، فقد قدّرت أنّه ليس في مصلحته أن تقع جريمة تسيء إلى سمعة فندقه.

دوّنت كلامي، شاعرة بأنّها ظلمتني أن شكّكت في روايتي.

– متى آخر رسالة كتبتها لها؟

رفعت رأسي إلى السقف أفكّر:

– قبل أزيد من ثلاثة أشهر.

كاتبتها يوم رأيت ميريام ماكيبا تغنّي في التلفزيون، وقد ألهمتني سمرة وجهها كلمات حبّ، فنظرت إليّ صامتة، غير مصدّقة ما تسمع. «لم تُخطئ أمّي أن نعتتني بعرّابة المطلّقات، لست أصلح سوى للقضايا العائلية»، هكذا تمتمت نورة، فقد آمنت بما جاء في محضر الاستماع، الذي أقررت فيه بالرسالة المنسوبة إليّ زيفاً.

– بصمت عليه مرغماً.

أطلعتها على ما تعرّضت له في المخفر فعطفت على حالي. سردت عليها شذرات من الرسائل التي كتبتها إلى حبيبتي المدفونة، ولا واحدة منها تضمّنت لوماً أو عتاباً أو تهديداً، بل فقط كلاماً عذباً مقتبساً من أشعار الغزل.

قرّرت ابنة خالتي أن تلتمس من القضاء إجراء دراسة الخطّ لمقارنة خطّ كتابتي مع خطّ الرسالة المنسوبة إليّ.

– كان يُفترض أن تُخبرني زكيّة بشيء ما قبل أن تلفظ أنفاسها.

التزمت المُحامية صمتاً تنتظر منّي أن أسهب في حديثي.

– اتّصلت بي على رقم البيت في غيابي.

«هذه نقطة لمصلحتك»، قالت لي، مستحضرة ما أفادها به مفتّش الشرطة: «هاتفت الضحيّة بيت أهله قبل ساعات من موتها». عدم ردّي على مكالمتها آنذاك قد يبعدني خطوة صغيرة عن الاتّهام، وقد تعوّدت على مكالمتي من مخدع مجاور لأنّ خطوط التليفون في الفندق تحت المُراقبة.

– هل نوت العودة إلى خطيبها القديم؟

– لا أظنّ.

– هل أحبّت رجلاً آخر بعدك؟

– لا.

– ما الذي يُثبت ذلك؟

– أهديت لها قرطين من فضّة ولؤلؤ، استرضيتها بهما إثر خلاف عابر. كانا ميثاقاً بيننا، إذا أعادتهما لي فذلك يعني جفاف الحبّ بيننا.

لا يرى الناس في الأقراط زينة بل بيان وفاء المُحبّ لمن يُحبّ، ولم يخف ذلك عن نورة.

سألتني كيف وصلت إليها بطاقة هويّتي التي استخدمتها في تأجير جهاز تشغيل الفيديو.

– سلّمتها إيّاها بغرض استئجار الجهاز ومشاهدة حفلة مُصوّرة لها.

– لماذا لم تستخدم بطاقتها؟

شرحت لها كيف أنّها كانت مسجّلة ضمن المفقودين في أمن بلدتها، عقب فرارها من سكن أهلها. لا تُظهر بطاقتها سوى لمن تثق بهم، تلافياً لأن تقع في يد مخبر أو يبلغ عنها أحد ما، فأصابت دهشة وجهها سرعان ما أخفتها.

– هل كانت تُغنّي في مكانٍ آخر غير مرقص الفندق؟

– في «الصحراء» فقط.

ظنّت أنّها وضعت إصبعها على موضع ألم حين استفسرت منّي:

– كيف تلوّث قميصك بالدم؟

أخبرتني أنّها أحرقته حذر أن يصل إليه شخص آخر ويورّطني، فصارحتها بالشجار الذي دار بيني وبين جار كمال.

قدّرت أنّني في حاجة إلى طبيب لمُعاينتي.

– حالي لا تسترعي قلقاً.

أوصلني صديقي، ذلك اليوم، في سيّارته إلى المستشفى، وضمّد ممرّض نزفي، وهو يتمّ عقب سيجارته. لكنّه ألزمني بانتظار الطبيب لإخضاعي للفحص، في رواق احتشد بالمرضى ولغطهم، «كانت فوضى... الداب راكب مولاه»، فظللت أنتظر إلى أن وصلت الشرطة قبل أن يصل الطبيب، بعدما أبلغت إدارة المستشفى عنّي، كما تفعل مع كلّ من يصل مصاباً في حادث أو شجار. انتقلت إلى المخفر وطال انتظاري قبل أن يستمع حافظ إلى إفادتي، من دون أن يُقيّد شكواي ضدّ المعتدي، إلى أن يحضر كمال كشاهد، فعدت إلى البيت ليلاً، مشياً على أرصفة تفترشها عائلات بلا مأوى ووجدت نفسي في اليوم التالي مشتبهاً به في قضيّة قتل.

حدّثتني نورة عن مرزاقة سوالم، التي كنت أبغض اعتدادها بنفسها.

– هل كانت في خصام زغواني؟

– المرحومة مرزاقة تخاصمت مع الجميع، حسبت نفسها أعلى مقاماً من غيرها.

– لم تشتكِ لك زكيّة منها؟

– لم تكن تشتكي سوى من زيادة وزنها بسبب إسرافها في أكل الحلويات.

قبل أن أودّعها في عبوس، خاطبتها: «لم يكلّ بنسالم هذا عن البحث عن المرحومة وأثقل على قريبتها نصيرة لتدّله إلى مكانها». «هل هو من أرسلها إلى حتفها؟»، نوت أن تستوضحني، لكنّ السجّان انتصب بيننا.

1 أكتوبر

اشتعلت أمّي غيظاً بعد أن أخبرها عمّي بما طلبته منه، فذمّتني بكلّ النعوت التي تعرفها: منتن، رخيص، خبيث، أجرب... بينما اكتفيت بشتم لعموري.

– الأقارب كالعقارب.

– أنت العقربان الكبير.

كرّرت مُحاولتها إقناعي بأن أهجر محلّ أشرطة الأفلام، وأن أجد شغلاً آخر، فأغلقت باب غرفتي، مخفياً عنها أنّني قد دفعت ديني ولم أعد أكثر من أجير. تفقّدت أغراضي التي جلبتها من وردة الرمال: بطّانية، وسادة، أدوات أكل، القيثارة، كاسيتات، جهاز التسجيل الراديو وحفنة كتب. ودّعت حياتي السابقة وعليّ التزام الوقار في عملي، احتراماً لصاحب المحلّ الجديد.

خرجت من غرفتي، على نيّة أن أقتطع نصف رغيف خبز من المطبخ، أمضغه في طريقي، فتناهى إلى أذنيّ صياح بائع الأواني الجوال، قبل أن أسمع طرقاً على الباب.

– إبراهيم درّاس؟

رددت على الشرطي، الذي أظهر استدعاءً في يده، بإيماءة.

– عليك الحضور إلى المخفر.

هببت إلى الداخل أخبر أمّي أنّ الشرطة تطلبني، ظنّاً منّي أنّ المفتّش يودّ سؤالي مرّة أخرى عن زكيّة زغواني، فردّت عليّ بحنق: «يا ربّي يشدّوك في الحبس»، وكتمت إجابتي: «السجن يزيد من شدّة بأس الرجال».

مشطت شعري، تعطّرت بالقارورة التي أهداها لي المرحوم نبيل واتّجهت إلى مقصدي، أتأبّط رواية «الشيخ» التي عزمت على إيصالها إلى تيجاني يروّح بها عن نفسه. مررت جنب جبّانة النصارى فطفت في ذهني صورة عظام يبرق منها طقم أسنان من ذهب، باتت تلك الصورة ملتصقة بذلك المكان في مخيّلتي. وصلت إلى وجهتي، وقبل أن أدخل عدّلت شعري براحتَي يدي، في حركة رشيقة، بعدما تففت عليهما، ثمّ قدّمت بطاقة هويّتي في الاستقبال، فأشار إليّ الشرطي بالصعود إلى الطابق الأوّل، بعد أن أتمّ مكالمة هاتفيّة لم تدم أكثر من نصف دقيقة. دخلت مكتب المفتش، لكنّني صادفت شخصاً آخر بوجه ثخين وعينين بنيّتين يحمل رتبة حافظ، أمرني بالجلوس من دون أن يدقّق النظر إليّ، مكتفياً بالتحديق في أوراق بين يديه، قبل أن يرفع رأسه:

– لماذا اعتديت على أملاك كمال بلعطّار؟

– ليس صحيحاً.

أنبأني أنّ صاحب الشكوى يحوز شاهداً، يُدعى فضيل عرقوب، وأنّ الأمر سوف يستعصي عليّ إن لم أعترف. شعرت بأنّ الكلام تهديد لي، وأنا أنظر إلى الشرطي الآخر بجانبه، يرقن كلامي على آلة فاسيت، مثل تلك التي استخدمتها أمام مركز البريد. كان يقوم بواجبه كمن يسمع ولا يتكلّم، يحرّك أصابعه بخفّة على أزرار سوداء،

ولو أنّهم ينظمون بطولة في الرقن لخرج منها بميدالية ذهبية. تشرّب خدّاي بلون أحمر سرعان ما استحال إلى أصفر.

– هو من ظلمني.

– لم أفهم!

– لم يدفع دينه لي.

– بدل أن ترفع شكوى تعتدي على أملاكه!

أفرغ الحافظ أنفه في منديل قماشي كمن أصابه رشح مفاجئ، ثمّ طواه طيّتين، ومن دون أن يُتيح لي مُهلة للدّفاع عن نفسي، أضاف بنبرة حادّة:

– أنت رهن الاعتقال.

لم أستوعب ما يحصل لي. بدا لي أنّ التباساً ما وقع، من دون أن أنكّر فعلتي.

حين أغلق باب المحبس، «شعرت بما يشعر به يتيم في مرقد»، كما غنّى سيرج لاما، ترقّبت أن يتدخّل مفتّش الشرطة ويسمح لي بالانصراف إلى عملي، أن أراه يزجر ذلك الحافظ الذي أمر بسجني. رجوت أن يصل ويخلّصني وقد نذرت أن أدّله إلى شكوكي عن تورّط بوستّة في موت مُغنّية الفندق. لكن لم يقترب منّي سوى شرطيّ شابّ، مدّني بإناء ماء أطفئ بها ظمئي، مستفسراً:

– لماذا انتهكت حرمة الغير؟

– دفاعاً عن كرامتي.

– كرامتك ساقتك إلى السجن.

تجاهلت ردّه المُستفزّ، أمنّي نفسي بألّا يسمع خيضر عرقوب بما حصل فيطردني من المحلّ، متضرّعاً إلى الله أن يُخرجني ممّا حلّ بي. قلّبت رواية «الشيخ» بأصابع ترتعش، مع غشاوة تحرمني من تدقيق النظر في صفحاتها، ومن استعادة حكاية ديانا الإنكليزية،

التي وُلدت في جلد ذكر، نحيفة بعينين زرقاوين عميقتين ونهدين ضامرين، مُسترجلة بشعر قصير، تركب الخيل وتُجيد الرماية، كما علّمها شقيقها، الذي تكفّل برعايتها كأخ أصغر له لا أخت، بعدما تُوفي والداهما، وقد وصلت سائحة إلى بسكرة، تلك المدينة المُستلقية خلف كثبان وبين واحات مثل فنك هرِم، فشغفت الأنظار بصفاء وجهها وتنّورتها المنسوجة من التويد، واختلطت بعرب وصفتهم بـ«ضيّقي الصدر». أصرّت على أن تقوم بجولة في دروب الصحراء الشاسعة، على أن تتّجه بعدها إلى وهران برّاً، تركب باخرة إلى مَرسيليا، ثمّ تواصل طريقها إلى شمال فرنسا، من هناك تبحر مرّة أخرى لتلتحق بشقيقها. كلّفت حوذيّاً بأن يسوق قافلتها، من دون أن تعلم بتواطئه مع شيخ يُدعى أحمد بن حسن، اختطفها وحبسها في خيامه مثلما حُبست أنا، مع أنّ الفرق بيني وبين ديانا أنّ أحمد أتاح لها خادماً وفرساً للتّنزّه، استعانت به للفرار، لكنّ الشيخ لحق بها، فتحوّلت العلاقة بينهما من ليّ للذّراع إلى حبّ، بينما شقيقها في حيرة من اختفائها، قبل أن تكتشف أنّ ابن حسن ليس عربياً، بل من دمها، تحمّل والده بالتبنّي تنشئته وجعله يُشبه بقيّة العرب. رغم انطباعي الطيّب عن الرواية، لم أرتح لخاتمتها: لماذا تصرّ الروايات العاطفيّة على نهايات سعيدة؟ أليس الحبّ الأجمل هو الحبّ الأشدّ إيلاماً؟ وزممت شفتيّ وقد حسمت أنّ السجن لا يزيد من شدّة بأس الرجال بل يزيد من رغبتهم في التبوّل.

حميد

خمّنت أن أبسط يدي إلى الجريدة، المُلقاة على طرف منضدة المُحافظ، لكنّني أحجمت. لمحت على افتتاحيّتها خبراً عن ندوة وطنيّة لحماية القُصّر من العنف، يُجانبه آخر عن دورة الألعاب الأولمبيّة في كوريا الجنوبيّة، مُدركاً ألّا شيء مهمّ في صفحة أخبارها المحلية، في غياب مُراسلها تيجاني خرمام، الذي أدّبه مسبوقان قضائيان عقاباً على نشره نبأ وفاة زازا، مع سعيه إلى التأثير على التحرّيات أن لمّح في مقاله إلى أنّ الفاعل مشعوذ يقيم في المرج، «لا يلمّ سوى نفسه»، فقد رفضت تقييد شكواه لاقتصار الشاهد على زوجته.

– أتشرب شيئاً حضرة المفتّش؟

لطالما تعوّد على مُناداتي باسمي، خالياً من صفتي المهنيّة، أو بالإشارة إليّ بسبّابته أو برأسه، «من أين استلهم اللباقة؟».

– أتممت قهوتي للتوّ.

اتّكأ المُحافظ بجانبي على الأريكة، يدلّك ذراعه اليسرى براحة يده اليمنى وحاجباه مقطبان كمن يتربّص بخصم له، سألني عن حال زينب، التي رافقتها في اليوم الفائت إلى الطبيب بعدما تضاعف ألم ظهرها، «في تحسّن»، أجبته.

– ثماني سنوات سررنا فيها برفقتك.

لم أنس اليوم الأوّل الذي وصلت فيه، حين شملت الإضرابات مدينة تيزي وزو، عقب منع محاضرة مولود معمري عن الشعر الأمازيغي القديم. ولم تدم مُقابلتي معه آنذاك أكثر من ربع ساعة، تبادلنا فيها عبارات ترحيب، فقد حلّ قبل وصولي تقرير مفصّل عنّي من مخفر الضاحية العاصميّة الذي عملت فيه.

«متى صرت دمثاً؟»، أحببت أن أردّ على محدّثي، الذي لم يمهلني:

– لقد وصل قرار بإعادتك إلى مخفرك السابق.

فتحت عينيّ على اتّساعهما، غير مصدّق ما سمعت. خيّم صمت لم يخدشه سوى هدير المروحة الكهربائية وأنا أتحسّس ملمس الأريكة الناعم برؤوس أصابعي. لم أطلب العودة إلى المكان الذي جئت منه، ولم أرتكب خطأً يلزم نقلي إلى جهة أخرى. شرحت له ما دار في خلدي، وبدا رزيناً في كلامه.

– عميد الشرطة الذي اختلفت معه أُحيل إلى التقاعد.

أحيل إلى التقاعد قبل خمسة أشهر، كما لم يخف عنّي أنّه لم ينل مبلغه من الفتاة التي خاصمني بشأنها. استفسرت عن سبب تحويلي في هذا الوقت، فجاءتني الإجابة بكِياسة:

– مديرية الأمن هناك بحاجة إليك.

ثمّ تثاءب من دون أن يستر فمه وقد كلّف الحافظ أن يخلفني في مهامي إلى حين.

غيّر نبرته إلى حزم، ووقف متّجهاً إلى الباب، يُنظّف أذنه بسبّابته:

– ستتسلّم غداً نسخة من قرار التحويل.

فهمت أنّ اللقاء الذي دعاني إليه قد انتهى، وأنّ علاقتي بهذه المدينة قد انقطعت. علمت أنّ لديّ مهلة أسبوع لأخلي مكتبي، وراودني أنّ ما يحصل له علاقة بقضيّة زازا، «السبع إذا شاب يطمعوا فيه الذئاب»، أنا سبع سقطت أنيابه وبتّ لقمة لمن يشاء.

رمقت مكتبي كمن يودّع حبيبة لم يُشفَ قلبه منها. غادرت زاعقاً في وجه عون الاستقبال، الذي سألني عمّا عليه فعله بالجالسين في قاعة الانتظار، الذين امتثلوا لاستدعاءات وصلتهم: «فلتلحس مؤخّراتهم»، متذكّراً كلام المجذوب: «يا صاحب كنْ صبّارْ/ اصبر على ما جرى لك/ ارقد على الشوك عُريان/ حتّى يطلع نهارك».

اتّصلت على رقم مكتب نورة، بعد ظهر ذلك اليوم، أروم ملاقاتها في مطعم النخيل.

– لماذا؟

– لأمر يهمّك.

تبدو هذه المحامية ألطف من والدها، الذي سمعت عنه قصص احتيال عقارية. وفي طريقي إلى المطعم، لم ينقطع لساني عن لعن جميع من عملت معهم، وصفتهم بالسفَلة والمنحطّين والأوغاد والفاسقين والأنذال وأنا أتفّ من زجاج السيّارة. تذكّرت حوادث علقت في ذهني، مثل ذلك المختلّ عقلياً الذي قطع رأس أمّه، دسّه في كيس ورقي وخرج يجوب به وسط المدينة، أو تلك العجوز التي قطعت يد حفيدها للاستعانة بها في خلطات شعوذة، أو الأربعينية التي أخفت كيس كوكايين في مهبلها يوم اقتحمنا بيتها بغرض التفتيش، إلى أن بلغت وجهتي، متفطّناً أنّها المرّة الأولى التي أخرج فيها من دون مُرافقة أمنية. منذ موت زكيّة، لم أعد «الرايس» بل حميد لا غير. رجل منزوع الهيبة والتاريخ. احتشد رأسي بالتفكير في شكل حياتي المقبلة في العاصمة، في أزقتها وشوارعها ورائحة

مينائها التي تختلط برائحة السردين. فكّرت في زيارة «مقام الشهيد» مع ابنيّ. ذلك النصب المخلّد لحرب التحرير، المُشكّل ممّا يُشبه ثلاث سعف نخيل، تتلاحم في ما بينها في المُنتصف، ويرتفع عن الأرض بمقدار مئة متر، والمركز التجاري المُتاخم له، الذي يعرض على القادمين إليه سلعاً وماركات أوروبية. حجزت طاولة في ركن قصيّ من المطعم، الذي تتزيّن حيطانه بأدوات خزفية، وعلى مدخله أكواريوم تسبح فيه أسماك ذهبيّة، تتدلّى من جنباته باقات أزهار بلاستيكيّة، بينما توزّع زبائن من أعمار شابّة على الطاولات الأخرى. لم تتأخّر نورة أن أقبلت، ترتدي بنطلون جينز مخفية عجيزتها بقميص أحمر طويل، فانتفضت قائماً، أودّ تقبيل وجنتيها وتشمّم عطرها. لكنّها ابتعدت خطوة للوراء مكتفيّة بمصافحتي، وسرعان ما سحبت يدها.

أطلت النظر في وجهها، فبدت لي أكثر جمالاً من لقائي السابق بها في المخفر، حين استدرجتها بتوقيف زوج خالتها، بدل إرسال استدعاء إليه، قصد سماع ما تعرفه عن قضيّة زكيّة، بعدما علمت أنّها تردّدت على الفندق أكثر من مرّة. أشفقت على حال مخلوف لبْطم حينذاك أن رأيته خائفاً مثل دجاجة يقترب من رقبتها سكّين. كان هزيل الجسد، برأس بيضوي ومنخرين أقلّ اتّساعاً من منخري ابنه، ثمّ بادرتها:

– ماذا أطلب لك؟

– شاي فقط.

طلبت لها ما أرادت، مع صحن حساء لي وقنّينة صودا، وهي مُستغربة ابتسامات النادل المتوسّط الطول، وتودّده إليّ، عكس بقيّة نُدل المدينة المتجهّمين. فقد خفي عليها أنّها تُجالسني في المطعم عينه الذي واعدت فيه حسينة، في بداية علاقتي بها، ولم أكفّ عن التردّد عليه منذ ذلك الحين.

شـددت بإصبعيّ شعـيرات صـدري، الـتي أطلّـت مـن أعلى قميصي، وقد تناهى إلى سمعي موسيقى آتية من محل «نجوم الفنّ» القريب، الذي كان يبثّ ببافلات أغنية شاعت بين الشباب، تجمع بين مغنٍّ مغمور يدعى حسني ومغنّية بصوت ثخين اسمها الزهوانية. يحكيان فيها عن نفسيهما وهما يمارسان طقوسهما العاشقة في كوخٍ متداعٍ، تماماً مثلما فعلت مع بهيجة، في باب الوادي، وقد كنت في السابعة عشرة من عمري، فدشّنت في صحبتها سيرتي مع النساء.

ثبّت نظري في عينَي المحامية وقلت بنبرة مكسورة:

– لن تريني مجدّداً في مكتبي.

ظنّت أنّها مزحة.

– سأعود إلى العاصمة.

مدّ لها النادل كوب شاي وفارقتها الرغبة في تجرّعه كما لو أنّ كلامي استحال حصاة في حلقها، وأحضر لي حساءً، شرعت أتلقّفه في هدوء، ثمّ مدّني بصودا.

– ضِقت ذرعاً بنا!

هزئت بغية أن تجرّني لمصارحتها، فرويت لها عن قرار إعادتي إلى المخفر الذي جئت منه، وظنوني أنّ الأمر يتعلّق بملفّ زازا. لم أوار ما حصل لي منذ مقتلها، من تهشيم زجاج سيّارتي إلى المخاوف التي سكنتني أن أكون ثاني المستهدفين، تقلّبي في النوم وخسارتي بضعة كيلوغرامات من وزني. أخفت ثغرها بيدها، متعاطفة معي.

– لم أرد مُقابلتك لأشكو لك حالي.

– ...

– بل كي أنفعك في قضيّة المقتولة.

– لن تنفعني بشيء ما دام بشير في السجن.

عابت عليّ أنّني أرغمته على بصم محضر الاستماع.

– تودّين أن أصير مسخرة!

كلّ قضيّة تنتهي بالعثور على الجاني كنت أنال منها مكافأة نهاية الشهر، لذلك حرصت منذ شغلي منصبي على ألّا تـدوّن أيّ قضية في خانة «متّهم مجهول».

– لماذا عنّفته يوم توقيفه؟

– نوبة غضب ندمت عليها.

الفرق بيني وبين كولمبو أنّني سريع الغضب. وباحت لي أنّ زازا اقترنت بخطيب قبل بشير اسمه بنسالم، «شكّي أنّ قلبها تعلّق بآخر أيضاً»، فشعرت بأنّني كنت أبله أن صدّقت المرحومة كلّ ذلك الوقت. أعلمتها أنّها فرّت من بيت أهلها وشرطة بلدتها «عمّمت صورتها حينذاك على محطّة المُسافرين، المطاعم والمساجد، بلا فائدة».

– أعرف.

أفهمتها أنّ ذلك كلّه لن يُغيّر من الواقع شيئاً.

– كان ابن خالتي جريحاً ليلتها، لم يكن في كامل قواه ليرتكب تلك الفعلة!

– أظنّ أنّه لم يتورّط وحده في هذه الحكاية، هناك من تواطأ معه ومن تستّر عليه.

أنبأتها أنّ نتائج تحليل الدم قد وصلت من المخبر ولم تشر إلى شيء ذي بال. لم تكن ثملة ولم تتعاط أدوية محظورة قبل موتها، وكلّ البصمات التي رفعناها من غرفتها لم تكن سوى بصماتها، ناصحاً إيّاها بالعودة إلى الفندق، مفصّلاً كلامي بما سمعته من عاشور وابنته ومن المؤذّن، ومن إفادة فرحات، مُفصحاً عن أنّ ما حدث لم يكن من تخطيط شخص بمفرده، مستحضراً كلمات حليمة أنّ ابنتها لم تكن مُطمئنّة لمن كانوا يعملون معها.

رمقت فكّها السفلي يرتجف، وكرّرت على مسمعي ما قالته زازا لابنة خالتها نصيرة: «سأصير سيّدة الفندق»، فشدّدت نظري إلى وجهها، بشفتين مزمومتين:

– لا يمكن أحداً أن يتسيّد ذلك المكان إلّا بالتخلّص من ميمون.

– هل تآمرت عليه فانتقم منها؟

أنهيت صحن الحساء ورشفت ما علق في قنّينة الصودا فتطايرت قطرات على طرفي شفتي، من دون أن تبلع نورة رشفة من كوب الشاي. تحرّك معلقة صغيرة بداخله من غير كلل، ومن شدّة توتّرها سحبت سيجارة وطلبت منّي عود ثقاب.

– لم أكن أعلم أنّك تدخّنين!

– لم أكن أعلم أنّك ألطف من الشائعات التي تُحكى عنك.

غمر الضحك أساريري، قبل أن تتوجّه إليّ بالسؤال:

– لماذا أحببت مُساعدَتي؟

– كي تساعديني على ألّا يذهب دمها سدىً.

لم تصدّق ردّي، مستغلّة ودّي معها.

– أحتاج منك إلى خدمتين.

ترقّبت أن تطلب شيئاً يتعلّق بابن خالتها، وتجهّزت أن أعتذر لها.

– التحقيق مع خطيبها السابق.

– والخدمة الثانية؟

– أن تُعاقب إبراهيم درّاس.

تظاهرت بعدم معرفتي بذلك الشخص، الذي لم أرتح لإفادته ويقيني أنّه يخفي أمراً.

– صاحب محلّ أشرطة الأفلام الذي استجوبته مرّة.

– ماذا فعل؟

– يُضايقني.

«أنت مُحامية ولا تعرفين الدفاع عن نفسك»، كتمت إجابتي.

– ما تهمته؟

– ترويج أفلام خليعة.

سبق أن تغاضيت عن شكوى إبراهيم ضدّ شقيقها، لعدم توافره على شاهد، ولم أعلمها أنّ صاحب وردة الرمال سيلقى جزاءه، عقب تسريبه خبر مقتل زغواني إلى المراسل الصحافي، كما أقرّ تيجاني للرّجلين اللذين عاقباه، «حشر أنفه بنفسه في عشّ دبابير». وطمأنتها بأن أهاتف مخفر نزرامة، بغرض إرسال إفادة المدعوّ بنسالم، مدوّناً طلبها في كنّاشي، مع أنّ الإجراء القانوني يستلزم مُراسلة مكتوبة، ثمّ أخذت أنظّف أسناني بظفر سبّابتي.

– من فرحات هذا الذي ذكرت اسمه؟

– عمل عازفاً مع المرحومة.

سألتني عن مرزاقة سوالم، فسردت عليها وقائع انتحارها، وكيف أنّ عائلتها استعجلت دفنها، من دون إخضاعها للتّشريح، كي لا يطول حزن ابنيها عليها، وكيف عثرنا على كشف طبيّ في غرفتها يفيد أنّها كانت حاملاً.

– كانت حاملاً؟

سحبت نفساً من سيجارتها وأردفت:

– على حدّ علمي كانت مطلّقة؟

– ألا يحقّ للمطلّقة أن تحبّ رجلاً آخر؟

صمتت قليلاً، ثمّ حدّثتني عن شكوكها في صفيّة بشيش، مستدركة:

– مع أنّها بدت لي ذات شخصية مُسالمة، لا يهمّها سوى أن تلفت النظر إليها، بالإفراط في صبغ وجهها بالمكياج.

نفيت شكوكي في الشيخة ذهبيّة وكانت تلك آخر مرّة ألتقي فيها بنورة عرقوب. في مساء ذلك اليوم، خرجت مولودتي إلى الوجود، فتذكّرت مقطعاً من شعر عبد الرحمن المجذوب: «لا يغرّك نوّار الدفلى في الوادي داير ظلايل/ ولا يغرّك زين الطفلة حتى تشوف الفعايل»، مُصرّاً على تسميتها زكيّة، متمنّياً ألّا تلقى مصير مغنّية فندق الصحراء، رغم اعتراض زينب، التي سبق أن أقنعتني باسم لمياء. لكنّها ما لبثت أن استسلمت لمشيئتي. تعلم أنّها ستنتقل معي إلى العاصمة، وترتمي في حضن حماتها، الموشومة الجبين، التي كفّ بصرها وسرّها خبر عودتي. هاتفتني حسينة عيداش، وأنا منغمس في مشاهدة قناة فرنسيّة، قصد تهنئتي بميلاد ابنتي ومواساتي بعدما علمت بنبأ مغادرتي. وفي خضمّ الكلام، سألتني متحسّرة:

– تظنّ أن بشير لن يخرج من سجنه؟

– أظنّ أن نورة لن تخرج من قضيّته سالمة.

نورة

وصلت إلى الفندق ورأيت كمال يتمدّد على صوفا في البهو، يمدّ ساقيه إلى الأمام، بحذائه الموكاسين الجلديّ، الذي لم يُخالطه غبار. كان يراقب حركة الموظّفين الهادئة من حوله، مستمعاً إلى صوت أمّ كلثوم من جهاز تسجيل. ما إن لمحني حتى انتفض من مجلسه واقفاً، مبتهجاً لرؤيتي.

أقبل إليّ مصافحاً، متقبّلاً اعتذاري أن حللت بلا موعد. ولا بدّ أنّه انتبه إلى وجهي الشاحب، مرجّحاً أنّني أعاني من مغص أو من عادتي الشهرية، عارضاً عليّ كوب عصير، فلم أمانع.

توقّف توافد الأجانب، كما أخبرني، وكفّ عن سماع شكاواهم ضدّ الأطفال الذين يُضايقونهم، في وسط المدينة، يتسوّلون نقوداً أو حلويات، بينما أنوفهم تسيل مخاطاً. لم يعد يُراود المكان سوى شابّة مُغتربة، تدرس علم الآثار، استغرب ملمحها الصارم طوال الوقت: «لم تنفرج شفتاها منذ وصولها». جمال المرأة في عرفه من جمال أسنانها... «افتعلت مرّة ضحكة أمامها قصد خطف ابتسامة منها، لكنّها تمنّعت»، فخمّن أنّ المكان لم يُعجبها. اعترض معقباً: فلتذهب إلى مُوتيل النور، الذي يعجّ بصراصير ويأوي إليه عابرون ومحتالون

ومشرّدون، زيادة على الزبائن المحليّين، الذين يأتون أزواجاً قصد قضاء أيّام عسل، أو عُزباً ممّن انفتحت لهم خزائن الرغد، يحجزون غرفاً من أجل إرضاء ملذّاتهم، يتفسّحون في الحديقة بين النخيل وأزهار إبر الراعي وبهجة الصباح، وشجيرات الياسمين الهندي والخزامى، أو يغطسون في المسبح، وفي المساء يحرّكون أجسادهم مثل دراويش في الأمسيّات التي تحييها الشيخة ذهبيّة.

أوقف جهاز التسجيل وسألني عن بشير، منفطر القلب، وأنا أتجرّع عصيري، أنظر إليه يدخّن في هدوء وأجيب بإيجاز: «إنّ بعد العسر يسراً»، مستشعرة تصلّباً في ثديّ. استويت في جلستي، وقد التصق قميصي الأحمر ببطني من شدّة التعرّق.

– هل تتذكّر أين كنت ليلة مقتل زكيّة زغواني؟

ظنّ أنّ مهمّته قد تمّت بأن قدّم إفادته في المخفر، لكنّه سلّم بمُسايرتي.

– في العمل.

يملك دليلاً على استقباله سيّاحاً أجانب، وصلوا في ذلك الصباح الباكر، قادمين من العاصمة. عرض عليّ أن يظهر الأرشيف لأتحرّى تاريخ وساعة قدومهم.

– بل أثق بك.

لم يفتعل أيّ حركة تُدينه، وأنا التي تعلّمت أنّ الحركة تسبق اللسان. من المحتمل أنّه خمّن أنّ سؤالي لا يعدو أكثر من إجراء روتيني أُداوم عليه بوصفي مكلّفة بالدفاع عن ابن خالتي.

حشرت خصلة شعري خلف أذني، مصوّبة نظري إلى أنفه المتّسق مع وجهه كما لو أنّني أراه للمرّة الأولى، مصرّة على أنّ شفتيه نُحتتا للتّقبيل. فكمال من النوع الذي يُحافظ على وسامته حتّى بعد

الخمسين من العمر، متخيّلة بطنه المشدود تحت قميصه الأبيض عكس بطن إبراهيم المرتخي مثل عجينة بقلاوة.

– يبدو أنّ علاقتك بالمرحومة لم تكن على ما يُرام!

فهم أنّني جئت مسلّحة بخبايا لم يكن يعرفها سوى أقرب المقرّبين منه، متمالكاً رزانته في الردّ.

– لم تحتمل صرامتي.

قال مختصراً استياءها منه في مزاجها الحادّ، فلم أعلّق لعدم معرفتي الشخصية بالضحيّة، مستوضحة منه إن كان يذهب إلى المرج، على نيّة أن يجرّه لسانه إلى فضح من كان يذهب إلى هناك من موظّفي الفندق.

– عفا الله عنّي.

حدّثني عن ذهابه إلى ذلك المكان في الماضي، برفقة المسمّى فرحات، الذي يملك درّاجة نارية، «قصد تدخين لفافة». ففرحات كما قال لي، يستلطف تدخين الحشيش في مكان مفتوح، بدل الجلوس خلف أربعة جدران، «يمعن في استنشاق لفافته إلى أن يصير وجهه مثل حبّة بطاطا، لا قوّة له سوى على الضحك، كما لو أنّ أحداً يدغدغه».

– لقد أقلعت عن تدخين الحرام.

أجّلت سؤاله عن فرحات هذا، الذي لم ينقطع عن الذهاب إلى المرج بغرض ملء عقله بالحشيش. وقد بدا لي شخصاً غامضاً، ثمّ استفسرت منه عن ذلك الجار الذي اعتدى على بشير.

– سينال جزاءه.

أجابني بثقة، غير مصدّقة تمام التصديق قوله. لماذا اعتدى فقط على ابن خالتي؟ ما الذي يمنع أن يكون كمال من حرّضه؟

أربكتني رائحة عطره وظننت أنّني أُبالغ في شكوكي، فشكرته على العصير، ثمّ سألته إن كان يمكنني مُقابلة ميمون بلعسل.

هاتفه بتكاسل، من مكتب الاستقبال، ثمّ خاطبني بابتسامة تودّد:

– تعرفين الطريق إليه.

أبصر الحاج وجهي، الذي برق بحبّات عرق، صيّرتني أشبه بصورة فوتوغرافية.

– لا ندري متى سيُغادرنا هذا الحرّ الذي يشوي الرؤوس.

«ينتظرك حرّ أكبر في نار جهنم»، قلت في نفسي، مستغربة أنّه وافق على ملاقاتي من دون تردّد. لم تنقطع ثرثرته عن أحوال الطقس، الذي ييسّر في النهار شواظاً للجراد الذي لا يفتأ يتكاثر، وليله لا ينعشه هواء ولا مراوح كهربائية.

ابتسمت ليشعر باطمئنان لزيارتي له، وهو يمرّر راحة يده على صلعته وتجاعيد جبهته.

اقترح أن يطلب لي مشروباً بارداً فاعتذرت، «على راحتك»، قال. ألحّت عليّ رغبة في حكّ إبطي، وسألته عن آخر مرّة ذهب فيها إلى المرج.

– كثرة الانشغالات تحدّ من حركتي.

أردف رافعاً رأسه إلى السقف:

– لم تطأ قدماي ذلك المكان منذ سنين.

خمّنت أنّه حضّر نفسه ليتهرّب من سؤال كهذا. إنّه مناضل قديم، لا ريب في أنّه تعوّد على الفرار بسلاسة من المواقف الحرجة. لكنّني وضعت ماضيه جانباً وواجهته.

– هناك من شاهد سيّارتك في المرج ساعة مقتل زكيّة.

هذه الجملة ردّدتها في سرّي، مرّات ومرّات، قبل أن أصل إليه، لأنطقها بلا انفعال وأشعره بجديّة كلامي.

اعتدل في كرسيّه، غير مُبالٍ بالهاتف الذي ظلّ يرنّ، مصوّباً نحوي نظرة ذكرّتني بأبي حين كان يغضب منّي في صغري، فيصفعني أو يحكّ فلفلاً حارّاً على شفتيّ.

– لعلّه محض تشابه؟

– بل بالإثبات.

صارحته، من دون أن أطرف بعيني، بأنّ مُؤذّناً شاهد سيّارته وترقيمها بالقرب من مسرح الجريمة، فتيبّس وجهه وغدا مثل قطعة أثاث وأنا متسمّرة أنتظر ردّه. شحبت شفتاه وأخذ يتعرّق، لولا حركة رموشه لظننت أنّه أغمي عليه.

2 أكتوبر

بدل أن أعثر على قبر أبي شرعت في حفر قبري بيديّ، وألقيت بمؤخّرتي على أرضية إسمنتية، مطوّقاً بنحيب سجناء وضحك آخرين. ضجرت من سماع خطوات الحرس في الرواق، مستاءً من كوّة أعلى حائط تنفث شهيلي ومن مصباح النيون القويّ، الذي يُضيء المكان، من دون أن ينقطع عنه التيار عكس ما يحصل في بيوت الناس. بعدما قضيت نصف ساعة صامتاً وحائراً، لمحت جغلول، زبوني السابق، الذي هزل بدنه، من دون أن تهجر خدّه شامة محاطة بشعر، ولم يبق في فمه سوى أربع أسنان، فسألني:

– ما الذي جاء بك إلى هنا؟

– انتهاك حرمة الغير.

اشتغل جغلول سنوات في ورشة صنع سكاكين بوسعاديّة، يتهافت عليها السيّاح. غمدها من جلد الماعز، مقبضها من عاج ومزيّنة بنقوش. لاحقاً صاحب جماعة أشرار اختصّت في سرقة السيّارات، في بلد لا يتوافر على كفايته من السيّارات، فالإحصائيات تقول بأنّ هناك 6 مركبات لكلّ 100 شخص، كما قرأت مرّة.

استفسر منّي عن هويّة صاحب البيت الذي انتهكت حرمته وهشّمت زجاج سيّارته: «وغد لم يدفع دينه لي»، دون أن أذكر اسمه. «ديما تحط روحك في الخرا»، «أنت محقّ»، أجبته في سرّي، ظننت أنّني أفهم في شؤون الحياة من كثرة قراءاتي، وأنّ الساعات التي قضيتها في مطالعة الكتب أكثر من ساعات النوم ستسعفني، قبل أن أفقه أنّني لم أكن سوى نصف جاهل، يحصل دائماً أن «نخسر أو نكسب» كما غنّت فرقة إيغلز، أمّا أنا فلم أكسب شيئاً، ممعناً في الخسارات.

فجر اليوم التالي تقدّم منّي شابّ بدين يُشبه معزة حبلى، لإيقاظي من غفوة لم تدم أكثر من دقائق معدودة، رأيت فيها نفسي بشعر أشيب، أليس الشيب من علامات الوقار؟

«الصلاة»، قال لي. أفزعتني نظرته الصارمة وأسنانه القاتمة. حاولت التهرّب منه: «لم أتوضّأ». «تيمّم»، مومئاً برأسه إلى الأرضيّة، فأبصرت شباباً آخرين يفعلون ذلك. لم أجد بدّاً من مُحاكاة حركاتهم. بالكاد أتذكّر صغار السور، فقد مرّ ردح من الدهر لم أركع ولم أسجد، منذ أن كنت طفلاً أحتذي بمعلّمي وأقراني في المدرسة. آخر صلاة حضرتها كانت صلاة الميّت عن نبيل، ولم يكن فيها ركوع ولا سجود. وقفت مع المصلّين في كسل، ثمّ باشر شابّ كان قد أذّن قبل ذلك بدعوتنا: «الكتف للكتف، والقدم للقدم يستوي الصف». تمّت الصلاة وباغتني ألم في ربلتي كما لو أنّني أدّيت واجباً غصباً، منتبهاً إلى أنّ المسمّى سيدي زرزور قد صلّى متنحّياً عنّا، وقد شاع عنّه أنّه يخفي ماله في مؤخّرته، يلفّ أوراقاً نقدية في شريط لاصق، يلحسه قبل أن يلج حلقة دبره.

عادت الفوضى بعد الصلاة. لا أحد يضطجع في مكانه هانئاً، وكلّ واحد من المساجين يسعى للسيطرة على سنتمتر إضافي، كما لو

أنّهم جراد ثمل. وأصخت إلى شابّ، كان الحاجز الفاصل بين منخريه مقطوعاً، يرفع يديه بالدعاء أن يعود الماء إلى الحنفية، بعد أن غاب عنها في اليومين الفائتين.

– يُريدوننا أن نموت بالعطش.

– ألسنا ميّتين بعد؟

انزويت إلى ركني، عاجزاً عن إغماض عينيّ، مداعباً الرواية بين يديّ، «لا طائل من القراءة والكتابة ولا الدبلوم الآن». تذكّرت مقولة مالك حدّاد: «المنفى عادة سيّئة وجب علينا التعوّد عليها». السجن أيضاً عادة سيّئة يجب عليّ التعوّد عليها، وأقصى أمنيّاتي تذوّق طعم النيكوتين، الذي لم يتخطّ بلعومي منذ توقيفي. باتت نفسي توّاقة إلى الفول الذي كثيراً ما عفته، إلى سماع الراديو وأخبار الإيدز، الانقلابات، الفيضانات والزلازل التي تلفّ القارّات، أو أنباء الشباب الذين يُلقى عليهم القبض مختبئين في البواخر المسافرة إلى أوروبا. أتوق إلى حضن قيثارتي أو شمّ هواء في الخارج، لا ضرر إن كان ملوّثاً بدخان شاحنة البلديّة المضادّ للحشرات. فالجوّ في الداخل لا يُطاق، يفوح منه عرق وصنان ونتانة أرجل. ماذا تفعل أمّي في غيابي؟ هل علم خميسي بما حلّ بي؟ ثمّ وصلني صوت سجناء يتلون أدعية، أخفى تأوّهات شابّين تخفّيا تحت بطانية. فلعنتهما في قلبي وتذكّرت نورة، فهي المحامية الوحيدة التي تعرّفت إليها في حياتي، متذمّراً أن ساءت علاقتي بها، فأنا لا أملك مالاً لأكلّف محامياً، ولا محاميَ يُدافع عنّي بالمجّان. استحضرت سنوات دراستي وعملي في وردة الرمال، «كلّ شيء ضاع»، وأنا أطوّق ركبتيّ بذراعيّ حين تقدّم إليّ مؤذّن السجن، بلحية منفوشة مثل فرخ حديث الولادة، يدسّ عود سواك بين شفتيه.

– من أين أنت؟

– من حيّ العشاشة.

– أعرفه.

من لا يعرف ذلك الغيتو الذي وُلدت وكبرت فيه، حيث الناس يسكنون أعشاشاً لا بيوتاً. الأطفال فيه يبلغون سنّ الرشد قبل الأوان، يتصارعون في ما بينهم كلّ صيف مثل ثيران، والمُنتصر يصير قائداً لهم. يأمر فيُطاع، يتداولون نكاتاً إباحيّة، يشحذ بعضهم أعقاب سجائر من بعض، ويتناوشون من أجل حبّة بيض أو مكعّب سكّر. يتبرّزون تحت الحيطان من دون أن تنغّص عليهم روائحهم. يشوون العصافير ويصطادون العقارب والجرذان، وكلّما رأوا عاشقين يتمشّيان معاً رجموهما بأقبح كلام. يقتلعون كلّ شجرة تنبت، ومن يغِبْ من الجيران، الذين يتنافسون في التناسل، عن بيته أكثر من يوم، فلن يجد سوى الحيطان. لا يُشاهدون سوى أفلام وسترن أو أفلام قتال ومن يصرّ على فيلم عاطفيّ يُنعت بأسوأ الصفات. لا يمرّ عام من دون أن يعثر الناس هناك على رضيع مجهول النسب. تعبت الشرطة من مجاراتهم وتركتهم يجاورون موتى جبّانة النصارى، ينبشون القبور ويدعون الله في صلواتهم أن يطيل في أعمارهم.

حنّ عليّ ذلك المؤذّن وأحسّ من ملمحي المقبول أنّني شخص مظلوم.

– هل لديك أهل؟

– أمّي مغلوبة على أمرها وشقيقي الأصغر بالكاد يكسب قوت يومه.

– عدّني أخاً لك.

سألني عمّا أحمله في يدي.

– رواية.

– ما عنوانها؟

– الشيخ.

قطعت سيل أسئلته بأن طلبت منه اسمه، فأجاب:

– بشير لبْطم.

حليمة

وقفت أمام شرطيّ الاستقبال، المشغول بتصفّح مجلّة رياضيّة، وسألني من دون أن يرفع رأسه، مثل روبوت: «عندك استدعاء؟». هل ظنّ أنّني واحدة من النسوة اللواتي يُستَدعين بشبهة المُتاجرة بمصوغات زائفة أو مسروقة؟ أو بيع وشراء حبال سرّة الرضّع، التي تستعين بها عاقرات في طهوها وأكلها قصد الإنجاب؟ سألته فأجاب «لا».

تفرّس وجهي وأنا التي تخيّلت أن ألقى مُعاملة أليق، بعد أن ثكلت بابنتي، وقد عاودتني رائحة الكافور التي زكمت أنفي في حجرة حفظ الجثث، حين ألقيت نظرة أخيرة على جثمانها، فلم أجد ما أردّ به سوى القول:

– حميد هنا؟

رمق عينيّ محاولاً التعرّف إليّ وشعرت بحرج من إطالته النظر إليّ.

– لا.

انتظرت منه أن يُخبرني متى يأتي أو أين أنتظره، راغبة في أن أعضّ أصابعي لأنّني لم أنبّهه إلى موعد وصولي. فقد اتّصلت في اليوم الفائت مرّات على رقم مكتبه ولم يردّ. ظننت أنّه انشغل

فقط وعجّلت ألتمس عونه. فقد سيق بكري التلي، جزّار الدجاج في السوق اليوميّة، إلى السجن، بعد مُناوشة مع المُسمّى بنسالم، الذي استدعته الشرطة للاستماع إليه، فخال أنّه سيتورّط في قضيّة زكيّة. حنق على ابني وتشابك بالأيدي معه. نعت المرحومة بأشنع النعوت، أمام مسامع الناس، متفاخراً بأنّه «فعل فيها الفاحشة»، قبل أن يتلقّى طعنة على كتفه اليمنى أسكنته المستشفى. التلي غضوب، ابني وأعرفه. لم يرهقني حمل واحد من أبنائي مثلما أرهقني حمله. أرضعته شهرين زيادة عن إخوته، فشبّ قصير قامة، طويل لسان، مثل والده، ودمه يغلي على الدوام.

أتذكّر حين عدت من دفن ابنتي، في ذلك اليوم الحارّ، كما لو أنّ سعيراً ما تقبّل شفتَي نزرامة، فأقبل عليّ بفظاظة: «بنتك جابت العار حيّة وميّتة». حكيت له أنّها راحت ضحيّة غدر، لكنّه لم يشفق على حالي. زجر في وجهي من دون أن يلقي بالاً لاغتمامي. أمّا يحيى الذي يصغره بعامين، فقد تطاير بصاق من فمه وهو يلحّ عليّ أن أنطق بهويّة الجاني، «راه في الحبس»، «والله نقطّع مصرانه بيدي»، شاهراً سكّيناً أمامي، ففاضت عيناي دمعاً وكاد يُغمى عليّ. وجدت نفسي سجينة هياج أربعة أبناء، أدناهم سنّاً سليم وبختي لم يتوانيا عن شتم روح أختهما.

– وقتاش يرجع؟

– مشى للخدمة في العاصمة، أجابني الشرطي.

خمّنت أنّه يمزح وسوف يُراجع كلامه، لكنّه أصرّ.

تفصلني عن العاصمة مسيرة خمس ساعات ونيّف بالسيّارة، «من قرحة إلى قرحة»، متحسّرة على أنّني جئت بمفردي. فقد حُجبت ابنة أختي نصيرة إذ منعها والداها من الخروج وحدها أو في صحبة محارمها. هكذا تعوّد الناس أن يفعلوا، حين تنوي عائلة تزويج

ابنتها. تسترها في البيت، تشيع فعلتها بين الجيران، ولا يُسمح لها بأن تخطو إلى الخارج إلى أن يتقدّم إليها عريس. لم أكن أحمل معي سوى مبلغ العودة إلى نزرامة، مع بضعة دنانير أخرى، لا تكفي لأؤجّر غرفة. عوّلت على مفتّش الشرطة أن يوفّر لي مبيتاً، مثلما فعل قبلاً. منذ وفاة ابنتي انقطع رزقي. لولاها لما غرست سنّاً ذهبية في فمي. وزّعت مدّخراتي على أبنائي ليكفّوا كلامهم بأنّني أسأت تربيتها.

انسحبت إلى الخلف من دون أن يلقي الشرطي بالاً. وكان وجهه مستطيلاً كحبّة فول، وأنا أمقت أكل الفول ولا أستلطف من يشبه وجهه حبّة فول. خرجت مُتوهّمة أنّ حميد غدر بي وأخفى عنّي نيّته التحوّل إلى مكان بعيد، فآخر مكالمة بيننا جرت حين زارتني تلك المحامية في بيت شقيقتي وأخبرته فيها بما دار بيننا من كلام.

لم يبزغ في بالي سوى أن أتّصل بنورة، أشكو لها أمري وأغتنم مجيئي في زيارة قبر ابنتي.

هاتفتها بصوت خافت، فظنّت لوهلة أنّني واحدة من موكّلاتها.

– أنا حليمة، أمّ المرحومة.

علا صوتها، كمن لسعتها نحلة، وأخبرتها أنّني أكلّمها من مخدع تليفون قبالة مركز البريد.

– أنا جاية.

عندما لمحتها، شعرت كما لو أنّني لمحت الصبح بعد ظلمة، تأسّفت على جفائي معها حين زارتني للاستماع إليّ وعانقتها كما أعانق حبيباً بعد فراق.

– أنا في يدك وأمنك.

ركبنا سيّارة كلوندستان، تفرض تسعيرة أكبر من تسعيرة سيّارات الأجرة، واتّجهنا إلى حيث تسكن.

ظنّت أمّ نورة أنّ ابنتها أحضرت واحدة من زبوناتها، وعزمتني على شاي في الصالون. كان طعمه مرّاً مثل أيّامي ولم أجرؤ على طلب سكّر. أنا مجرّد ضيفة والضيفة لا تتأفّف، بينما راحت قطّة تطوف بين سيقاننا، تحرّك ذيلها كما لو أنّها تودّ أن أمسّد فروها.

جلست المُحامية على الأريكة بيننا، وسألت أمّها إن اتّصلت بخالتها. فراحت الأمّ تتحدّث عن شفقتها على حال أختها، كما أنّ زوجة عمّ بشير، كما قالت، زارتها تلتمس أحواله، قبل أن تُباغتها ابنتها:

– حليمة... أمّ اللي قتلوها...

اتّسعت عينا أمّ نورة، مُحدّقة في شعري الذي تقدّمته خصلات شيب، بعدما أمطت المحرمة التي غطّت رأسي، «لازم نلوّنها بالحنّاء كي يكتمل حدادي على ابنتي»، أسررت في قلبي، وبادرتني وهي تعقد يديها أسفل بطنها بنبرة عطوف:

– ابن أختي دخلوه للحبس بالغلط.

لم أفهم ماذا قصدت، وشعرت بسخونة تزحف إلى أذنيّ قبل أن تمسك نورة بيدي، وتفصح عمّا سوف يكاد يقطع أنفاسي، أنّ المُشتبه به في مقتل زكيّة إنّما هو ابن خالتها. ظننت أنّني وقعت في مكيدة، «يا ربّي العالي شوف لحالي»، مُخفية فمي بيدي ولعنت حميد في سرّي اعتقاداً منّي أنّه غادر منصبه ليُوقعني في تلك الورطة.

لحظت نورة ارتباكي وأنا أتحسّس قفاي: «أنت في دارك وبين أهلك»، أمّا أمّها فقد بلعت لسانها، لا تعلم أنّ تلك الزيارة جاءت صدفة. بادرتني المحامية بالقول إنّ المُشتبه به لم يُجبر الفقيدة على فعل ما لا تُريد، مستحضرة نفيه لتهمتي شقّ وردتها وقتلها، مستفسرة إن كانت ابنتي مخطوبة من رجل في ما سبق. أصرّت على تشبيك يديها مع تحرير إبهاميها اللذين شكّلا ضلعي مثلّث. فهمت ما رمت

له، فحكيت لها ما وقع لابني المسجون، ولم أجد بدّاً من البوح بما أسرّته لي نصيرة، بعدما اعتقلت الشرطة بكري التلي. فاضت عيناي دمعاً وأفشيت بما وقع لزكيّة يوم اختفائها، قبل ستّ سنوات.

عندما قاربت ابنتي الثامنة عشرة من عمرها، تعرّفت إلى شابّ يُدعى بنسالم، يُتاجر في قطع غيار السيّارات. أعجبتها نعومة شعره وبريق عينيه السوداوين ونوى خطبتها. بيد أنّ علاقتهما لم تدم سوى شهر واحد وانفصلت عنه حالما علمت أنّه من قبيلة تنصب لقبيلتنا عداءً، ويكيلون لأهلنا تهم التعاون مع الاستعمار. لم يتقبّل أن تهجره فاستشاط غضباً مستشعراً أنّها ضحكت عليه، وقد أجزل لها العطايا في أيّامهما الأولى بحليّ وعطور أجنبية كادت تفقر جيبه، ووقعت المصيبة. اختفت وظنّنا أنّها فرّت من البيت بعدما تشاجرت مع أخيها الأكبر، الذي عاب عليها كثرة خروجها إلى الشارع، قبل أن تعود في اليوم التالي، متحمّلة تنكيل التلي وشتائم والدها. ادّعت أنّها قضت ليلتها في عرس، مُتكتّمة على أنّها باتت في المقبرة، تبول بكثرة من احتدام مشاعر الخوف في قلبها.

انتظرت زكيّة شهرين قبل أن تُصارح ابنة خالتها بما خفي.

– اختطفها بنسالم برفقة صديق له و...

لم تقدر على العودة إلى البيت، في اليوم ذاته، خوفاً من أن يفضحها لسانها. فكلّ فتاة (يُفعل بها غصباً) تتحمّل الخطيئة وحدها. وداومت، منذ ذلك اليوم، على إطالة أظافرها لتغرزها في جلد من يُرغمها على فعل ما لا تشاء.

لم يرتح بنسالم هذا أن غادرت ابنتي نزرامة، للعمل في منتجع في الشمال ثمّ في اقتفاء أثر بشير، بل ظلّ يسأل نصيرة عنها راغباً في تسويد عيشتها. والشيء الذي يحيّرني أنّ ابنتي أخبرت نصيرة في مكالمة بأنّها «نوت الارتباط برجل من الفندق الذي عملت فيه».

أكاد أقتنع بأنّ أبنائي كانوا على حقّ حين جاهروني بأنّني لم أحسن تربيتها، أبنائي على حقّ وأنا على باطل. ظللت أحكي صدمتي ممّا اكتشفته من حياة ابنتي، وممّا أخفته نصيرة في صدرها طويلاً، ونـورة تستمع إليّ بجانب أمّها. كنت أتكلّم بشفة عليا متيبّسة لا أحـرّك سوى السفلى. وما إن ختمت حديثي حتى طفت الدهشة بيننا ثلاثتنا. وبينما نحن على تلك الحالة، سمعنا طرقاً على الباب. قامت نورة متذمّرة والقطّة تلتصق بساقها، تتمتم أنّ واحداً من أبناء الجيران جاء يطلب غرضاً من أغراض المطبخ، فقد ألف الناس الشح والتكافل في ما بينهم كحال جيراني. لكنّها وجدت قبالتها امرأة في أواسط العمر، عيناها رماديّتان، بينما بشرتها جافّة مصفرّة، مثل زهرة العصفر، ترتدي جلّابة سوداء تُلامس كعبيها. عرّفتها بنفسها: «اسمي الضاوية»، ثمّ استرسلت في سبب مجيئها، فصرخت المُحامية راغبة في قتل أبيها، وندمت على اتّصالي بها ذلك اليوم.

ميمون

لقمت ملعقتين من حساء خضر وأطبقت فمي، منحرفاً ببصري صوب مهدي، الذي قضى لياليه الثلاث الفارطة في بيت أخي في بسكرة، مستحضراً في بالي حين التقيت بالمُهرّب في سطيف وأرسلت ابني بسيّارتي بغرض توصيل الشحنة الأولى من الأدوية، ثمّ رافقني في اليوم التالي، محمّلين بالشحنة الثانية، وقد فاضت روح زازا. هل انتقم منها إكراماً لأمّه الياقوت؟ التي عادت إلى البيت وصالحتها بعدما قضت أيّاماً مضطربة، خالجها فيها أنّها سوى تنهي حياتها مطلّقة، تمطّق وتحدّق في التلفزيون الذي كان يبثّ شريطاً عن غزو الفضاء. ما إن أنهينا غداءنا حتى قمت مُدّعياً أنّ شغلاً ما في انتظاري، مُلتمساً من مهدي أن يأتي معي بغرض توصيل طلبيات إلى فندقي أو «صحرائي».

قبل أن أصل إلى الشارع الطويل الذي يفضي إلى مقصدي، انعطفت يميناً، إلى مقبرة الشهداء، التي دُفن فيها خمسة من معارفي بينما بقيّة الشواهد لمناضلين من قرى ومدن مُجاورة. ركنت في مدخلها الخالي، فالناس لا يزورونها وكذا المسؤولون سوى في الأعياد الوطنية. سدّدت نظري نحو ابني، مستفسراً منه آخر مرّة ذهب فيها إلى المرج، فتفرّس فيّ بعينيه البنيّتين ووجهه العريض، مستغرباً سؤالي.

– لم تطأ قدمي ذلك المكان من سنين.

مددت يدي إلى كتفه اليسرى مُحاولاً إغراءه بقبول عرضه بفتح محلّ بيع أشرطة موسيقيّة، إذا أقرّ بالحقيقة.

– أقسم لك أنّني لم أذهب إلى هناك من زمان.

تقتصر حياته على البيت وبعض رفاقه، الذين يلتقيهم في مقهى راحة البال، أو زيارة ابن عمّه، للعب الدومينو والتسكّع في الشارع، فحياة شباب اليوم مملّة للغاية.

لمحت براءة في عينيه وأحسست بصدق في كلامه، كيف وصلت سيّارتي إلى المرج إذن؟

– ماذا فعلت عندما عدت وحدك من سطيف؟

– استرحت في الغرفة 302، خرجت إلى المقهى، ثمّ تعشّيت في المطعم ونمت باكراً.

– أين ركنت السيّارة؟

– في باركينغ الفندق.

في اليوم التالي انطلق إلى سطيف مُجدّداً، ثمّ عدنا معاً.

خامرني أنّ المحامية تجنّت عليّ. فقد رضيت مقابلتها آخر مرّة من دون موعد مسبق، لأفهم منها علّة نبشها في ملفّ مرزاقة سوالم، وقبل أن أسألها فاجأتني بأنّ شاهداً ما رأى سيّارتي قرب مسرح الجريمة، ظنّي أنّها تودّ توريطي إنقاذاً لابن خالتها.

– تسلّم منّي كمال مفتاحها لنقل الشحنة، لا أدري إلى أين، ولم أركبها سوى في الصباح التالي، قال مهدي.

– متى عاد من توصيل الأدوية؟

– لا أعرف.

لم أصل إلى قرينة ضدّ ابني، فعاجلته:

– هل أوصلك إلى مكان ما؟

– قلت إنّك تحتاج إلى مساعدتي!

– غيّرت رأيي.

رددت عليه بنبرة منرفزة نابت عن نبرتي الرزينة التي عرفها عنّي.

أنزلته قرب سوق ترابا ندو وعدت أدراجي إلى الفندق. طلبت من موظّف الاستقبال بصوت غليظ، بعدما صادفته في البهو ممدّداً على الصوفا، يستمع إلى أمّ كلثوم من جهاز تسجيل، أن يُرافقني إلى مكتبي. فهم أنّني لست في مزاج حسن، معتقداً أنّ الأمر يتعلّق بخطأ في الحسابات، فأكثر الأوقات التي أغضب فيها عندما أصادف ثغرة في الميزانيّة، قد تقوم القيامة ولا أنزعج أكثر من انزعاجي إذا اكتشفت خللاً في صندوق المال.

– كيف حال الشغل؟

سألته كما لو أنّني غريب عن المكان.

– لا يوجد ضغط هذه الأيام.

تمسّكت بهدوئي في مساءلة مُحدّثي، كي أحمله على الإقرار بما لا أعرف.

– صلّحت سيّارتك؟

– نعم.

– هل شغلك عمل كثير يوم أوصل مهدي شحنة الدواء؟

مسّد شعره إلى الخلف وردّ عليّ:

– قضيت الليل مستيقظاً إلى أن وصل سيّاح في ساعات الصباح الأولى.

طلبت منه إن كان يتردّد على المرج، فضحك.

– لقد عُدت إلى رُشدي.

– ماذا تقصد؟

أخبرني أنّه تعوّد الذهاب هناك برفقة فرحات بغرض تدخين لفافات، فاستشطت غيظاً، لا أودّ أن يقع واحد من العاملين في الإدمان.

– متى آخر مرّة ذهبت إلى هناك؟

– لا أذكر.

تناهت إلى سمعي «رباعيّات الخيّام»، بصوت أمّ كلثوم تسرّبت من باب المكتب الموارب:

«القلب قد أضْناه عِشق الجَمال
والصدر قد ضاق بما لا يُقال
يا ربّ هل يُرضيك هذا الظمأ
والماء ينساب أمامي الزلال»

انتقلنا إلى الجلوس على الأريكة وأمّنته أنّني أودّ الاستماع إليه لا أكثر.

– هل تشكّ فيّ؟

– بل حماية لك.

طمأنته إلى أنّني سوف أدافع عنه وأحميه مثلما فعلت حين أزهق روح مرزاقة سوالم، التي عاشت ميّالة لرجال يصغرونها سنّاً. قبل ما يزيد عن عامين، متّن علاقة حميمة معها. استمالته بثيابها الملوّنة القصيرة، ابتسامتها البيضاء العذبة ومشيتها المعتدّة بنفسها. داوم على مجالستها في غرفتها، يتبادلان كؤوساً ويشتهي كلّ واحد منهما الآخر، فحذّرته من الذهاب بعيداً معها: «إنّها تكبرك سناً»، «أمّي أيضاً كانت تكبر أبي»، ردّ عليّ.

تطلّقت مرزاقة وأتحت لها غرفة في الفندق، بعد انتخابها في مجلس البلدية واعتزالها التعليم، مبتئسة من اكتظاظ الأقسام،

ولامبالاة الإدارة والأولياء بضعف نتائج التلاميذ وهزال الراتب الذي كانت تتقاضاه. ظلّ كمال يتقرّب منها، بلمسة ثمّ قبلة، فنسيت نفسها وانجرفت معه إلى بحر الهوى، بعدما تعذّر عليهما العثور على واقٍ ذكري في الصيدليات، صارحته بالمشاعر التي نبتت في قلبها فاستهزأ بها، حملت منه ظنّاً منها أنّ ابناً جديداً سوف يجدّد حياتها. وضغطت عليه من أجل أن يعترف بما في رحمها ويتزوّجها. استعطفها أن تتخلّص من الجنين، لكنّها مانعت فتحوّلت علاقتهما إلى شجارات وكلمات فظّة، إلى أن صرخت في وجهه: «أنت ابن زنا وتودّ ابن زنا مثلك»، فنزل على بطنها بركبته مثبّطاً حركتها، خنقها بوسادة ثمّ طوّح بها من الطابق الثالث ثملاً. كانت ليلة تكاثفت فيها غيوم لم تُمطر، هبّت فيها ريح شمالية قادمة من بسكرة، وتسابقت فيها محطّات الراديو في نقل أخبار ما وقع في تشرنوبيل، ثمّ هرول إلى مكتبي الذي تسمّرت فيه مشغولاً بمعاملات أطالت مكوثي فيه، بيدين ترتعدان ووجه يتصبّب عرقاً، حاول إخفاءه بقميصه البنفسجي الفاتح، فطلبت منه ألّا يخرج من المكتب، متكفّلاً أمر الشرطة التي قيّدت عملية انتحار، بعدما اكتفى حميد بشهادتي. «ما سبب انتحارها؟»، كذبت عليه أنّ مُطلّقها منع عنها رؤية ابنيها وضغط عليها بأن تعود إليه، «لعلّه لم يدفن حبّه لها!». غاب كمال ثلاثة أسابيع كإجازة، متردّداً على بيت سيدي زرزور، المُفعم بروائح البخور وأعشاب وثياب قديمة وعظام حيوانات، يأكل تمراً ويشرب حليب النوق، مُستسلماً للرّقى وغسل جسده بماء أغرقت فيه تمائم، معتقداً أنّ جنيّاً يسكنه. ومرزاقة تُحاصره في أحلامه، تسأله لماذا قتلها، حتّى ظنّ أنّها ستقوم من مرقدها لتقتصّ منه. تاب إلى ربّه وواظب على الصلاة أيّاماً ثمّ تخلّى عنها.

استضفت مرزاقة في الفندق، مُعجباً بشعرها الكستنائي الطويل الذي لطالما تباهت به مثلما يتباهى طاووس بذيله. أغدقت عليها الهدايا والحليّ، معتزماً إقناعها بالترشّح إلى البرلمان، فتصير ورقة رابحة في جيبي. أكبرت فيها فصاحة لسانها وإحسانها للمحرومين، لكنّ طموحاتها لم تتعدّ سقف غرفتها، فوددت التخلّص منها، لذلك لم يُحزنّي موتها. تستّرت على الجاني صوناً لسمعة الفندق. شمّعت غرفتها، مع أنّني بتّ أميل لإعادة فتحها والاستفادة من دخلها. داومت على نصحها بأن تهتمّ بمسيرتها السياسية، لكنّها أسرفت في استكبارها وفي إشباع نزواتها، وفي كسب أعداء بفضح فجوات في ميزانية البلدية والتشهير بمن تشتبه بهم في اختلاسها، وفي اختلاق مشاجرات مع زازا، عقب تمنّع المُغنّية عن تسليمها نسبة من أرباحها في ملهى وسط المدينة، كما اتّفقتا، حتى تدخّلت. دفعت لها من جيبي وأصلحت ما بينهما.

أصررت على أن يُحدّثني كمال ماذا فعل بالسيّارة حين ترك له مهدي مفتاحها.

– نقلت الأدوية إلى المخزن.

– ثمّ ماذا؟

– عُدت إلى عملي.

– قضيت ليلتك هنا؟

– انتظرت سيّاحاً تأخّروا في الوصول.

ليس من عادته أن ينام في الفندق، ولا سيّما أنّ سائق حافلة السيّاح هاتفه وأبلغه بموعد وصولهم المتأخّر. لكن لم يبدُ في كلامه اضطراب، وإن لم يفدني بشيء فسأصير محلّ شبهة، فهناك من شاهد سيّارتي في المرج تلك الليلة، «هل أماتها بشير لبْطم وحده؟»، مع

ذلك جرّبت آخر محاولة معه، لعلّه يعرف أشياء لا أعرفها عن الفعلة التي اقترفها صديقه.

– قال لي فرحات إنّ زكيّة اشتكت منك.

من دون أن أفصح له أنّ كلامي مستوحى من مُطالعتي ما ورد في تقارير الشرطة، التي أتاحها لي المُحافظ، الذي بات يتكفّل بالقضيّة، وخاطبته:

– الشرطة دوّنت إفادته.

أخفيت عنه أنّ حميد قد غادر منصبه، بعدما تكوّمت شكاوى ضدّه، وقد استقبح سي ميلود إهماله التحقيق في حرق سيّارته وتدخّله في مشاريعه، مع إحباط بعضها، كما استنكرت لجان أحياء سكنيّة دورياته العشوائيّة في المراقبة، ثمّ جاء تقريري الذي استهجنت فيه غاراته على الفندق، بحجّة التحرّي في مسألة زكيّة، مما أفزع سيّاحاً، وتسريبه خبر مقتلها لمُراسل صحافيّ، فلم يشأ المحافظ أن يخسر سمعة المخفر، مُطالباً مديرية الأمن بإعادته من حيث جاء.

«لا توحِشِ النفس بخوف الظنون
واغْنم من الحاضر أَمْن اليقين
فقد تَساوى في الثرى راحلٌ غداً
وماضٍ من ألوف السنين»

يعلم مُوظّف الاستقبال أن لا خافية تغيب عن عينيّ في «صحرائي»، وأنّ النادل خليل أو الشيف خيّاطي يطلعانني أيضاً على ما يحصل في غيابي. يعلم أنّني أحرّك رجالاً أشدّاء مثل دمى ماتريوشكا، فاحمرّ وجهه.

«أنت الوحيد الذي يحوز نسخة ثانية من مفتاح المخزن»، قلت له وأظهرت قرط زكيّة، الذي عثرت عليه، فارتجفت شفتاه. برقت حبّات عرق في عنقه، ونزلت أخرى من جبينه إلى خدّيه. انتظرت منه أن يفضح بشير، فغمغم قبل أن يتّضح كلامه.

– لا تودّ تصديق أنّها راحت ضحيّة لصوص.

تلك هي فرضيّته التي أقنع نفسه بها.

– لا أعرف لصّاً يقتل من دون أن يسرق شيئاً.

فهم أنّني مصرّ على عدم الأخذ بقوله، فارتعشت ركبته.

– أنا... أنا... لم أفعل شيئاً.

زادت حركة يديه اضطراباً كما لو أنّ تيّاراً كهربائياً مسّهما، وذكّرته بأنّه بمثابة ابنٍ لي، لطالما حننت عليه.

– لا أنكر فضلك عليّ.

ثبتّ نظري في عينيه بملمح هادئ مثل معلّم مشفق على تلميذه، وتذكّرت أنّ الطبيب الشرعي سجّل آثار كحول إيزوبروبانول على خدّ الضحيّة في تقريره، وكمال هو الوحيد في الفندق الذي يصرّ على تطهير يديه بهذا النوع من الكحول، من كثرة مصافحاته الزبائن، أو الداخلين والخارجين كلّ حين.

– لم أنو شرّاً لها.

– ...

– هي... هي... من... من أرادت أن تكيد لي.

– من؟

– زازا.

أسهب يحكي عن مُضايقات الفقيدة له وتهديدها بإبلاغ الشرطة عن البذرة التي زرعها في أحشاء مرزاقة، مخفياً وجهه بيديه، وقد اختلطت كلماته ببكاء متقطّع.

– كيف علِمت؟

– مرزاقة... حدّثتها. حدّثتها... عن كلّ شيء.

كتمت زكيّة السرّ طويلاً كي لا تُسيء لسمعة «صحرائي» ولا تورّطني، أنا الذي قلبت حياتها من ضياع إلى سكينة، إلّا أنّها ضغطت عليه، الشهر الفائت. ابتزّته مفصحة عمّا خالجها بأن يكون وراء قتل مرزاقة. طلبت منه مالاً لتفرّ مع بشير، فأدركت أنّها ضحكت عليّ. لم تشأ الزوّاج بي عرفياً، بل استملحت فقط عطاياي وهداياي لها.

– لماذا لم تُخبرني؟

انتفض في وجهي من دون أن يجفّ دمعه، مذكّراً إيّاي بأنّني كنت دائماً في صفّها. لم أنف ذلك، حاقداً على نفسي: «كنت مغفّلاً»، وأنا أحشر يديّ بين فخذيّ مستشعراً برداً يتسلّل إلى أطرافي.

«يا عالم الأسرار عِلم اليَقين

وكاشِف الضر عن البائسين

يا قابل الأعذار عُدْنا إلى

ظلّك فاقْبَل توبة التائبين»

بلغ مسامعنا صراخ يأتي من البهو، يختلط بصوت أمّ كلثوم الذي لا يشيخ. هرولت مفزوعاً حين رأيت شابّاً ينهال على فوزي صاحب الحنطور بلكمات وصفعات، مخلّفا له وجهاً مضرّجاً بالدم.

كمال

عاودني ضيق التنفس وخرجت من الحمّام العامّ، الذي يتيح أفرشته للمستحمّين نهاراً ولنوم العابرين ليلاً، بعدما تخبّطت في موضعي مثل رضيع جائع من دون أن يُغمض لي جفن. أعرف ذلك الحمّام منذ كنت في الخامسة من عمري. كانت أمّي تصحبني إليه، تغسل كامل جسمي وتدلّكني، وأنا ألمح نسوة من حولي عاريات أو نصف عاريات يندلق الماء بين نهودهنّ. ماتت أمّي بالسلّ، بعد أن نحف بدنها وصار حفنة عظام. كنت في عامي التاسع، لحقها أبي وماتت ثقتي بغيري. لم أعد إليه حتى ليلة أمس، آثرت المبيت هناك بدل بيتي، من فرط ذعري أن يُبلغ عنّي الحاج، متخلّياً عن سيّارتي قبالة سكني. «ليت بشير يُسامحني»، فقد تعاظم حزني لمُصابه منذ أن قرأت الرسالة التي بعثها إليّ.

«بسم الله الرحمن الرحيم

أخي العزيز كمال،

أكتب لك من سجن على الرغم من ضيقه فإنّه يتّسع بمعارف جدد وبصبري على تحمّل ما وقع لي. تعرّفت إلى أناس طيّبين وأحافظ

على معنويّاتي قدر المستطاع. ابنة خالتي نورة تكفّلت بالدفاع عنّي، وما زلت أنتظر تحديد موعد مُحاكمتي. أرجو أن تبلغ سلامي لكلّ أحبّتنا. تعرّفت إلى شابّ يُدعى رحّال، آمل أن يُفرج عنّي وعنه وتتعرّف إليه أنت أيضاً. ذكراك لا تُفارقني وأدعو لك دائماً في سرّي. تعلم أنّني سُجنت ظلماً ودعوة المظلوم مقبولة. اعتنِ بنفسك.

بشير».

لم أحلق ذقني، ولم يتسنّ لي أن أنظّف أسناني، مستحضراً صورة فوزي بوجه ملطّخ دماً، بعدما هجم عليه شابّ بطول مترين. اعترف لي بعدما أسقطته بركلة على ركبته اليُمنى أنّ بوستّة كلّفه بمُراقبة الشيخة ذهبية، فظنّ من كثرة ملازمتها لصاحب الحنطور أنّهما يخفيان علاقة حميمة. مزّقت قميصاً داخلياً وعصّبت رأسي كمن يعتريه الصداع. بدوت أكبر من عمري بسنوات، مرتدياً صُدرة تويد رمادية وبنطلون جينز أزرق، مخفياً عينيّ وراء نظّارة شمسيّة، قبل أن أمضي إلى مركز البريد، في السابعة والنصف، بقصد استخراج كلّ ما أملك من مدّخرات، ثمّ أركب الحافلة المتّجهة إلى بسكرة. قلت أسافر بعدها إلى أيّ بقعة نائية، لا أعود منها إلّا إذا آمنت بأنّ ميمون بلعسل لن يغدر بي.

وصلت قبل فتح المركز بربع ساعة، فقابلت طابوراً من نساء ورجال، بوجوه كامدة، مثل عرسان ألغيت ليلة زفافهم. انتظرت إلى التاسعة قبل أن يحين دوري، وانتصبت أمام نافذة شبّاك حديدي، علتها لافتة: «العمل والصرامة لضمان المستقبل». صادفت موظّفاً، كالح الوجه مثل معلّمي الرياضيات في المدرسة، خاطبني بنرفزة: «ماذا تريد؟». استغربت سؤاله، متأسّفاً لغياب زوجة حميد أو

العقربان التي تعوّدت مُعاملة الناس بظرافة. «لا شيء يُريده بشر أمام هذا الشبّاك سوى سحب أمواله». «قصدي كم تريد؟»، «كلّ شيء»، رددت عليه بحزم وقد تخلّيت عن جلد المُمثّل، الذي لبسته منذ تخرّجي في معهد الفندقة، ولامست أنفي رائحة زنخة مثل رائحة أمّي وقت احتضارها. تسلّمت حزمة من الأوراق النقدية، حسدتني عليها أعين الزبائن الآخرين، التي راقبت حركة يديّ وأنا أتأكّد من قيمتها كمن يُراقب قطعة لحم تُشوى. كدت أسمع همسهم ورغبتهم في أن يُقاسموني ما أملك، إنّه عرق سنين من العمل والكذب والنصب. ورحت أحصي دقائقي الأخيرة في تلك المدينة العالقة في أحشاء الشيطان، التي وُلدت فيها، حلمت فيها وأحببت فيها، عرفت فيها القهر، الخوف، الفرح ورعشة الجسد. لم تعد تنفعني اللغات التي تعلّمتها، بل ينفعني الهرب منها وحسب.

استقمت في الخارج، مُتحسّراً أنّه لا يُمكنني متابعة شكواي ضدّ إبراهيم درّاس، وأنّني لن أذهب إلى الطبيب، بعدما أفلحت في ضبط موعد معه: «الصحّة بيد الله»، قلت. تعالت أصوات وصرخات، لم أتبيّن مصدرها للوهلة الأولى، قبل أن يدنو الصخب منّي، ويظهر على طرف الطريق كهول وشباب يلوّحون براية «اتّحاد التجّار». كانوا يسيرون منظّمين مثل الكشّافة، ويهتفون: «رانا جايين... على حقنا ماناش ساكتين». اقتربوا من فيلّا الرومي، التي قابلتني على بعد أمتار، وزاد ضجيجهم. حلّ يوم الإضراب الذي وعد به التجّار وانتظموا في تظاهرة. ندرت الموادّ الغذائية في البقالات وسوق الفلّاح، بينما الماء ينقطع كلّ حين، والمستشفى لا يحوز دواءً ولا أطبّاء. الحال لا تُبشّر بخير.

لم تمض لحظات حتّى تحوّل الجمع من عشرات إلى مئات. رؤوس سوداء تتحرّك مثل بقعة زيت، وتهتف شعارات تطفح سخطاً.

لم يسبق أن شاهدت مثلها. تسمّرت في مكاني متفرّجاً. رأيت شباباً يخرجون من مركز البريد ويلتحمون بالمتظاهرين.

توقّعت أنّ خيط الغضب قصير، فأنا لم أسمع من قبل أنّ أهل المدينة انتفضوا، لم يرد في تاريخهم أن خرجوا من خمولهم. سنوات حرب التحرير لم يلتحق منهم سوى أفراد قليلين بالمُقاومين، كانوا مُستأنسين بكسلهم، خمّنت أنّهم لن يُطيلوا في صخبهم، يجهرون بمشاغلهم ثمّ ينصرفون آمنين. أبصرت تجّار سوق تراب'اندو، في الجهة المقابلة، يغلقون أبوابهم، وآخرين يطوون طاولاتهم المعدنية، يحشون سلعهم في حقائب ثمّ يهرولون ملتحقين بالمحتجّين. لم يُخيّل إليّ أنّ ذلك اليوم، الذي بدأ بشمس تطوّقها غيوم، وانخفضت فيه درجة الحرارة عن الأيّام السالفة، سينقلب إلى ما يُشبه جحيماً.

تكاثف الغاضبون قبالة فيلّا الرومي، فازداد صدى شعاراتهم وأنا أركن إلى زاوية أمام مركز البريد، موزّعاً أوراقي النقدية بين جيوب الصدرة والبنطلون. رحت أتلو اسم الله، الذي لم أكن أذكره سوى في رمضان، حين لمحت أعوان شرطة يتخلّون عن موقعهم في حاجز تنظيم مرور ويركضون جهة المحتجّين شاهرين أسلحتهم.

تراجع المتظاهرون راكضين والغبار يتطاير تحت أقدامهم، رغم أنّ الطريق كان معبّداً، فقد طمرته، مع الوقت، الرمال، وأنا لا أعرف ماذا أفعل. تعذّر عليّ التقدّم إلى الأمام صوب محطّة المسافرين، مخافة أن أختلط بهم فأُعتقل، وسرت رجفة في ساقيّ.

تقدّم شرطيّان نحو مركز البريد ليمنعا المتظاهرين من الوصول إليه، فتنحّيت جانباً وخبّأت نظارتي الشمسية في جيب صدرتي، بينما عجّل الحارس في إغلاق باب المركز. التحق شرطيّ ثالث بزميليه، وأطلق رصاصاً في الهواء ليشتّت الجمهرة، فركض الناس إلى اتّجاه آخر، وارتعدت من أصوات الطلقات. تحرّكت رجلاي غصباً

عنّي وانضممت إلى المحتجّين مبتعداً عن الشرطي الذي لم يكفّ عن إطلاق رصاصات تحذير. لم يقطع الجمع بضع مئات من الأمتار حتّى صادفهم حاجز أمن، منعهم من مواصلة عدوهم الذي يفضي إلى دار البلدية، فوقعوا مثل طريدة بين حاجزين، مثل ذباب محتجز في قنينة عصير فارغة وأنا معهم. ارتبك حينئذ رجال الشرطة من مشهد الهرج والمرج فارتفعت سحب الغاز المسيّل للدّموع إلى السماء.

استحال المنظر إلى ما يُشبه معركة لا تظاهرة، أحسست كما لو أنّني مسرنم، أجري بغير هدى. مُحيت الأجساد حولي، لم أعد أرى سوى ممرّ معتم أمامي. ركضت كما لم أركض من قبل، كما لو أنّني أسابق كارل لويس. زادت شهقاتي ونسيت صعوبة التنفّس التي عانيت منها. تلاشت المدينة من ذاكرتي وصرت حيواناً يعدو، أريد الوصول إلى حيث لا أدري. لا يهمّني سوى أن أفرّ من سحب الغاز المسيّل للدّموع، مُتناسياً ما أحمله في جيوبي من مال السنين. واصلت الركض، عبر شوارع فرعيّة، متجنّباً شريان المدينة الرئيسي، من دون أن أشعر بتعب أو بتشنّج، متخوّفاً من أن يخذلني قلبي وأنا الذي أدمنت التدخين ولم أمارس الرياضة منذ زمن المُراهقة، إلى أن أوصلتني رجلاي إلى المرج، تلك المنطقة المحظورة، مثل الكعبة التي يطوف عليها حجّاج من دون أن يلجوا إليها. قطعت سبعة كيلومترات بدت لي خمسين كيلومتراً. استقررت تحت شجرة خرّوب، راكعاً أستردّ أنفاسي، أستغفر وأحوقل، بينما صوت الرصاص ما يزال يلعلع في أذنيّ. منذ مطلع هذا العام 1988 أحسست أنّه عام شؤم. فارقت فيه جارتي صليحة الحياة مخلّفة طفلاً ذكّرني بيتمي، وتضعضع قلب أختي الكبرى وريدة وهي مقبلة على عملية جراحية. أمّا سيدي زرزور فقد زُجّ به في السجن ويترقب حكماً قد يصل إلى المؤبّد، مثلما هي حال بشير: «يا ربّ كمّل على خير»، حثّني صوت

داخلي على أن أتقدّم إلى الأمام وأتفقّد المكان الذي أرحت فيه جثّة زكيّة. لمحت رجلاً ذا صلعة تصلح للضّرب يرعى غنماً في سكينة، غير عابئ بما يحصل أو لم يعلم بشيء. لعقت شفتيّ الجافّتين وفكّرت أن أطلب منه حسوة ماء. ثمّ تراجعت فقد ألفت ألّا أستلطف هؤلاء النازحين، ليسوا أكثر من جراد يقتات بخبز الآخرين. جررت قدميّ مبتعداً إلى حافة الطريق، حيث عثرت على سيّارة (رينو 5)، متوقّفة على الرصيف، تنتصب خلفها لوحة إعلانية لمبيد حشرات. نفعني سائقها البدين، الذي استحال عليه التقدّم إلى وسط المدينة، بنصف قنّينة ماء، وعرضت عليه أن ينقلني إلى بسكرة، التي تقع في الاتّجاه المُخالف، لا تبعد بأكثر من ساعة شمالاً.

«اشتعلت تظاهرات هناك أيضاً»، قال. «لم يسبق أن اتّفق الناس على شيء، سوى على الخراب»، كدت أردّ عليه. أغريته بالمال وطلبت منه أن ينطلق جنوباً، أن يشقّ الطريق الوطني رقم 3، من دون أن أنتبه إلى أنّني أقطع الطريق ذاته الذي قطعه أبي صوب معتقله ومصرعه، كما لو أنّ تاريخ هذه البلاد لا يمضي إلى الأمام بل يتكوّر حول نفسه. ألقيت بجسمي المتعرّق على مقعد السيّارة، أحشر يديّ بين فخذيّ، أخفض بصري، أسترجع المشاهد التي مرّت عليّ منذ الصباح، يعجّ رأسي بأصوات المحتجّين التي سمعتها. تحسّست بطاقة هويّة في جيبي، التقطتها من مكتبي في الفندق، قبل مغادرتي، بعدما أهملها أحد الزبائن السابقين، وقد صار اسمي بدءاً من تلك اللحظة سمير لعروم، الذي يُماثلني في العمر والشكل، بعدما تخلّصت من بطاقتي الأصليّة حذر حواجز الأمن وأن يكون ربّ عملي أبلغ عنّي.

بلغت مُرادي، فررت وسبحت عيناي في شرود، مبتعداً عن كلّ الأشخاص الذين مرّوا على حياتي: أمّي، أبي، شقيقاتي، بشير وأصدقائي الآخرين، جيراني ومعارفي، الفتيات اللواتي أحببتهنّ

وأخريات لم تدم علاقتي بهنّ أكثر من يوم أو يومين. تذكّرت زكيّة، الشيخة ذهبيّة ومرزاقة. تذكّرت حسينة عيداش أو حسّونتي كما أناديها. منذ أن قابلتها، للمرّة الأولى في الفندق، سكنت قلبي، رغم عدم توافقنا الظاهري، ففصيلة دمها (A موجب) وفصيلتي (B موجب). شممت فيها رائحة أعادت السكينة إلى قلبي، استملحت عينيها الذابلتين وبشرتها الناعمة. تضايقت في مُستهلّ علاقتي بها أنّها في صداقة مع حميد أو العقربان. «عملي يلزم عليّ مخالطته»، قالت لي يومها، وتمنّيت لو أنّها تخلّت عن المحاماة، ثمّ تغاضيت عن ذلك. شغفت بطريقتها في ضمّي إلى حضنها، بينما أصابعها تركض بين ردفيّ الصلبين، وأنا أهمس إليها بجملة سمعتها في فيلم «لادولتشي فيتا»: «أكثر ثلاثة أشياء أحبّها: الحبّ، الحبّ والحبّ». لم أكن أعترض على حميميتها الخشنة بقرص لحمي أو عضّ عنقي بل زادتني شغفاً بها. كنّا لا نخرج من سريرنا سوى بعرق يتصبّب من جبهتينا. ساورني في البدء أنّها واحدة من اللواتي يمضين على عجل، لم أتخيّل أن تطول علاقتنا. أقلعت عن نفث الحشيش إرضاءً لها، فهل أحببتها فعلاً؟ أريد أن أقنع نفسي بذلك. عاصرت زمني الاستعمار والاستقلال. عرفت ثلاثة رؤساء للبلد. تذكّرت ما سمعته عن ثورات زراعيّة وصناعيّة وثقافيّة في كلام مذيعي الأخبار. تذكّرت منتخبنا الوطني وهو يلعب كأس العالم مرّتين ويخسر كأس أفريقيا. وعلى الطرف الآخر من المدينة عمّت فوضى، كما علمت في ما بعد، بعدما اقتحم شباب المؤسّسات التي ترفرف فيها الراية الوطنيّة. هجموا أيضاً على سوق الفلّاح. هرولوا يحملون على أكتافهم أكياس سميد وسكّر وقهوة كانت مكدّسة في مخزنه، والنسوة على الشرفات أو السطوح يزغردن ابتهاجاً بما شاهدن.

إلى السيد رئيس فرقة الشرطة القضائية

الموضوع: اكتشاف جثّة

المرجع: طلبكم ليوم 1988/10/5، في الساعة الثامنة مساءً.

الضحيّة: المرحوم درّاجي عوينة

المكان: حيّ الصومام

بتاريخ 5 أكتوبر 1988، في حدود الثامنة مساءً، تنقّلنا فور إخطارنا إلى عين المكان واكتشفنا جثّة المرحوم/ درّاجي عوينة، من مواليد 1956/2/20، ابن عمّار وفاطنة مجدل.

وصف المكان

مكان العثور على الجثّة يتمثّل في رواق بيت، يستأجره المدعوّ كمال بلعطّار، يفضي إلى درج يقود إلى السطح.

المعاينة التقنية

تبعاً للتّعليمات، ارتدينا عند وصولنا الألبسة الخاصّة (بذلة واقية، واقي الرأس، قناع، واقي الأحذية وقفّازات) وعاينّا ما يلي:

– وضعية جثّة من جنس ذكر، ملقاة على بطنها،ترتدي قميصاً بلون بنفسجي فاتح وسروالاً أسود.

– عاينّا وجود رصاصة على مستوى كبد الضحيّة.

– عاينّا دماً على الأرض.

– عاينّا أنّ قفل باب البيت قد كُسر.

– رفعنا البصمات.

– تمّ التعرّف إلى هويّة الجثّة من الاستماع إلى إفادة جيران الحيّ.

– قمنا برسم بياني للبيت الذي عُثر فيه على الجثّة، المكوّن من غرفتين، رواق، مطبخ، حمّام وسطح.

أكّد الطبيب الشرعي، في مصلحة الطوارئ بالمستشفى، إصابة الضحيّة بجرح على مستوى الكبد سبّب له نزفاً حادّاً.

6 أكتوبر

تخيّلت امتعاض أبي منّي في مرقده، وأنا أخطو خارج السجن، الذي يُشبه بابه باب المدرسة الثانوية. وقد قاربت الساعة منتصف النهار، أحشو قميصي الأحمر في بنطلوني الجينز الأزرق منتعلاً حذائي الجلدي المُهترئ مقاس 42، حاقداً على نفسي لأنّي لم أسع إلى الهجرة. «هذه بلاد غيلان»، قلت لنفسي ومضيت على رصيف بلّله مطر، قبالة فيلّا الرومي، تحفّه محالّ مُغلقة وأخرى مُنتهكة. هالني أن شاهدت مركز البريد وقد تهشّم زجاج نوافذه وعلى جانبي مدخله آثار حريق. مخادع الهاتف لم يبق منها سوى هياكلها المعدنيّة وخيوط منها تتدلّى، بينما محلّ الصائغ لزهاري لم تصمد منه سوى قضبان حديدية منتصبة، وتكوّمت شظايا زجاجية داخله. رأيت أُناساً يعبرون خافضي الرؤوس في وجل، وكتابات غاضبة من المسؤولين تطفح على حيطان المباني. لحسن حظّ أبي لم يعش كي لا يشهد هذا القبح. شاهدت عجلات مطاطيّة متفحّمة، وشممت ما يُشبه رائحة حليب محترق فحثثت خطواتي متّجهاً إلى البيت، مثل قطّ مشرّد أو شخصية بائسة هاربة من الروايات أو الأفلام الفرنسيّة القديمة، وأنا أحاول تذكّر وجه المحامية التي دافعت عنّي. كانت تتأبّط حقيبة يد سوداء مثل تلك التي تحملها

آسيا جبّار في صورها. لم تتكلّم معي سوى على عجل: «قضيّتك لا تحتمل السجن»، وودّعتني بحجّة انشغالاتها في المحكمة، فقد كانت من المؤسّسات القليلة التي نجت من الزجاجات الحارقة، بعدما طوّقها الأمن. منذ أن أعاد لي مفتّش الشرطة جهاز تشغيل الفيديو مرفقاً بشريط المغنّية الميّتة وشكّ يُراودني في أنّ مكروهاً سيحصل لي. لكن من أين جاءت تلك المحامية؟ لماذا ساعدتني؟

وجدت أمّي تقرفص في المطبخ، تشغل يديها بتقطيع حبّات طماطم قصد تيبيسها واستغلالها في الشتاء، تدندن أغنية: «قولوا لأمي ما تبكيش... ولدك ربّي ما يخليش!»، نادتني «بريهة»، برقّة قلب اشتقت إليه، وقامت مبتهجة فعانقتني قبل أن تبتعد بخطوتين.

«أخت صاحبك اللي اسمها نورة فاجرة»، قالت وحكت لي ما حصل ذلك اليوم عندما طال غيابي، وهي تظنّني أعتكف في المحلّ، كما فعلت في ما مضى، قبل أن يطرق بابها شرطي الاستقبال في المخفر، فقد علم بما حلّ بي، وعرف عنواني حين عاين بطاقة هوّيتي: «راه في الحبس». أفزعتها كلمة الحبس وخالت أنّني لن أعود إليها. نصحها بالتقدّم إلى المحكمة وطلب زيارتي. لبثت ونّاسة في قاعة انتظار المحكمة، ساعة كاملة، قبل أن يُقابلها كاتب الضبط. ثبّت نظّارته الطبيّة على جبهته، وكلماته تسيل بين شفتيه مبلّلة بلُعاب، ثمّ طلب منها العودة الأسبوع التالي، بحجّة كثرة طلبات الزيارات. ألحّت عليه أن يُخبرها عن التهمة التي وُجّهت لي، لكنّه اكتفى بالقول: «كي تشوفيه اِسأليه».

في طريق العودة إلى البيت خائبة، تحسّست قصاصة مطويّة في جيب الجلّابة، دوّنت عليها نورة رقمها، عندما زارتها. لم تظنّ أن يأتي يوم تحتاج فيه إلى ذلك الرقم. دفعت قطعاً نقدية في فم الهاتف العمومي، المُجاور لمركز البريد، مشكّلة رقم المحامية، وراحت تسأل

عنها وعن أهلها، كما لو أنّها من أقربائها، فاستغربت نورة طريقة كلامها، متخيّلة أنّها تودّ أن تزفّ لها خبراً ينفعها في دفاعها عن ابن خالتها، قبل أن تُصارحها بما وقع لي، «بجاه الملايكة عاونيني»، عندئذ ردّت عليها نورة: «فلنترك العدالة تقوم بعملها».

فهمت أمّي أنّها أخطأت أن هاتفتها، وقطعت الخطّ، تلوك مسبّات، بل شبّهتها بفتيحة، عاملة النظافة الأخرى في الفندق، التي تتفاداها خشية أن تشيع تهمتها لها بسرقة أغراض من غرف السيّاح، ممّا حتّم عليها غضّ الطرف عن شكوكها في تورّط ابنتها الشيخة ذهبية في قتل زكيّة.

بـرّرت لـها أنّ شنآنـها ينـبع مـن عـدم إفـادتـها فـي قضيّة مغنّية الفندق.

– ما شأني بمقتلها؟ علّقت.

متجنّباً البوح بما وقع بيني وبين نورة من ابتزاز.

– علاش شدّوك في الحبس؟

– عراك مع لصّ في المحلّ.

سلّطت عليّ نظرة غضب:

– ريقي نشف وأنا نفهم فيك بعّد على ذاك المحل!

لولا ذلك العمل ما استطاعت أن تقتلع ضرسها، ولا أمكنها أن تدفع ثمن أدوية تخفّف ألم معدتها. تغاضيت عن المُهاترة ورغبت في الاستحمام فلم أجد ماءً. لا فرق بين السجن والبيت.

– الماء في بئر الجامع، قالت لي.

انقطعت الحنفية من ستّة أيّام، ولا تملك سوى النزر القليل منه للشّرب والطبخ. لم أجد بدّاً سوى أن أذهب إلى الميضأة لأغتسل، وقبل أن أخرج سألتها عن خميسي.

– مشى للعسكر.

قالتها بأسى وقد علّقت صورته في غرفتها: «خلّاني وحدي». هل ذلك ما قصده بقوله: أعرف كيف أصير ملاكماً محترفاً؟ ينوي الالتحاق بالمنتخب العسكري للملاكمة! صفعت الباب مغادراً، محتاراً كيف يُمكنني مواساتها في مستقبل الأيّام، لأقلّل من حنينها إلى أخي الأصغر.

بعدما اغتسلت، أحسست بحرج من نظرات جيراني، الذين تكتّلوا في صفوف لصلاة الظهر. انسللت مبتعداً عنهم وسمعت تمتمة: «يقصدون بيت الله من أجل حاجتهم لا من أجل دينهم»، «هل أنت ناطق باسم السماء؟»، أردت أن أسكته.

في طريقي للاطمئنان على وردة الرمال، متمنّياً ألّا يكون تعرّض لحرق أو تحطيم، كما وقع لمحالّ أخرى، وجدت باب الحلواني مواربًا، فطقطقت ودخلت. قابلني بولنوار بعناق وقبلتين على الوجنتين... «متى أطلقوا سراحك، كامارادا؟». «كيف عرف بأمر سجني؟»، سألت نفسي. لكني اكتفيت بالاجابة: «اليوم».

خشي أن يطول حبسي، وهو الذي خبر السجن قبل عشرين عاماً، بعد انخراطه في حزب سرّي مُعارض، قبل أن يهجر السياسة، منتفعاً ورفاقه السابقين من بعض الأملاك، حاصراً نضاله في المشاركة كلّ عام في مهرجان معاداة الامبريالية بدار الثقافة، ثم أغدق آيات شكر على المحامية حسينة، واصفاً إيّاها بـ«الفحْلة».

– أتعرفها؟

تيتّمت حسينة في الثالثة عشرة من عمرها، وتكفّلت أمّها بها وبشقيقها الأصغر. أتاح لهم عمّها بولنوار من المال ما يُغنيهم عن الحاجة، فلم تكن تبطئ في ما يطلبه منها. سارعت في الاستجابة له أن سألت عن حجّة توقيفي وأقنعت قاضي التحقيق بأنّ شهادة بوستّة

ضدّي ليست سوى شهادة كيدية، فصدر أمر الإفراج عنّي قبل يومين لكنّه لم يصل إلى إدارة السجن سوى ذلك الصباح.

– منذ شاهدتك تركب سيّارة الشرطة المرّة الماضية لم يطمئنّ بالي.

وددت أن أحدّث بولنوار، عن ابنه رحّال، الذي تركته خلف القضبان متمتّعاً بتوقير المساجين له، لكنّني فرملت لساني مغبّة أن يفترسه اشتياق إليه.

سألته عن الوضع في وردة الرمال، فمدّ يده يربّت كتفي.

– لا تعد إليه ثانية.

استغربت كلامه، فأردف:

– سلّم المالك الجديد مهامّ المحلّ لابنه فضيل، وقد غيّر قفلي الباب.

أسرّ لي بمدى مقته لخيضر عرقوب، الذي اعتدى على عائلة اليهودي الذي علّم بولنوار صنع الحلويات، ليرغمه على الهجرة ويسطو على بيته. اندهشت وتحسّرت: تُدافعين يا نورة عن مظلومين وتتغاضين عن والدك الظالم؟ مُدركاً أنّني لن آخذ بثأري من أخيها.

نورة

تنازلت عن رصانتي واستحالت لغتي شتائم. تربّعت في سريري، أشعلت سيجارتي، وقابلتني أمّي على كرسيّ تشدّ رأسها بكفّيها، مصوّبة بصرها إلى أرضيّة غرفتي المغطّاة بلينوليوم، غير مبالية بالدخان الذي يتسرّب من أنفي وبين شفتي، متجنّبة تأنيبي كما فعلت في ما سلف. جلسنا نتداول الصمت وأسقي حقدي على والدي. لم أنس ما حكته لي عن استيائه أن وُلدت أنثى ثمّ رغبته في تزويجي، في السابعة عشرة من عمري، بصديقه القياديّ في الحزب، لولا إضرابي عن الطعام، كما لم أمحُ من ذهني يوم حاول أن يعوق دراستي في الجامعة، لولا تدخّل عمّتي حيزية. لم يكن في صغري يأخذني إلى المصوّر في العيدين لالتقاط صور تذكارية كما يفعل الآباء، خجلاً من نسبي إليه، ولم يُساعدني في فتح مكتب محاماة إلّا رغبة منه في أن ألاقي رجلاً يتزوّجني فيخلّصه منّي. وقد انتبهت، وأنا أخفض بصري، إلى أنّ ثدييّ لم يعودا منتصبين مثلما كانا، مع أنّني لم أنجب ولم أرضع. ترهّلا لأنّ الحبّ خانهما. «نورة الحنّونة» لم تعد سوى ظبي مرتجف، من شدّة بغضي خيضر، أكاد أبغض الرجال كلّهم. لم يعلق في قلبي سوى كمال، كلّما أغمضت عينيّ برقت صورته في ذهني. أعانق

مخدّتي قبل النوم متخيّلة أنّني أعانقه، مُتعهّدة إذا تزوّجت غيره ألّا أنجب كي لا يُلاقي طفلي أباً مثل أبي. «هل أدركت يا أمّي كم أنّني أكثر حظاً منك، أن لا رجل سخر منّي!»، وددت مخاطبتها ورونة تدور حول نفسها بذيل مستقيم يترنّح مثل إبرة بوصلة.

عندما حضر أبي إلى البيت، بعدما اشتعلت المدينة بغضب الناس، افترض أنّ أمّي قبلت أن يبعثا عشرتهما، لكنّها أشارت إليه بأن يجلس في الصالون، حيث قعدت الضاوية، التي قطع مجيئها استماعي إلى إفادة حليمة.

تباطأت ساقاه وهو يبصر وجه الضاوية الثخين وأنفها المكوّر. اصفرّ ملمحه وفهم أنّه تورّط في عار يتعسّر عليه مسحه. لا بدّ أنّه لعن اليوم الذي شاهدها فيه للمرّة الأولى، تخرج من بيت زرزور، بعدما التمست منه حرزاً يطرد عنها هلوساتها، مصحوبة بابنتها الوحيدة نعيمة، الطويلة القدّ ببشرتها القمحيّة اللون وشعرها الأسود القصير. شغفته البنت فرجا عون المشعوذ، الذي مدّه بعنوانهما في قريتهما التي تبعد بضع عشرات من الكيلومترات، حيث يرعى الناس بغالهم ودواجنهم أكثر من رعايتهم أطفالهم. أوفد إلى الضاوية رسولاً يتوسّط له في طلب يد ابنتها، فامتنعت بحجّة أنّها قاصر، يتيمة لا وليّ يكفلها. انتهز عوزهما وأغدق على الأمّ مالاً، فزوّجته ابنتها، يوم سجّل مارادونا هدفاً بيده، بلا شاهد ولا وثيقة، عرفياً، بشرط أن يوثّق زواجه بها حالما تتمّ سنّ الرشد. لم يُمانع وابتاع لهما بيتاً لائقاً في القرية، فهجرا كوخهما، وظلّ يتردّد عليهما، يختلي بزوجته، غير الواعية بما يحصل لها، مجبرة على فعل ما يأمرها به، مُطيعة كلام أمّها، التي برئت من أخيلتها، فقد كانت كلّما حلّ الظلام تتخيّل أنّ أشباحاً تتبعها وتنوي الانقضاض عليها. داوم أبي على تلك الحال إلى أن حبلت نعيمة، فاختفى عن ناظريهما. أمهلته الضاوية ليُراجع

نفسه، لكنّه عاند. صبرت وصبّرت وحيدتها تلافياً لأن يُلحقا به ضرراً، لكنّه تعامى، فجاءت تطرق بابنا.

– سوف يتمّ الرضيع حولاً ونحن بلا مُعيل.

ارتجفت شفتاه وهو يسمع اسم ابنه.

– مروان.

غير مُصدّق أنّ نزوةً ما خلّفت صبيّاً، وقد قرّرت ألّا أغفر له ما اقترفه.

– لا نستطيع تسجيله في البلديّة.

لا تملك ابنتها ورقة تثبت نسب صغيرها، وقد غدت عدوانية حيال أمّها بعدما فهمت أنّها خُدعت.

ظلّت أمّ نعيمة تتكلّم وخيضر صامتاً، واعداً إيّاها بأن يزورهما ويدفع ما عليه من نفقة، وأنا أسترق إليهما السمع والنظر من ثقب الباب.

– وأن توثّق زواجك بها.

فتلعثم وأخذ يدعك صدغه.

حين هرول إليه بوستّة يُبلغه أنّ والدتي تبحث عنه، لم يعثر خيضر على سيّارة أجرة فامتطى الدرّاجة النارية خلف ابنه، يعتمر عمامة وعيناه تحتجبان خلف نظّارة شمسية، حذر أن يتعرّف إليه أحد من المتظاهرين، فاسمه يرتبط باختلاس ميزانية البلدية، التي أقيل من مجلسها. تخفّى كذلك في طريق العودة، وهو يُطمئن حماته أن يصرف عنها وعن ابنتها الحاجة إلى المال أو الاستدانة.

لم تهجر الدهشة وجهي، بعد أن سطع أخ لي، وتذكّرت أمّي يوم تزوّج بها أبي بعد وفاة زوجته الأولى، التي نزفت مستنقع دم، وهي تضع مولودها جلّول، من دون أن تجد طبيباً يسعفها، «أوحى لي وجهه برجل نقيّ»، تقول.

بعدما اكتشفت أمر الابن الذي خفي، باتت تشكّ في أنّ له علاقات أخرى. لم تصدّق أنّ زوجته الأخيرة، التي عاشرها أيضاً في زواج عرفي، وهي في مطلع العشرينيات من عمرها، أباحته له سعة ماله ومتاجرته في العقارات، عاقر، بل ظنّها أنّه أرادها امتاعاً لنفسه لا غير.

«أفضّل العيش مع كلب على العيش معه»، أكّدت. «ألا تكفيك القطّة التي تعيش معنا؟»، استفسرت في خلدي، موقنة أنّها نطقت كلماتها عن غير قناعة، فلا شيء يُخيفها أكثر من أن يفكّ أبي اقترانه بها على الورق وتلتصق بها لفظة: مُطلّقة، التي تماثل لفظة بغيّ في عرف الناس. سحبت أنفاساً من سيجارتي أفكّر في الذهاب إلى الحمّام العامّ، الذي يستحوذ صاحبه على بئر سخيّة بعمق عشرين متراً، والمخصّص للنّساء صباحاً والرجال بعد الظهر. أودّ أن أسكب على جسدي ماءً حارّاً يتبخّر معه قلقي، أن أسترخي عارية على منضدته الرخامية، أغمض عينيّ وأشعر بالبخار يتسرّب بين أضلاعي، أن أدلّك جلدي فيصير بنضارة بطلة فيلم «الشيخ». أحسّ أنّ بدني يزداد ثقلاً، وقد وعدت حليمة أن أعينها في نقل جثمان فقيدتها إلى نزرامة، معتذرة منها عن عدم الدفاع عن ابنها المتّهم بمحاولة قتل، ناصحة إيّاها بطلب عون حسينة. لا ألوي سوى العودة إلى رتابة حياتي، ألّا أتأسّس سوى في جنح أو قضايا طلاق أو ميراث، أن أصير حقّاً «عرّابة المطلّقات». أن أنغمس في مشاكل موكّليّ اليوميّة ولا أغامر في جناية أخرى، بعدما أفرج عن بشير مع انتفاء وجه الدعوى من دون حاجة إلى إخضاع الرسالة التي نُسبت إليه للخبرة الخطيّة. فقد عرفت المحكمة الجاني، لكنّني لم أعرفه وأنتظر مثوله، من أجل الإجابة عن سؤالين: هل هناك علاقة بين موت زكيّة زغواني وموت مرزاقة سوالم؟ وبمن نوت المغنّية الزواج؟

اقتنع خيضر بعدم العودة إلى البيت، تجنّباً لما قد يشتعل من ملاسنة معي أو مع أمّي، وقد تحوّل بوستّة إلى خادم له لا مجرّد ابن، بعدما عهد إليه محلّ وردة الرمال، على نيّة تغيير نشاطه إلى بيع الألبسة الجاهزة. وبات إبراهيم درّاس بلا عمل، سيتعلّم أنّ «الدنيا دوّارة»، وأنّ الحوت يأكل الحوت وقليل الجهد يموت. لن أجد شخصاً آخر يُعيرني أشرطة من دون مقابل، وبحكم أنْ لا أفلام تسلّيني عن همومي، آثرت الاستماع إلى الراديو.

انطلق برنامج «مواهب»، الذي يتبارى فيه مغنّون هواة في إعادة أغانٍ شهيرة للظّفر بمكافأة ماليّة، وأعلن المذيع عن المتنافسة الأولى: زازا.

ميمون

انصرف فِتية بعدما رشقوا زجاج سيّارتي ونوافذ الغرف بحجارة وهتفوا بالانتقام ممّن سمّوهم عاهرات يقصدن الفندق. «هنّ سائحات»، أردت الإجابة عليهم، فعقول هؤلاء الغاضبين مثل عقول الجراد، من السهل حقنهم بهرمونات الفوضى. «الريح اللي تجي تديهم»، يتصوّرون أنّ كلّ من تلبس تنّورة قصيرة وكعباً عالياً فاجرة. استرخيت على صوفا البهو، أدلّك صلعتي، حامداً ربّي أنّهم لم يقذفوا زجاجات مولوتوف، كما فعلوا في أمكنة أخرى، بينما الدمع ينزف من عينيّ... هل صرت مُجرماً؟ عويت مثل معتوه ويداي ترتجفان، ماذا فعلت يا سيدي ربّي لتُعاقبني! لم ينقطع لساني عن الدعاء لدرّاجي عوينة، الذي سبق أن قدّمه إليّ كمال حينما زرته في بيته، الذي استأجره في حيّ الصومام. اقتحمت ذلك البيت لأكتم أنفاس موظّف الاستقبال، بعدما شاهدت سيّارته مركونة في الخارج، فأريحه من سجن قد يطول إلى آخر أيّامه وأجنّب فندقي أو «صحرائي» فضيحته، لكنّني أخطأت مبتغاي. كسرت قفل الباب الخشبي بكُلاّب، ولم أرَ سوى ظهر درّاجي، مرتدياً قميص كمال البنفسجي الفاتح. رفعت مسدّسي،

وتلبّسني خوف لأنّني لم أستخدمه قبل ذلك، فأصابت طلقة من عيار 9 ملم كبد الضحيّة.

ماذا كان يفعل هناك؟ قدّرت أنّ عوينة تحيّن الظرف ليثأر من كمال، الذي اشتكى به، فقد انفلت الأمن ذلك اليوم من 5 أكتوبر، وخمّن أنّ خصمه محتمٍ بالفندق ولن يُجازف بالعودة إلى بيته. حدّثتني نفسي أنّ درّاجي تسلّق حائط البيت القصير، ثمّ نزل في الدرج إلى غرفة معيشة كمال. ربّما نوى سرقة أغراضه، لكنّه لم يلتقط سوى قميصه البنفسجي، وحين دخلت اندفع نحو الدرج، من دون أن أرى ملمحه، وكان وجهي ملثّماً، مستعيناً بمسدّسي الذي احتفظت به سنوات الحرب تحرّزاً، أطلقت تلك الرصاصة، ثمّ راجعت نفسي في رمشة عين، لكنّ الوقت كان قد فات.

«عشت جباناً»، همست وقلّبت بين أصابعي القرط الذي عثرت عليه في المخزن، فمنذ رحيل زازا، تعدّدت الشائعات، بين من يقول إنّ إخوتها انتقموا منها أو إنّ مشعوذاً غار منها أو إنّها خطفت قلب رجل فتكفّلت زوجته بإزهاق روحها. لم يعد يُطربني صوت آخر بعد صوتها، موتها أمات نصف قلبي. داومت على الإصغاء إلى أغانيها في «صحرائي»، في هذا الفندق، الذي خلا من زبائنه ولم يعد يذكّرني إلّا بأشباح من غادروا أو ماتوا. ولم يفتني الإصغاء إلى أغنيتها الأخيرة، أغنية وداعها الصامتة، في تلك الليلة التي غبت فيها عنها، مثلما غاب كمال عن ناظريّ من دون أن يخلّف أثراً، فدخلت وريدة مهرولة إلى البهو، تتعكّز على عصا، تسألني عنه، مستغربة اختفاءه. خشيت مصارحتها فتُصاب بمكروه، لكنّها أصرّت، ومن حقّها أن تعرف، فهي التي ربّته مثل أمّ لا مجرّد أخت. «إذا أبلغت عنه فسوف أبلغ أنّك وراء قتل أبي»، حذرتني.

حدّثتني عن الرقيب السابق في جيش التحرير المُسمّى سليمان، الذي جُنّ في المعتقل عام 1965. أسرّ لها أنّني أنا من حرّض والدها بلقاسم بلعطّار على الفرار، ثمّ أبلغت السجّانين بما نوى عليه. كتمت وريدة تلك القصّة، مكافأة لي نظير تستّري على شقيقها في مقتل مرزاقة سوالم، تاركة إيّاها مثل رصاصة أخيرة، تضمن بها مؤازرتي له عند الحاجة.

– هل تصدّقين كلام مجنون؟

– كان أعقل منّي ومنك.

حضضت ليلتها رفيقي على الهرب، وأنا أدري إلى أين سيؤول مصيره. عجز مُعتقلون آخرون عن ثنيه وانتهى أمره بالرصاص.

– أنت تهذين.

– سأحميك إذا حميت كمال.

دخلت في دوّامة من صداع وقلق، واضعاً سبّابتي على شفتي السفلى فحجبتها بالكامل، ضميري ينغّص عليّ أن كنت وراء مقتل أعزّ صديق لي كي لا يُنازعني ملكيّة الفندق، الذي اشتريناه من معمّر تنازل لنا عليه بمبلغ معقول ليفرّ بجلده بعدما شاعت اغتيالات الأجانب بعيد الاستقلال. أدركت أنّ تهمتها بإمكاني نفيها، لكنّها قد تُسيء إلى علاقتي ببابيون، أمين نادي قدامى المجاهدين الذي كان يتّخذ بلقاسم بلعطّار ذراعاً له، يأمره فيستجيب، مثلما فعل حين أوكل إليه تصفية بن قدّور درّاس، الذي ارتحل من القرية إلى حيّ العشاشة العشوائي، وكان من أوائل الملتحقين بحرب التحرير، ولم يرض أن يتفرّد بابيون بالقيادة. دفنا درّاس سرّاً في جبّانة النصارى، تحت شاهدة كُتب عليها اسم بن قدّور الثوري: «ولتام»، وأشاعا عنه أنّه خان الثورة وأفشى أسراراً للمستعمرين.

تنصّر بن قدّور وزوجته مثل العشرات من الناس، في كنيسة سان فيليب، إعجاباً منهم بفضائل الأخوات والآباء البيض، الذين ساعدوه في تجارته في الصوف، كما علّموا حرمه الخياطة والنسيج. كانا يستغيثان بيسوع، ويرسمان على صدريهما إشارة الصليب. لكن بعد خروج الفرنسيين صدرت أوامر بعودة كلّ المُتنصّرين إلى الإسلام، فميلاد الجزائر المستقلّة أوهن المسيحيّة. ووقفت ونّاسة في مسجد معلنة الشهادة، فرِحت بها نسوة ونسين أمرها في اليوم التالي. عادت إلى فقرها، متخلّية عن الخياطة والنسيج حزناً على فقيدها. لم تُشفَ من حبّها له، ولم تتعلّم من الإسلام سوى القليل، متراجعة عن خيارها بتنشئة ابنيها على حبّ المسيح. أعرض عنها أهلها وأقاربها الذين لم يغفروا لها ماضيها، غير راضين بزيارتها، متحجّجين بأنّها تسكن حيّاً شعبياً لا يأتمن فيه الزائر على نفسه، ما عدا عمّ أبنائها لعموري الذي فشل في إقناعها بأن يتزوّجها، وفق ما حكت لي، كما جرت العادة بأن يتزوّج الرجل أرملة أخيه، فاستقرّت علاقتها به بما تفرضه واجبات القرابة. معرفتي بماضي بن قدّور درّاس حتّمت عليّ ممانعة توظيف نجله إبراهيم، مغبّة أن ينبش ويكتشف قصّة أبيه، عكس ونّاسة، التي لم تمحُ السنون قسمات جمال في وجهها. اطمأننت إلى تكتّمها، فألحقتها كمنظّفة استجابة لإلحاح مرزاقة، التي تعرّفت إليها في دار البلدية. هل عليّ أن أخبرها عن مكان قبر فقيدها؟ أليس من الإنصاف أن تظفر ببطاقة أرملة شهيد تتيح لها عيشاً أفضل؟ كما من حقّ ابنيها أن يعرفا أين دُفن والدهما! وعليّ أن أبحث عن عذر يبرّر فعلتي في وجه بابيون.

أبلغت مُحافظ الشرطة باعتراف موظّف الاستقبال بمقتل زكيّة، تفادياً أن يتّهمني أحد بعدما رأى مؤذّن سيّارتي في المرج ليلة مصرعها، من دون أن أبلغ عمّا فعله بمرزاقة اتّقاء اتّهامي بالتستّر

عليه، فأخلى القضاء سبيل بشير لبْطم، مصدراً أمراً بتوقيف كمال. ظننتني أحسنت فعلاً بتلك الضربة الاستباقية لأحصر التهمة التي ستُوجّهها إليّ وريدة في باب الكيد. وعزمت مع سطوة قلقي أن أصفّي تجارتي في الأغذية، أكبح مسعاي في تجارة الأدوية، وأبيع الفندق، الذي صرفت فيه عمري وتنكّر لي، على أن أقتسم مبلغه مع بنات بلقاسم بلعطّار، لأبرئ ذمّتي من دم والدهنّ. قضيت حياتي أتسلّق درجات الخطايا، مثل سكّير يتسلّق سلماً، كلّما خطا إلى الأمام مال بدنه إلى الوراء، وبات عليّ أن أنصرف إلى حياة تقاعد، أعتني فيها بحديقة البيت وابني مهدي، الذي قرّرت أن أتيح له محلّاً في سوق تراباندو لبيع الأشرطة الموسيقيّة. وأنا شارد في أفكاري دلفت إلى البهو امرأة، قصيرة القدّ، ترتدي جلّابة داكنة، تخفض رأسها في استحياء، ببشرة خمرية.

– هل الحاج ميمون موجود؟

– ما حاجتك به؟

سألتها دون أن أكشف عن هويّتي فظنّت أنّني مجرد عامل هناك.

– طلب منّي السيد حميد أن أزوره ليتدبّر لي شغلاً.

– ما اسمك؟

– حكيمة سماتي.

سردت علي قصّة ترمّلها، وقد سبق لي أن سمعت تلك الواقعة، فتعاطفت مع حالها. وقد استقرّت في الشقة عينها التي أخلاها مفتّش الشرطة السابق، بعد وساطة منه.

– ميمون ترك عمله هنا.

رددت عليها، وأنا أضع إبهامي على طرف شفتي السفلى وسبّابتي على الطرف الآخر، ثم أسحبهما إلى الأمام، فجال في خاطري

أن أعرض عليها العمل في بيتي، لتؤنس الياقوت، مقرّراً أن أحلق ذقني وأعـود إلى الطبيب ليطمئنّ إلى حال قلبي، قبل أن ألمح وأنا أقف في الخارج شابّاً، بنصف طول عمود كهرباء، يلوّح بقضيب حديدي، ويعدو خلف فتاة تستغيث بأمّها وشعرها يرفرف إلى السماء. لم أجرؤ على التدخّل، ولا واحد من المارّة تجرّأ. ظللنا نتفرّج في صمت، إلى أن سقطت الفتاة أرضاً.

8 أكتوبر

أنبأتني أمّي أنّ مالك الفندق عرف مكان قبر أبي، وسيدلّها إليه، فسرت في بدني رعشة باردة وعدت إلى مكتبة «القرطاس والقلم»، المُندسّة في زقاق مُتاخم لشركة الكهرباء والغاز. وجدتها على حالها، مثلما زرتها قبل عامٍ، خالية من القرّاء معبّأة برائحة بخور مخلوطة بروائح مطهّرات، مع كتب شبه مدرسيّة وأخرى في العلوم والدين والأدب على رفوف معلّقة على الحيطان، يتسرّب إليها قليل من أشعّة الشمس. عرضت على صاحبها الخمسيني ما أحوزه من كتب قرّرت بيعها بغرض تأمين مصروف البيت في الأيّام المقبلة.

أخذ المكتبيّ، الذي حشا ورقة نعناع في منخره، مرتدياً بذلة ماو دكناء اللون بأربعة جيوب وخمسة أزرار، يتصفّحها ويتفحّصها. راح يتأكّد من أنّ أوراقها غير ممزّقة ولا عيب يشوبها، إلى أن توقّفت يداه عند رواية «الشيخ». وقع بصره على ختم مكتبة البلدية في صفحتها الأولى، وما كتبه نبيل قبل موته: «لا مال لديّ ولا صديق يُساعدني غيرك...».

– كيف وصلت إليك؟

– اشتريتها.

سلّمني مبلغاً مجزياً، مدوّناً اسمي وعنواني، بحجّة أن يعيد إليّ كتبي إن لم تُبع وأعيد إليه ماله.

وصلت إلى شركة المطّاط والبلاستيك، وقد انتصف النهار. نجت من غضب المتظاهرين بعد أن دافع عمّالها عن حرمتها، وبتّ مسؤولاً مؤقّتاً عن التوزيع، خلفاً لموظّف سابق يرقد في المستشفى، بعدما بُترت ساقه متأثّراً بالسكّري، بتوصية من تيجاني، الذي تربطه صداقة مع مدير الشركة، فلطالما نشر عنه مدائح في الجريدة. وقد اقتنعت بشغل المنصب إلى حين، مطمئنّاً أنّه بات من حقّي نيل بطاقة الإعفاء من الخدمة الوطنيّة، فأنا بكر أمّي وشقيقي التحق بالثكنة، وهذا سيُسهّل أمرها، ويُتيح لي منصباً في التعليم، مع العام المدرسي المقبل، نادماً على ما دفعته من رشى بلا منفعة من أجل أن أحظى بها.

جلست إلى منضدة خشبيّة، في مكتب ضيّق بنافذة كُسر زجاجها، يعصمني من ملاقاة عمّي الذي يشتغل في وحدة الإنتاج، خائباً أنّني لم أستمسك بكلامي: «الموت جوعاً على أن أعمل هنا». تذكّرت ما سمعته من بشير لبْطم في السجن أنّ مديرها يحبّذ العامل الصامت على العامل الكفؤ. لمحت حذائي الذي تآكل وطالعت طلبيات وصلت ذلك اليوم، من دون أن تنفكّ شفتاي عن نفخ دخان، قبل أن آمر عتّالاً، شاربه مقوّس وصلعته تلتمع، يوحي وجهه أنّه عارك الحياة بقسوة، أن يخرج مواسير من المخزن، ويحضّرها للشّحن. ما إن أنهى ما أمرته، حتى طلب منّي سيجارة بتودّد، فسألته عن اسمه. «عاشور حديري»، أجابني.

فرّ من قريته إلى المرج، مصحوباً بزوجته وابنته، كما حكى لي، بعد أن تنازع مع أقاربه قطعة أرض. حاول ابن عمّه خنقه بكابل كهرباء فغرز عاشور سكّيناً في كتفه، لكنّه نجا من الموت. ولم يعد

وأهله إلى القرية، خشية أن يكيدوا له، فهناك لا قضاء ولا قانون، بل ثأر وقصاص فقط. رُزق بطفل، تاجر في الغنم وعمل في ورشات بناء، وصار يعهد شياهه إلى جاره، وهو يضمّد جرحاً على جبهته، بعدما اعتدى عليه أهل بيطري، «اسمه نبيل».

حمّلوه مسؤولية عدم تثبيت ألواح خشبية كما ينبغي، في سقالة اعتلاها صديقي، للاطمئنان على سير البناء، ممّا أفضى إلى سقوطه سقوطاً مميتاً.

سنين قضى عاشور في هذه المدينة لكنّه لا يزال يشعر بأنّه ابن القرية. عادت ابنته لويزة إلى المدرسة، كما قال، وانضمّت إلى جوقة الموسيقى في مؤسّستها، تُداعب حلماً أن تصير يوماً مُغنّية، «الغنا حرام مش حابها تكمل في هذا الطريق»، خاطبني، وقد توسّط له مفتّش الشرطة في نيل شغل في الشركة، أمّا أنا فلم يتوسّط لي في شيء.

– عاونته في قضيّة المرأة اللي لقيتها ميّتة.

فهمت أنّه يتحدّث عن المغنّية.

– زكيّة؟

– لا أعرف اسمها، أجابني.

شغفني الاستماع إليه، لكنّ هرج العاملين تصاعد من حولنا، فاتّفقنا على أن نلتقي في اليوم التالي في مقهى الخيمة، ليسرد عليّ بقيّة هذه القصّة الغامضة مثل غموض البلاد وناسها.

لم أتمّ دوامي، بل غادرت مبكراً وقد وافت الساعة الرابعة عصراً. ظللت منطوياً على نفسي في غرفتي، أكوّر خصلات شعري الذي طال بين أصابعي، متحاشياً مُلاقاة أمّي في المطبخ، فقد تملّكها خوف من أن تفقد عملها بعدما أفشى أحدهم في الفندق أنّ مالكه

قرّر بيعه. «المهمّ أن يدلّنا إلى قبر أبي»، قلت قبل أن يطرق ملّاح باب البيت، عارضاً عليّ جهاز تشغيل فيديو: «اقترح أيّ سعر وخذه»، قال.

حصل عليه من فيلّا الرومي، بعدما أغار عليها بمعونة محتجّين يوم 5 أكتوبر، اكتشفوا أنّ في طابقها الأرضي مطعماً في وسطه خوان من خشب الصنوبر، حوله أكثر من ثلاثين كرسيّاً، يطلّ على مسبح، بينما استحوذ على الطابق الأوّل ملهى، مؤثّث بأحدث أجهزة الصوت، وتتخلّله طاولات صغيرة وكراسيّ مغلّفة بالجلد.

أنبأته أنّني هجرت عملي في محلّي وقد بعت جهازي أيضاً، مع حزمة أغراض شخصية وكُتب. لم أحتفظ إلّا بالقيثارة وجهاز تسجيل الكاسيتات، أمّا شريط حفلة زكيّة فقد دفنته مثلما دُفن جثمانها، متمنّياً له أن يجد مشترياً.

عزمت على التمشّي للتّخلص من قلقي، أشفط دخاني، مستحضراً ما بلغني عن أنّ رواتب نهاية الشهر قد تتأخّر عن موعدها، بداعي تراكم ديون الشركة، إلى أن توقّفت أمامي سيّارة شرطة، وأنا أمرّ قرب جبّانة النصارى. «اركب معنا»، جاء صوت من داخلها.

لم أصادف في المكتب الذي انقدت منه إلى السجن في المرّة الماضية، لا المفتّش الذي يشاكل غروتشو ماركس ولا الحافظ الذي أفرغ أنفه في منديل قماشي، بل شخصاً آخر، برتبة مفتّش أيضاً. شاربه حليق، شبّهته في سرّي بالممثّل همفري بوغارت في فيلم كازابلانكا، الذي شاهدته وأعدت مشاهدته ثلاث مرّات.

– من أين حصلت على هذا الكتاب؟ مشيراً بسبّابته إلى رواية «الشيخ».

فهمت أنّ المكتبيّ قد أوصل تلك الرواية إلى المخفر طمعاً منه في مكافأة وعدت بها الشرطة كلّ من يُبلغ عن مشاركين محتملين في اقتحام مؤسّسات الدولة في الأيّام الفائتة. فبعد فضّ تظاهرة

اتّحاد التجّار عاد الناس غاضبين واشتعلت نيران في كلّ أرجاء وسط المدينة.

– اشتريته من بائع على الرصيف.

– اسمه؟

– لا أعرف.

– أين يُقيم؟

– لا أعرف.

قام من كرسيّه وجلس على طرف المنضدة، منحنياً برأسه تجاهي، متّهماً إيّاي بمشاركة الشبان الذين أغاروا على مكتبة البلدية وسرقوا عتاداً منها.

– كنت في السجن حين وقعت الاحتجاجات.

قلّب في ملفّاته ليتأكّد من أقوالي، ثمّ واجهني:

– لكنّك اشتريته من أحد المخرّبين الذين اقتحموا المكتبة وتتستّر عليه.

لاح لي من النافذة التي فُتحت على مصراعيها ظلامٌ رطب ينبسط برِفق على وجه المدينة، وتمتمت: «ألا تعلم أنّ عتاد الإدارات يُباع في الأسواق؟ أم يجب أن أوقظ نبيل من موته ليشهد لصالحي؟».

– أنت رهن الاعتقال.

نسمت على وجهي ريح منعشة أعادتني إلى ليلة نجاحي في امتحان البكالوريا، متذكّراً كلام جيراني حينذاك. أحدهم تنبّأ لي بأن أصير عالماً، آخر قال إنّي سأغدو أستاذاً وثالث استبشر بأن يراني في التلفزيون، فتبادر إلى ذهني أن أردّ عليهم تلك اللحظة: «لست سوى جرادة بُتر جناحاها». وكدّر بالي ألّا تجد أمّي شخصاً تمطر وجهه بكلامها الشائن كما اعتادت معي، لن تجد «بريهة» آخر. ولن أرافقها في قراءة الفاتحة على قبر أبي، الذي لا يزورني في أحلامي سوى بوجه

غائم. طرأت على بالي جملة وردت في رواية «الشيخ»: «حين يولع عربي بامرأة فلا بدّ من أن يستميل قلبها»، أمّا أنا فكلّ شيء ولعت به، ضاع منّي. استحضرت كلمات الأغنية: «سالمة يا سلامة... رحنا وجينا بالسلامة...»، متسائلاً في خلدي: متى أسجّل بروفة أخيرة منها وأرسلها إلى الإذاعة؟

«أريد محامياً»، كدت أصرخ، فقد تعوّدت مشاهدة متّهمين يطلبون محامين في الأفلام، فهل تجري الأمور هنا مثلما عليه الحال في السينما؟ ووصلت إلى مسمعي أصوات سيّارات تقطع الشارع أعقبتها ضحكات رجال يمشون، لا أعرفهم ولا يعرفونني، فأنا لست سوى إبراهيم درّاس، نكرة ونَسْيٌ مَنسيّ، في مدينة لم يتّفق ناسها على اسمي، ولا يزال أطفالها يتسلّون بتهشيم مصابيح الإنارة العموميّة بالحجارة. هل يُساور هذا المفتّش فضول في التلصّص على المارّة، من نافذته، مثلما كنت أفعل في وردة الرمال؟ هل يعرف ما أفضى إليه التحقيق بشأن مغنّية الفندق؟ بدا لي قليل الكلام عكس شبيهه همفري بوغارت. لن يتاح لي ملاقاة عاشور حديري في مقهى الخيمة ولن أعرف ما غاب عنّي، قبل أن يملأ أذنيّ طنين حادّ تلاه اضطراب في معدتي كما لو أنّني أكلت البيض الذي أعافه. فتحت فمي متألّماً من دون أن يخرج صوت منه وشعرت بحرارة تنهش بدني كما لو أنّني أغرق في ماء يغلي، مع خدر يسرى في ذراعيّ وساقيّ، ورغبة في الاستلقاء وإغماض عينيّ على ألّا أفتحهما مرّة أخرى.

كمال

مضى شهر لم أداعب خدّي حسينة، لم ألمس يديها الناعمتين، اللتين كانتا تعتنيان بشعري، منذ أن حضنتها في الغرفة 302، التي اكتظّت بروائح عطور العشّاق الذين كنت أكتريها لهم. وما إن انصرفت، حتى تقدّمت منّي زكيّة، وأنا أجلس في مكتب الاستقبال، كرّرت طلبها بأن أهبها مبلغاً كبيراً من المال، تستعين به في الفرار مع بشير إلى مدينة ساحليّة. لم ترضَ أن تقضي عمرها مغنّية في مرقص، ولم أقدر على دفع ما أرادت. مقتتني من شدّة تأمّري وقسوتي عليها كشأني مع الموظّفين الآخرين، ثمّ هدّدتني بإفشاء ما خلّفته في رحم مرزاقة، فقد سمعت شجاري معها ليلتها. علمت أنّني أزهقت روحها ملتزمة صمتاً طويلاً كي لا أفضح بدوري أنّ أمن بلدتها يبحث عنها. لكن منذ أن أحسّت أنّ المفتش حميد يقف في صفّها حتّى ضغطت عليّ، مدركة أنّه يستلذّ أغانيها وسينجدها إذا استعصت حالها، فضعفت أمامها ولم أجد عوناً من حبيبها، الذي دعوته إلى بيتي ليعينني في نهرها بعدما فشل فرحات في تلك المهمّة. لكنّ صديقي سرعان ما سكِر، وتشابك مع جاري، فسقته إلى المستشفى ينزف من كتفه، ثمّ زرت إبراهيم درّاس في محلّه، أعيد إليه أشرطة أفلام وأشتكي إليه همّي، من دون

أن أفضي إليه باسم من تبتزّني. كنت ساذجاً أستأنس برأيه، كنت أراه حصيفاً، حاذقاً، عليماً ومستنيراً، فراح يتلو عليّ كلمات رزينة: «الباب اللي يجيك منه الريح، سدّه واستريح»، أقنعني بعدم الرأفة مع خصومي: «اللي ما عندوش كرامة ما هوش رجل»، قبل أن أعود إلى الفندق وتُباغتني مكالمة حسّونتي، تخبرني فيها أنّ الخيّاطة مليكة أتمّت فستاناً جديداً لها، وتودّ رأيي فيه. لم أكتم عليها تضايقي من زازا، من دون الخوض في التفاصيل.

– خطّافة الرجال.

هكذا وصفت زكيّة زغواني.

– أتعرفينها؟

لم تجبني، وأرادت مقابلتها «كي تؤدّبها»، راضية بمقترحي أن أجرّ المغنّية إلى مخزن ميمون للأغذية، الذي تعوّدت فيه ملاقاة بشير، بعدما منعه الحاجّ من الوصول إلى غرفتها. أسلّمها المفتاح، كلّ مرّة، لتختلي به ساعة أو يزيد، كلّما اشتاق كلٌّ منهما إلى الآخر، وهي تجزل لي من كلمات الشكر.

أوهمت زكيّة بأني سأتيح لها مالاً في الصباح التالي، وأنّ حبيبها يريد رؤيتها، بعد نهاية سهرتها. لعلّها ظنّت أنّه رغب في الاعتذار عمّا جاء في الرسالة التي عثرت عليها الشرطة في غرفتها، ولست أعلم من كتبها! من المستحيل أن يكون بشير فكّر في هجرها، فخرجت ترجو لقاءه عقب منتصف الليل. لحقت بها حبيبتي المحامية أولاً ثمّ وصلت، فوجدتهما تتبادلان السباب، وباب المخزن كان مواربا، وقد رفعت حسينة سبّابتها في وجهها تهدّدها بإفشاء علاقتها بحميد. فاشتعل رأسي حيرة: هل تعلّق قلب العقربان بها؟ دبّ شعور بالحزن في دمي، خلّفته الكؤوس التي احتسيتها تلك الظهيرة وزدت عليها

كأساً قبل أن أغادر الفندق، مع إحساس بأنّ الجميع يغارون منّي وأنّ إبراهيم كان محقاً في حثّي على سحق من يبتزّني.

– لست على علاقة به.

نفت التهمة عن نفسها.

– تكذبين.

– أنا لا أعرفك.

– أنا أعرف ما لا تعرفين.

لم تصطبر زازا على سماع تهمتها، فأمسكتها من عنقها، بيديها وأظافرها الطويلة، تودّ خنقها، بعينين مترعتين قسوة لا يُصدّقها من يرى ملمحها الهادئ. طوّحت بها بين أكياس سكّر، في مشهد بعث رغبة انتقام في قلبي. لم أحتمل أن أرى شخصاً يعتدي على من ملكت قلبي. اندفعت إلى المُغنّية، التي ارتجفت حين رأتني، لكمتها بكلّ ما أُوتيت من قوّة، غضباً وكرهاً لها، من دون أن أنتبه إلى قرطها الذي وقع، ثمّ أنهضت حسينة. ركضت زكيّة إلى الخارج، تتدلّى حقيبتها السوداء في يدها اليمنى، وصراخ حسينة يكاد يشقّ طبلة أذني: «سوف تشكونا إلى الشرطة». ارتعدت مفاصلي من سماع كلمة شرطة. تخيّلت أنّ زازا سوف تفضحني وتشي بما حصل بيني وبين مرزاقة. سوف يعرف الناس أنّني ألقيت بها من شرفة غرفتها وسأدخل سجناً لن أخرج منه. لم أعرف ماذا أفعل سوى أن التقطت قضيباً حديدياً مدبّب الرأس، يُستعمل كمزلاج من الداخل. شاهدت زازا تركض، مبصراً كتفيها العريضتين من تحت قميصها البيج، وساقيها الطويلتين تحت بنطلونها الأزرق، فمضيت خلفها. رأيت شعرها يرفرف إلى السماء، وسمعت استغاثتها بأمّها. أنا أيضاً استغثت بأمّي، وقبل أن أصل إليها بقامتي التي تتجاوز قامتها ببضعة سنتمترات، زادت من سرعة ركضها. خفت أن تفلت منّي، أن تبلغ طريق السيّارات الذي

يمتدّ على طرفه الآخر مرج. ذكّرني صوت داخلي بالمثل: «الباب اللي يجيك منه الريح، سدّه واستريح»، فضربتها بالقضيب الحديدي، مثل لاعب بيسبول يضرب كرة. نويت إصابة أعلى ظهرها، فأثبّط حركتها، لكنّها مالت فسقطت الضربة على قفاها. تخلّصت من ابتزازها لي وأخمدت الذكريات والآمال التي دارت في رأسها، وقد بلغت الساعة الواحدة صباحاً، بعدما اتّخذ الهلال الأحدب موقعه المعتاد في السماء ولا غيمة تكدّر النظر إليه. أطلقت المرحومة صرخة وسقطت، خرجت رغوة بيضاء من فمها وتخبّطت مثلما تخبّطت أمّي في فراشها، ثمّ أطلقت حشرجة لم أفلح في محوها من رأسي. كلّما تذكّرتها خطرت على بالي حشرجتها.

صاحت المحامية بشفتين مرتجفتين: «ما.. ت.. ت»، نعتتني بأقبح الكلمات واختلط صراخها بنشيج. ارتخت يداي وسقط القضيب أرضاً، واقفاً أمام الجثّة أفتح فمي وأغلقه من دون أن أنطق كلمة، تأكّدت مرّة أخرى أنّ القتل عمل سهل، راغباً في الفرار، في الركض، يتملّكني هلع، لا يصل وجهي سوى ضوء شحيح من نيون المخزن المتسرّب من الباب المُوارب.

مسحنا دمها ونقلنا جثّتها إلى المرج المُجاور، ونحن نتصبّب عرقاً ودمعاً، لا نسمع سوى دبيب أقدامنا بعدما غلّفناها بنايلون. مدّدناها في أرض مُنحدرة بين أعشاب الشيح بعدما أدرنا رأسها جهة القِبلة، في مكان ظننّا أنّ الأعين لا تصل إليه بسهولة، مستعينَين بكشّاف سيّارة الحاجّ التي جئت بها، قبل أن أنظّفها بماء جافيل مثلما نظّفت القضيب الحديدي، ممتثلاً لأوامر حسينة، فقد تعلّمت من تأسّسها في جنايات كيف يُداري القتلة أفعالهم، بعدما سترنا أيدينا بجواربنا. سحبت بطاقة الميّتة من حقيبة يدها، وهالني المبلغ الكبير الذي عثرت عليه معها، ثمّ انسحبت حبيبتي إلى بيت أهلها وأنا إلى

الفندق، بعد أن رتّبت الأدوية التي أرسلها ميمون مع ابنه، في ثلّاجة المخزن. غيّرت ملابسي في الغرفة الرجالية بالطابق الأرضي، متمنّياً أن يتقدّم منّي أحد فيصفعني ويخبرني أنّ ما حصل لم يكن سوى حلم. تقيّأت في الحمّام كلّ ما تجرّعته ذلك اليوم، فاستعدت توازني. فتّت بطاقتها وتخلّصت منها، تخيّلت كلاباً ضالّة تشدّها رائحة إلى موضع الجثّة فتنهشها، لكنّ الملائكة حمتها. جلست أنتظر وصول سيّاح تعطّلت حافلتهم في الطريق، بدل أن أعود إلى بيتي فأنام ساعة أو اثنتين، لأضمن أنّ أعيناً رأتني في مكان عملي ليلة مقتلها، وأجهدت نفسي، في الأيّام التالية، في التصرّف كما لو أنّني لا أعرف شيئاً ممّا حدث، مسرفاً في الأكل، التدخين والشرب، مرهقاً من قلّة النوم ومن محادثة نفسي مثل مخبول، مع شعور بأنّ هناك من يودّ إيذائي يطوف في ذهني. أحسست كما لو أنّ طيف زازا يرقبني في كلّ زاوية، وضغطت عليّ حسّونتي لأطلب يدها من والدتها: «أريد أن أحمل اسمك»، قالت لي، وقد وجّهت شكوك نورة إلى اتّهام إخوة زكيّة، من دون أن نعلم لماذا كانت تنبش حكاية مرزاقة سوالم، عازمة في حال تعسّر أمري على إلصاق دم الميّتة بالشيخة ذهبيّة بحجّة غيرتها منها.

ما يُسعفني على الصبر أنّ حسينة خارج الحسبان، فقد أقررت للحاجّ بأنّني ارتكبت الجرم وحدي. لم أكن لأطلق لساني باعتراف لولا خشيتي من ضعفها، أن تهتك الحقيقة بعدما أعلمتها، في الهاتف، أنّني بحاجة إلى وقت للتّفكير في شأن الخطوبة، لأنّ أختي مقبلة على عملية جراحية، فظنّت أنّني أنوي التخلّي عنها. نبت عنها في تحمّل التبعات، نادماً أنّني لم أستجب لرغبتها في دفن الجثّة، خوفاً من أن يطول الحفر والردم ويباغتنا أحد ما متلبّسين بالفعلة. ماتت زكيّة بقلب ينبض حبّاً لبشير، وأنا الآن بقلب يشتاق إلى أختي

وريدة التي ربّتني بعدما تدحرجت إلى هذا العالم بالخطأ. لم يكن والداي يخطّطان لإنجاب طفل أخير، بل صرت جنيناً في غفلة منهما، وصلت إلى هذه الحياة بنزوة وخرجت منها بنزوة أخرى، ولا يملك ميمون سوى أن يجزل لنا شكراً أن أبعدنا الجثّة عن المخزن فأعفيناه من أن يكون بين المُشتبه بهم، مع أنّني لا أدري ماذا سأفعل من دونه. كان درعاً تحميني من السقوط وبتّ من بعده وحيداً، غريباً، عارياً ومنبوذاً.

ماذا فعلت لأعيش حياة غير التي رغبت فيها؟ حياتي لم تكن سوى رسم بالرمال طمسته ريح، لم أنعم بحرز من سيدي زرزور يقيني وزر ما اقترفت، ولست أدري كم يلزمني من أوراق أخرى أسرد فيها ما وقع منذ أن غادرت زازا دنيانا. لكنّني تعبت من الكتابة، وأنا أكبّ بوجهي على منضدة في غرفة فندق، لا تشبه في شيء نظافة وترتيب غرف فندق الصحراء، في هذه المدينة المستوية في أقصى الجنوب، التي لا يهطل فيها مطر وتبعدني عن حسينة بستّ ساعات. أسمع وقع أقدام يدنو من الباب ووشوشة رجال، بينما الراديو يبثّ، بصوت خافت، حفلة لأوركسترا موسكو الفلهارمونية. لست وحدي من كتم صوت زكيّة، بل شاركتني حبيبتي تلك الفعلة، مثلما شاركنا فيها إخوتها الذين نبذوها، بشير الذي أخلف وعده بالزواج بها، الشيخة ذهبية التي كادت لها، ميمون الذي زاد من غرورها، إبراهيم الذي زرع في قلبي رغبة انتقام منها، وحميد الذي أوهمها بحمايتها. توقّف وقع الأقدام وسمعت طرقة على الباب، طرقتين ثمّ ثالثة فرابعة، بإيقاع متصاعد. لا أحد يعرفني هنا، فمن الطارق؟

لست أحتمل النظر إلى وجهي، فقد عوقبت وحُكم عليّ بفراق من أحبّ. هل تغفر لي حسينة خطيئتي؟ أليس الحبّ أن نتجاوز عن زلّات من نُحبّ؟ لن أنتظر إجابة منها، فالمحاميات يطرحن الأسئلة ولا

يجبن عنها. لم تُجبني حين سألتها ما تعرفه عن علاقة الميّتة بمفتّش الشرطة، مع أنّني أجبتها عن كلّ شؤون حياتي. لم يتسنّ لي أن أرى فستانها الجديد لكنّ صورة ثغرها الضاحك تشعّ في بالي كلّ حين.

كنت في صغري أمهر اللاعبين في تسديد ركلات ترجيح، فلقّبوني «غارينشا». تكهّن لي الناس بمستقبل خصيب: سألعب في وفاق سطيف أو مولودية الجزائر، ولم يعلموا أنّ مستقبلي هو تسديد ركلات موت. لقد زادت خشونة الطرق، وأحدهم ينادي على اسمي. هل نادى سمير لعروم أم كمال بلعطّار؟ لم أعد أتذكّر سوى كلمات إبراهيم درّاس، الذي جعلني ألعن نفسي. كم وددت أن أقطع رقبته في محلّه ذلك اليوم. «اللي ما عندوش كرامة ما هوش رجل»، كان سبباً أن دست كرامتي بقدميّ، أذللت نفسي ولم أعد رجلاً. «افتح الباب»، صار صوت المنادي جهيراً فسرى بلل بين ساقيّ، وأوركسترا موسكو الفلهارمونية لم تنه معزوفتها بينما رأسي لا تخترقه سوى كلمات أمّ كلثوم: «كم بنينا من خيال حولنا/ ومشينا في طريق مقمر»، لا بدّ أنّ الطارق يعلم أنّني في الداخل، لن يطيق صبراً وسيكسر القفل، ثمّ شرع التليفون في الرنين، من يطلبني؟ ماذا يريد أن يُخبرني؟ لست أرجو سوى أن يُخبرني أحدهم أنّني كنت نائماً، أنّ ما حصل لم يكن سوى وهم أو يطمئنني بأنّني ميّت، أنّني متّ موتاً رحيماً.

بشير

السبت

غفوت دقائق حلمت فيها بأحمد بن حسن بطل رواية «الشيخ»، الذي حكى لي عنه إبراهيم درّاس. رأيته يمرّ أمامي، فارع الطول، برفقة حبيبته ديانا، من دون أن يلتفتا إليّ. سرّتني قصّتهما، فقد اختطفها وضحّى بنفسه كي يُبعد عنها ظلّ أيّ خطر يهدّدها. أمّا أنا فقد اختطفت قلب زكيّة، أبعدتها عن أهلها، لكنّني لم أضحّ بشيء من أجلها. راوغت رجالاً لتظلّ وفيّة لي وغبت عنها يوم احتاجت إليّ. كنت جباناً، مثل عنكبوت يبني بيته ولا يعرف كيف يحافظ عليه، ثمّ قُمت مؤذّناً بصلاة الجماعة.

الأحد

تُراودني رغبة في أن أحضن رحّال. أن أرتمي في صدره، وأسرد عليه فجيعتي في الحبّ، لطالما آمنت بأنّ الحبّ الأجمل هو حبّ غير مكتمل، أجمل ما في الحبّ رغبتنا فيه، فإن عثرنا على المحبوب ماتت تلك الرغبة. لكن رحّال لم يذق الحبّ في حياته ولن يفهم اشتياقي إلى محبوبتي.

الاثنين

من يُدوّن يوميّاته يُخيّل إليه أنّه شخص مهمّ، بينما حياتي لا تهمّ أحداً غيري. حياتي حديقة خسارات، أفتري كلّما سألني أحد عن حالي وأجيب: أنا بخير. كلمة «بخير» تعني أنّني أحاول طمر حسراتي.

الأربعاء

قالت لي زكيّة ذات مرّة: «إن كنت تحبّني، فاكتُب عنّي».

أعلمتها بأنّني لا أجيد الكتابة سوى عن نفسي وعمّا يدور في سرّي، ولا أتقمّص حيوات الآخرين. لم ألبّ رغبتها ولم تصرّ عليها، فقد ماتت وباتت حكايتها على الألسنة كلّها. قد يكتب عنها شخص آخر ويوثّق سيرتها على قصرها، فأنا متّهم بقتلها، ناقماً على نفسي أنّني عرفتها وأحببتها.

منذ خروجي إلى الدنيا سارت حياتي بأخفّ الأضرار، إلى أن أطلّ هذا العام 1988، فجعلني أشعر بأنّني عشت مغفّلاً. لم أمت ولا رغبة لي في الموت، أقضي ليلي ونهاري مُحاولاً محوها من ذاكرتي. كلّما أغمضت عينيّ طفت صورتها في ذهني، وتخيّلتها تسخر من حالي في مقامها العالي.

انزويت بعد الغداء، الذي لا يعدو أكثر من عجائن نصف مطهوّة، مع خبز بائت يتلوّى مثل بلاستيك، أنظر من حولي بلا تركيز، وقرفص بقربي إبراهيم درّاس، خافضاً رأسه مقاوماً رغبته في البكاء، يشدّ ركبتيه بذراعيه من ضيق المكان. وبدأت الشائعات تتواتر: «وقع انقلاب»، صاح أحد المساجين، مُدّعياً أنّه استرق السمع إلى حارسين، ردّ آخر: «بل الرئيس استقال»، بينما أغلظ ثالث باليمين: «وقعت اشتباكات مع متمرّدين»، فتهت في زحمة الأقاويل، قبل

أن أسمع وقع أقدام خشنة ثمّ صرخات تتعالى في الخارج، وفُتح باب السجن.

التحق بنا خمسة شبّان، في أواسط العشرينيات، فنظّم المساجين أنفسهم وفسحوا خمسة أمكنة جديدة. اضطجع أحد الوافدين على جنبه عاجزاً عن إجلاس مؤخّرته من شدّة التوجّع، فتقدّم منه جرّاح، متّهم بقتل مريضة عن غير قصد، يتحسّس مواضع ألمه. أصررت على أن أسمع منهم قصّة ما حصل، فتفوّه أحدهم، تفوح منه رائحة غائط، بأنّ الناس خرجوا في تظاهرة، عقب شنّ التجّار إضراباً، وواصل آخر أنّه شارك شباب المدينة هجوماً على سوق الفلّاح، نالوا من مخزنه ما يبتغون، من أغذية كانت مفقودة، قبل أن تفرّقهم الشرطة وتعتقل بعضهم.

زادت اللجّة حين سرد ثالثهم أنّ المتظاهرين أجّجوا النيران في مؤسّسات الحكومة وأضاف رابعهم: «خلّينا الحالة الداب راكب مولاه». لماذا لم يحرقوا هذا السجن أيضاً؟ يُخامرني شكّ في أنّه لا مفرّ لي سوى معجزة كأن يُحرق السجن فأنتفع من الفوضى.

الأحد

أحسّ أنّني شخص آخر.

أخذت حمّاماً دافئاً وحلقت شعر عانتي الذي نما مثل طحالب، تركت بشير القديم في السجن الذي غادرته، وخرجت بجلد بشير ثانٍ. بشير لبْطم القديم عاش جباناً، هلوعاً، كسولاً، لئيماً، كاذباً، فاشلاً ونكوصاً. أمنيّتي ألّا تزلّ قدما بشير لبْطم الجديد.

الأربعاء

أوّل مرّة أخرج من البيت بعد الإفراج عنّي، وانتبهت أنّ اليوم هو 19 أكتوبر. أربعون يوماً مرّت على رحيل زكيّة. حضرت جنازة صالح قيسة، مسؤول التوزيع السابق في شركة المطّاط والبلاستيك. تابعت المُشيّعين بعينيّ وهم يُنزلون جثمانه إلى قبر وكبحت نفسي عن البكاء. واظب صالح على تلقيني القناعة لكنّني كنت تلميذاً سائباً. قرّرت ألّا أعود إلى عملي، فلا أحد سيُصدّق براءتي، راجياً أن ينعم عليّ ربّي برزق غيره. سرت بين شواهد تحفّها أعشاب الشيح، إلى أن بلغت طرف المقبرة حيث انزوى قبر حبيبتي، فلمحت فوزي، بأنف توارى خلف ضمادة، يقرأ الفاتحة على روحها. لم أشأ أن أكلّمه فهو يبغضني، لأنّني سخرت مرّة من تضخّم ثدييه. علّمته زكيّة كيف يزيل شعر ساقيه وإبطيه بلا ألم، مع دهنها بزيت الخروع الذي يزيدها نعومة، وعاجلني لساني: «ظلمتها... ظلمتها»، وعدتها بأسفار إلى مدن بحرية ولم أف، متمنّياً لو أنّ حياتي مضت من دون أن أعرفها. دعوت لها ومسحت وجهي بكفّي. أغمضت عينيّ فلم تطفر بمخيّلتي سوى صورة كمال مبتسماً، لماذا لم يزرني؟

الجمعة

رأيت نفسي، في المنام، أنّني عدت إلى السجن ورحّال يسرد عليّ تفاصيل عمله جنب والده الحلواني، ثمّ استيقظت ولحظت أنّ جرحي على كتفي اليسرى قد اندمل، مُخلّفاً ندبة دكناء بشكل مستطيل، مثلما اندمل اشتياقي إلى زكيّة، مُخلّفاً طيفها يجول بين ناظري، أكلّمه في غرفتي، التي أفرغتها من الكتب ومن صور المغنّين واللاعبين. قال أبي: «سيحوّلون فندق الصحراء إلى مشفى». سيتلصّص مرضى

على ذكرياتي مع حبيبتي. «المستشفى المركزي لم يعد يحتمل توافد الناس إليه»، ولا أنا بتّ أحتمل حياتي، ما زلت مداناً في عيون أقاربي. عشت محاسباً في شركة وطنيّة ونسيت محاسبة نفسي. إنّني أشبه ذلك الفرنسي دريفوس، الذي طالعت قصّته، أنا مذنب مثله رغم براءتي.

والداي قرّرا بيع البيت ظنّاً منهما أنّ الشؤم يسكنه، والارتحال إلى آخر، غير مصدّقين كلامي بأنّ ما حصل ليس سوى قضاء وقدر. عرضت عليهما مالي الذي وفّرته قصد الخطوبة التي لم تتمّ فلم يعترضا. لا أحد يؤمن بي في هذه المدينة التي تتطاول في مبانيها، التي انقشعت عن سمائها سحب القنابل المسيلة للدّموع، عقب ظهور الرئيس على التلفزيون، واعداً بغدٍ أفضل، فرجا الناس من كلامه خيراً. أمّا أنا فلا أرجو سوى نسيان الحبس وصخب المحابيس. لكنّ الحبس الأكبر الذي عليّ التخلّص منه هو الكتابة. أنا لا أصلح لتسويد الورق. هذا الدفتر مآله رماد تذروه الرياح مثلما ذرّت السنون قصّة حبّ ديانا مايو وأحمد بن حسن.